مطبوعات المجمع العلمي العراقي

رحلة اوليفييه الى العراق

١٧٩٤ — ١٧٩٦ م

ترجمة

الدكتور يوسف حبي



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م

تقـــديم

بدأ اهتمامنـــا منذ سنوات بدراسة الرحلات نظراً لان المادة التي فيها تكوّن تاريخاً . ويطيب لنا اليوم ان نقدم رحلة اوليفييه المفيدة اغناء للمكتبةالعربية .

الرحلــة :

اوليفييه ((Olivier) رحالة فرنسي تجول في عدد من أقاليم الدولة العثمانية (١) بما فيها مصر فضلاً عن زيارته فارس وقد قام برحلاته في السنوات الست الاولى من الثورة الفرنسية ، اي من ١٧٩٣ م حـــتى سنة ١٧٩٧ (١٢٠٨ ــ ١٢١٢هـ) ، وزار العراق مرتين اولهما عندما قدم من تركيا وسوريا ، ثم زاره مرة اخرى في طريق عودته من إيران الى فرنسا ، وذلك خلال السنوات ١٧٩٤ ــ ١٧٩٦(٢) .

يظهر من الصفحات الاولى من المجلد الاول بان المجلس التنفيذي المؤقت للثورة الفرنسية كلّف اوليفييه وبروكيير ، في اواخر تشرين الاول سنة ١٧٩٢ بالقيام برحلة الى بلاد الدولة العثمانية وفارس ، وذلك نظراً لفوائدها الجمة بالنسبة للتجارة ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعي ، والفيزياء العامة ، والجغرافيا ، والطب ، والعـــلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وفرنســا ، لان هـذه الامور لــم تكن واضحة للجمهورية الفرنسية الحديثة العهد بالشكل الكافي . وقد صدرت بذلك

---

(١) يحدد اوليفييه في الفصل السادس من هذا الكتاب التقسيمات الجغرافية والادارية لهذه البلاد ، وهو يســتخدم التسميات القديمة التي كانت شائعة في زمانه بين المؤرخين والجغرافيين الاجانب خاصة .

(٢) وتكون بذلك رحلة اوليفييه الى العراق في السنوات ١٧٩٤ ــ ١٧٩٦ ، وليس عام ١٧٩١ كما كان شائعا ، انظر : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، تأليف لونكريك ، ترجمة جعفر الخيــاط ، ط ٤ ، بغـــداد ١٩٦٨ ، الملحق الاول ، ص ٤٠٣ . وكذلك ما نشرناه في مجلة المورد ، المجلد ١١ (١٩٨٢) ، العدد ٤ ، ص ١٧ ــ ٢٦ .

تعليمات شفهية وخطية لاوليفييه ومرافقه ، وطلب اليهما ان يعجلا سفرهما ، وان يستفيدا من رحلة البارجة باليت التي كانت موشكة على الاقلاع .

اشترى اوليفييه ومرافقه بروكيير بعض الالات الضرورية للفيزياء والتاريخ الطبيعي ، وغادرا باريس في ٧ تشرين الثاني . لكنه كان عليهما ان ينتظرا في مرسيليا بسبب الحرب الناشبة بين فرنسا واسبانيا وانكلترا ، ثم تقرّر سفرهما على متن باخرة محايدة الى القسطنطينية مع سمونفيل سفير الجمهورية الفرنسية لدى الباب العالي . غير ان السفير استدعي الى باريس ، فسافر الرحالتان وحدهما في ٢٢ نيسان ١٧٩٣ على متن الباخرة لا سبيل .

رصد اوليفييه ، كما ذكرنا ، الوضع السياسي ، والمواقع الطبيعية ، وطرق المواصلات ، والزراعة ، والتجارة ، والخطط والمعدات العسكرية ، ونشر حصيلة رحلته في اربعة مجلـــدات ، تتناول ثلاثة منها تفاصيل الرحلة في بلاد مصر وتركيا وسوريا والعراق وإيران ، والرابع اطلس مصورات اشخاص وازياء واشجار ونباتات وحيوانات وخرائط .

تحمل الرحلة في الاصل الفرنسي العنوان التالي :

Voyage dans l' Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse. Fait par ordre du Gouvernement, pendant les six premières années de la République; par G. A. OLIVIER.

وترجمة ذلك حرفياً : « رحلة الى الامبراطورية العثمانية ، مصر ، وفارس ، تمت بامر الحكومة خلال السنوات الست الاولى من الجمهورية ، من قبل ج. أ . أوليفييه » .

كانت رحلة اوليفييه برا ، اذ سلك طريق الجزيرة ، فمر بالموصل واربيل وكركوك ، وبغداد ، والحلة ، فالبصرة ، كما مرّ ببعقوبة والمقدادية (شهربان) . في طريق سفره الى فارس ، ومر لدى عودته الى بلاده بهيت وعانه وعدد مـــن المواقع العراقية . وقد وصف الطريق النهري ايضاً والوسائل المستخدمة للسلوك فيه .

وقد صدر المجلد الاول من الرحلة في السنة التاسعة من الجمهورية ، اي

عام ١٨٠١ في باريس ، وقام بنشره الناشر آكاس ، ونشر المجلد الثاني سنة ١٨٠٤ ، اما المجلد الثالث فصدر سنة ١٨٠٧ . . اما المجلد الرابع ، وهــو الاطلس ، فكان يصدر مع المجلدات الثلاثة ، أي في ثلاثة اقسام .

يقع المجلد الاول في ٤٣٣ ص ، والثاني في ٤٦٧ ص ، والثالث في ٥٦٧ ص ، وقد كتب اوليفييه مقدمة المجلد الاول ، اما المجلدان الثاني والثالث فقد كتب مقدمتها الناشر ، ولا تدخل صفحات المقدمة والتنبيهين والتعقيب ضمن الصفحات المذكورة ، ويضم الاطلس خمسين شكلا وخارطة ، وقياسه ٣٢×٢٤٫٥ سم .

وصــدرت الرحلة بطبعــة شعبية ، وبحجم صغير في ستة مجلدات في السنوات نفسها ، منــذ السنة التاســعة من تقويــم الجمهورية الفرنسية (سنة ١٨٠١) وحتى سنة ١٨٠٧ .

الرحالة :

يتجلى من خلال الرحلة ان اوليفييه كان نموذجاً للفرنسي المثقف الذي يدعي حب الحرية والعدالة ، والانسان والبشرية اكثر من كل شيء كما انه يتسم بالتعالي وتحاشي التدخل فيما لا يعنيه ، سريع البديهة ، شجاع ، دقيق الملاحظة ، بطيء الانفعال ، انساني الروحية .

لا نعرف عن تفاصيل حياته الا ما استقيناه من رحلته ، اذ لم تسعفنا الموسوعات ، ولا الباحثون المحدثون بمعلومات عنه ماخلا اللاروس الجديد في المجلد ٤ ، اذ نعرف بان اسمه غليوم وانطوان ــ ولد في Arcs قرب طولون سنة ١٧٥٦ وتوفي في ليون سنة ١٨١٤ ، وهو أحد محرري موسوعة الرياضيات ، أرسله الوزير رولان الى الشاه وعاد الى فرنسا بعــد أن درس أوضــاع الشرق . له موسوعة في الحشرات ودراسة عنها ويظهر من رحلته انه كان طبيباً وعالماً ، علاوة على كونه رحالة وكاتب رحلة ضخمة كهذه . وكانت اسرته على قيد الحياة حين باشر برحلته ، كما انه متزوج ، واهل زوجه من مدينة سان تروبيز Saint - Tropez جنوب فرنســا .

وقد ورد في عناوين رحلته المطبوعة ما يدل على مكانته العلمية فقد جاء في ذيل عنوان المجلد الاول ان اوليفييه : « عضو المعهد الوطني ، والجمعية الزراعية لمنطقة السين والخ الخ » . وجاء في المجلد الثاني ، بالاضافة الى ما ورد أعلاه ، انه : « دكتور في الطب ، وعضو الجمعيات العلمية (الحكمية) والتاريخ الطبيعي في باريس ، وعضو مراسل لجمعية ألفار التنافسية ، والجمعية اللندنية اللينية » . وجاء في المجلد الثالث انه ايضاً : « مراسل الجمعية الحرة للزراعة والتجارة والفنون في الدوب ، والجمعية الحرة للعلوم والاداب والفنون في نانسي »

كان اوليفييه ملماً بالعربية دون اتقانها بشكل جيد ، كما انه كان طبيباً تمكن من شفاء سليمان باشا والي بغداد ، ويتجلّى علمه في الاهتمامات التي تظهر من سياق رحلته الشيقة . ولا بد ان هذه المكانة كانت من الاسباب التي دفعت حكومة الثورة الى اختياره للقيام بهذه الرحلة .

خطة الرحلة وانجازها :

كان هدف هذه الرحلة سياسياً بالمعنى الواسع ، وقد جاءت في ظرف حاسم من تاريخ العلاقات الفرنسية بالشرق ، أي في السنوات الاولى من الثورة الفرنسية التي اخذت بها العلاقات الفرنسية والاوربية اتجاهات وابعاداً جديدة .

نبه الناشر في مقدمة المجلد الثالث الى انه نفذ المخطط الذي وضعه اوليفييه لنفسه وبيّنه في مذكراته في مقدمة المجلد الاول ، فوصف في المجلدين الاول والثاني الامبراطورية العثمانية وتحدث عن القسطنطينية ، وجزر الارخبيل وكريت ، كما وصف بلاد مصر وسوريا والعراق ، وجميعها تتوجه نحوها الانظار منذ أمد بعيد ، ثم زاد الاهتمام بها في مطلع القرن التاسع عشر .ويتناول في المجلد الثالث بلاد فارس وآسيا الصغرى ، فيتحدث عن تاريخ المنطقة من حكم شاه حسين الذي خلف اباه سنة ١٦٩٤ م ، الى عهد فتاح علي شاه سنة ١٧٩٨ ، ويعقب الناشر بان اوليفييه لم يتمكن من اعطاء معلومات دقيقة بشأن العاهل الاخير وابنه عباس مرزا .

ويؤكد الناشر بان اوليفييه لم يهمل شيئاً ذا أهمية إلا أورده ، سواء كان ذلك من الناحية السياسية ، أم فيما يتعلق بالعلوم والفنون ، والزراعة والتجارة ، والوضع المالي والعسكري ، علاوة على التاريخ الطبيعي وادارة الحكم .

قام اوليفييـــه برحلته يرافقه مساعـــد له اسمـــه بروكيير Bruguière وهو مختص بعلم الطبيعة والنبات ، كان يجمع ما يراه في الطريق من نباتات وأصداف وغيرها ، ويرسم بعض الاشجار ، ويصف بعض الحيوانات ، ونعرف من مقدمة الرحلة ومسيرتها بان هذا الصديق والمساعد توفي في انكونا بايطاليا قبل الوصول الى فرنسا بقليل ، وذلك بسبب متاعب السفر وبذلك فقد رحالتنا ، على حد تعبيره : « صديقاً ، عالماً ، نحتاجه لنشر ما جمعنا من مواد طبيعية » .

وكان لاوليفييه خادم يساعده في رحلته ، اشار اليه مراراً ، ولكن لم يذكر اسمه .

حدد اوليفييه عمله بوضوح فقال : كان عليّ انا وحدي ان أعنى بالسفر ، وأسجل العادات والتقاليد ، دون ان اهمل علاقاتنا السياسية والتجارية ، اي التي لفرنسا بالشرق ، كما عنيت بالجغرافيا والطبيعة العامة (الفيزيائية) .

افاد اوليفييه في رحلته من اشخاص آخرين ، خص بالذكر منهم الفرنسيين رفان ودانتن وفرانكيني الذين كانوا له كمستشارين في القسطنطينية ، واجابوه على اسئلة عديدة عن عادات شعوب تلك المناطق وتقاليدها ، كما سهل له الاخيران الاتصال بالاتراك ، وقد شكرهم في مقدمة المجلد الاول ، كما شكر التجار الذين أغنوه بمعلومات وتقارير نفيسة ، والطبيب الكاهن الارمني جان هيراتيوس المولود في اصفهان والذي أفاده بمعلومات عن الحروب التي دارت رحاها في ايـــران .

ويجدر ان نضيف الى هذه القائمة ، ولو لم يذكرهم اوليفييه في مقدمته ، رئيس الكرمليين في بغداد الذي رافقه في رحلته الى العراق ، الاب فولجنس للقديسة مريم وهو الماني الاصل ، قدم البصرة عام ١٧٧٥ ، واصبح نائباًرسولياً في

بغداد من سنة ١٧٩٤ الى ١٨٠١ ، ثم توفي في البصرة عام ١٨٠٣ ، وكذلك الدبلوماسي الفرنسي في بغداد روسو وهو من اسرة الاديب جان جاك روسو ، وكان يتولى منصب القائم بالاعمال الفرنسية في بغداد في الفترة ١٧٧٦—١٨٠١. اسمه الكامل جان فرنسوا روسّو وله ابن وهو جان باتيست لويس روسّو، وقد توفى عام ١٨٠٨ فتولّى ابنـه مهمته كقنصل عـام لفرنسا في حلب. وساعده في بغداد ايضاً التاجر الفرنسي اوتري . يضاف الى هؤلاء اشخاص آخرون استطاع اوليفييه بفضل مساعداتهم من تدبيج سجل حافل بالذكريات والمعلومات .

وينبغي ان نشير الى استشهاد المؤلف بمن سبقوه ، فهو يرجع الى قدامى اليونان والرومان والعرب ، بالنسبة للتاريخ القديم والمواقع الجغرافية والبلدانيات ، كما يذكر أقوال رحّالة سبقوه امثال تافرنييه ونيبور وبوشامب وديلافالي .

استخدم اوليفييه التقويم الجمهوري الفرنسي الجديد ، واسماء شهوره المستمدة من الفصول الطبيعية والمحاصيل الزراعية . لغته سلسة غير ان فيها التعقيد احياناً ، ويقع في أخطاء املائية كانت شائعة عهد ذاك ، وهو يتحدث بصيغة الجمع . وتكثر في رحلته أسماء نباتات وحشرات وحيوانات يوردها باللاتينية ايضاً مع ذكر المراجع الاصلية . وقد استخدم العديد من الالفاظ التركية والعربية والفارسية ، لا سيما في القاب القادة والحاكمين ومنتسبي الجيش ، وفي الازياء والعملة وغيرها .

ونذكر اخيراً بان اوليفييه يفتتح رحلته بقوله ان « رحلاته هي من صنف التاريخ وليست من صنف الروايات » ، لذا يتجنب — على حد تعبيره الحوادث الشخصية والفكاهية لكي يجعل تقريره علمياً ، به يعلّم ويثقّف . كما انه لا يسهب في وصف حقل ازهار او غابة حور وسنديان ، ليس لعدم احساسه بسحر الطبيعة او جمالية مواقع كاثينا والاسكندرية وبابل والهسفور ، انما — كما يفيدنا هو نفسه — لتوخّيه العلمية فوق كل شيء . فهل تراه افلح ؟ .

أجاد اوليفييه في تشخيص المواقع وتدقيق المسافات ، ووصف الموارد الطبيعية والمنتوجات الزراعية والمصنوعات اليدوية والحرف وطرق المواصلات ، والحالة الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، لكنه لم يتحدث الا نادراً عن أوضاع السكان وعاداتهم ، وتعرّض لماماً لبعض الملامح والازياء والتقاليد . فهو طبيعي تاريخي ، وتجاري سياسي ، أكثر منه اجتماعياً ادبياً ، او فنياً آثارياً . ورغم ذلك ففي الرحلة صفحات أدبية رائعة ، وهي رحلة ممتعة ، فيها فوائد جمة ، علاوة على الغرض السياسي الواضح .

عملنا :

لقد كنت عازماً على ترجمة فصول رحلة اوليفييه الخاصة بالعراق ، وقد بدأت بالفصل التاسع من المجلد الثاني ، اي منذ مغادرة رحالتنا مدينة اورفه ، وحتى آخر فصل من المجلد عينه . لكنني رأيت من المفيد والضروري ترجمة محتوى فصول المجلدات الاخرى لتتكون للقارىء فكرة واضحة عن الرحلة بتمامها . وكان المرحوم الدكتور داود الجلبي قد سبق وترجم دون تعليقات تذكر ، الفصل العاشر ومقطعاً من الحادي عشر ، وفضلت اعادة ترجمة هذه الصفحات ايضاً مجدداً للحفاظ على وحدة الاسلوب . ثم تبين لي انه لا بد من مراجعة المجلدات الاخرى ، وادراج شيء من مقدمة المجلد الاول ، فكان الملحق الاول . كما رأيت من المفيد ترجمة جزء من الفصل الاول من المجلد الثالث ، والفصلين الحادي والعشرين والثاني والعشرين وشيء من الثالث والعشرين من المجلد المذكور ، فهي تتناول العراق ايضاً . ولم أهمل الرسوم والمكاييل وغيرها لكي يكون العمل متكاملا من جميع الوجوه .

تطلب اتقان العمل الحصول على نسخة كاملة من الرحلة ، وتم ذلك بعد وقت وجهد . وقد قمت بوضع هوامش شرحت فيها بعض ما غمض من اشارات ونصوص ، واعتمدت فيما اعددته فيها على عدد من المراجع ، وعلى المعلومات

التي امدني بها عدد من الزملاء المطلعين . وأخص بالذكر الدكتور محمود الجليلي الذي تفضل مشكوراً فابدى ملاحظات قيّمة وأفادني بتراجم حياة بعض الحاكمين في الموصل وبغداد . وللزيادة في الدقة أدرجت الكلمة الفرنسية كلما اقتضى الامر لبعض اسماء المواقع والاشجار والنباتات والحيوانات الغريبة . . وقد حافظت على عناوين فقرات الفصول التي وضعها اوليفييه في بداية كل فقرة ، ثم وضعت عناوين صغيرة لكل فقرة على حدة تسهيلا للقراءة والمتابعة ،وأفردت في آخر الكتاب فهارس للاعلام والاماكن واسماء الحشائش والنباتات والحيوانات والمعادن والموازين والمكاييل وغيرها . ووضعت في الترجمة ما رأيته ضرورياً لهذا القسم المترجم من خرائط ومصوّرات جاءت في المجلد الرابع من الرحلة .

وقد حظيت رحلة اوليفييه بتقدير الباحثين في أحوال البلاد العربية وأقطار الشرق الأوسط في مطلع القرن التاسع عشر ، فاعتمدوا عليها ونقلوا منها كثيراً من المعلومات المفيدة ، وترجمت الأقسام الخاصة بالسودان ومصر .

توخّيت الأمانة العلمية في الترجمة ، وأرجعت التسميات والألفاظ العربية الى أصولها ، ووضعت تعليقات عديدة للايضاح والتصويب ، وفضلت استخدام ماهو شائع من الالفاظ على مااستعمله الرحّالة في بعض الأحوال لاستناده الى أقاويل واشاعات غير دقيقة وصحيحة أحياناً .

ارجو ان يساعد هذا العمل الباحثين والمثقفين على الاطلاع على ما فيه من معلومات وملاحظات عن بلادنا وامتنا ، قدمها رحالة مدقق ، وضمها كتاب يصعب الحصول على اصله .

والله وليّ التوفيق .

الدكتور يوسف حبّي



محتـــويات رحـــلة اولـيفـيـيه

اولا ــ المجلـد الأول :

مقدمة الرحالة :

فهرس مواد فصول المجلد الاول :

الفصل العشرون : المترجمون والسماسرة — عقود الباعة — العمال الفرنسيون المقيمون في الشرق — القوافل (الكروان) .

الفصل الحادي والعشرون : السفر من القسطنطينية الى خليج موندانيا — الاقامة في جمليك — ورشة تركية — خشب بناء — فلاحة — تاريخ طبيعي — جزر بروبونتيد (بحر مرمرة) — غاليبولي — لا مبساك — الوصول الى الدردنيل .

الفصل الثاني والعشرون : اقامة في الدردنيل — وصف الهيلسبون (الدردنيل) والمدن الواقعة على ضفافه — المنتوجات والتجارة في هذه الارجاء .

الفصل الثالث والعشرون : تجوال في طروادة — وصف هذه المنطقة — نبذة عن سكانها ومنتوجاتها — سنديان ينتج عفصاً تجارياً وللصباغة .

الفصل الرابع والعشرون : خبر عن الاسكندرية — طروادة وضواحيها — الوصول الى تينيدوس ، وصف هذه الجزيرة ، منتوجاتها — اخلاق السكان .

الفصل الخامس والعشرون : الوصول الى ليسبوس — وصف هذه الجزيرة — منتوجاتها وتجارتها .

الفصل السادس والعشرون : الوصول الى سيو — وصف الجزيرة — عادات السكان وصناعتهم — امتيازات — عاديات — تاريخ طبيعي — منتوجات وتجارة .

الفصل السابع والعشرون : السفر من سيو — الاقامة في جيسمي ، وتينا ، واندروس ، وميكوني ، وديلوس ، وناكسي ، وباروس ، وانتيباروس .

الفصل الثامن والعشرون : السفر من ناكسوس — استراحة في نيو — منتوجات وصناعة السكان — السفر من هذه الجزيرة — منظر سيكينوس وفوليكاندروس — الوصول الى سيموليس — خوف السكان — وصف هذه الجزيرة البركانية — اصل ارض سيموليس — التنقيب في مقابر قديمة — صيد في بولينو — حيات وماعز وحشي في هذه الجزيرة .

الفصل التاسع والعشرون : الوصول الى ميلو — وصف هذه الجزيرة — بركانها ،

فهرس مواد المجلد الثاني (القسم الاول)

الفصل الثالث : عمود بومباي ـ الدياميس الموجودة في الضواحي ، وتلك الممتدة الى الشرق ـ حمامات كليوباطرة ـ حرس غفير من أتراك وعرب ـ وليمـة كبرى في أطراف بحيرة مريوط (قرب الاسكندرية) ـ جـولة في رأس ما رابو .

الفصل الرابع : الاطلال الموجودة على ضفة الميناء الجديد ـ براهين على ان مستوى البحر لم ينخفض في الساحل المصري منذ ألفي سنة ـ مساحة المدينة القديمة ـ القناة ـ بحيرة مريوط ـ تاريخ طبيعي .

الفصل الخامس : جولة في ابي الخير ـ خوره ـ اطلال كانوب ـ السفر الى القاهرة ـ خطر البوغز ـ الوصول الى رشيد (روزيت) ـ وصف هذه المدينة ـ فلاحة الارض ـ صناعة أهاليها وتجارتهم ـ تاريخ طبيعي .

الفصل السادس : الانطلاق من رشيد ـ رحلة في النيل ـ هلع الحرس (الانكشارية) ـ الفيوم ـ قناة المينا (منوف) ـ تيرانيه ـ رأس الدلتا ـ منظر الاهرام ـ بولاق ـ الوصول الى القاهرة .

الفصل السابع : جولة في الاهرام ـ الجيزة ـ فلاحة سهلها ـ الدباميس ـ وصف شيوبس (خوفـو) او الهـرم الكبير ـ ملاحظـات بشأن الهرم الثاني ، الثالث (شيبريوس ـ ميسيرينوس) ـ مسكن ما رابو ـ ابو الهول (سفينكس) .

الفصل الثامن : المبيت في الاقصر ـ الاقامة في هذه القرية ـ موقع ممفيس ـ الدخول الى آبار العصافير المقدسة ـ وصف مومياء الحارس (ابو منجل) ومومياء الزبابة ـ ملاحظات حول الصحارى ـ ملاحظات بشأن الجمال .

الفصل التاسع : حالة مصر الادبية والسياسية .

الفصل العاشر : جور مراد وابراهيم ، واهانتهما التجار والعمال والوكلاء الفرنسيين ـ الاسباب والاعتبارات الداعية الى قيام حملة فرنسية على مصر .

الفصل الحادي عشر : الرياح الشمـالية (في البحـر المتوسط) ـ (الخمـاسين

والسموم) والفرق بين هاتين الريحين — مناخ مصر ، وأمراضها — مناقشة الرأي القائل لم لا يستطيع الاجانب التطبع على ذلك .

الفصل الثاني عشر : النيل — سبب الفيضان الموسمي لهذا النهر — نتائج خزنه — — توسع مصر — بحـر بلامي او النهر بدون ماء — بحيرة ميريس .

الفصل الثالث عشر : الزراعة — المنتوجات — الصناعة (الحرف) — التجارة .

الفصل الرابع عشر : موقع مصر المتميز كمحطة تجارة للبلاد كلها — قائمة السلع التي تمر في مصر لكي تصدر الى اوربا .

الفصل الخامس عشر : السفر من مصر — الاقامة في رشيد والاسكندرية — استراحة في رودس ، وليرو ، وناكارا — الوصول الى القسطنطينية

القسم الثاني من فهرس مواد المجلـد الثـاني (رحلة الى سوريا)

الفصل الاول : السفر من القسطنطينية — العودة الى جزر الارخبيل للبحث عن حجر بركاني احمر (بوتزولان) — حديث في ميلتين مع قائد الاسطول — تصرف مدخّني الغليون — مقترحات رؤساء سانتوران — ايفاد اثنين منهم الى الباب (العالي) — اقامة في رودس — الوصول الى بيروت .

الفصل الثاني : وصف بيروت : محاصيلها وتجارتها — السفر الى صيدا — غفار — اضرحة — وصف المدينة والميناء القـديم — ملاحظات على مساحتها الصغيرة — التجارة والسكان .

الفصل الثالث : السفر الى صور — وصف المدينة وضواحيها — مساحة مينائها — ملاحظات حول ذلك — آبار سليمان — قنوات الميـاه — البحث عن موقع باليتير وزمن تأسيس صور الجزرية — البرفير الصوري — خور صور .

الفصل الرابع : نبذة تاريخية عن حياة احمد الجزار باشا (والي) عكا — تصرفاته مع التجار الفرنسيين — مظاهر قسوته وملامحه .

الفصل الخامس : العودة الى بيروت — تأملات حول ارض سوريا ومناخها —

بعلبك — طرابلس — ارادس — الوصول الى اللاذقية — وصف الميناء والمدينة — الدخول الى الدياميس — رؤية امرأة مقتولة حديثاً — تاريخ طبيعي — الادارة ، الزراعة ، التجارة .

الفصل السادس : السفر من اللاذقية — المبيت في بالوليه وادنه ، وجسر شورل ، وسرمين — ملاحظات شتى — الوصول الى حلب .

الفصل السابع : ضواحي حلب مكتظة بالاعراب والتركمان والاكراد — وصف المدينة : مناخها ، سكانها ، تجارتها — المختارية — حدوث اضطرابات ونتائج ذلك — استبدالهم بحامية (من الانكشارية) — عادات الاهالي — قفطين — مارتفان — جينكانيس — محاصيل الارض — تاريخ طبيعي .

الفصل الثامن : السفر من حلب — عبور الفرات الى بيرتا — الوصول الى اورفه — وصف المدينة ، وقلعتها ، ودياميسها — عادات الاهالي — السكان — التجارة المنتوجات — المناخ .

الفصول ٩ — ١٦ : هي المترجمة في هـــذا الكتاب (انظر الفصول ١ — ٨ من الكتاب) .

فهرس مواد المجلــد الثالث

يبحث عن رحلته شرقي العراق والعودة الى بلاده . وقد ترجمنا الفصلين ٢١ و ٢٢ وقسماً من الفصل ٢٣ .

★ ★ ★

الفصل الاول (*)

مغادرة اورفه . دياميس الكاوى . كاور ـ كيوري . بقايا مدينة قديمة تحت الارض . اقامة في كيروسمانا . الوصول الى ماردين : وصف هذه المدينة . السفر . نصيبين : آثارها . خطر نهب تتعرض له القافلة . الوصول الى الموصل .

مغادرة اورفه :

غادرنا اورفه (١) في ٢٦ فنتوز (١٦ آذار ١٧٩٤ م) (٢) بمعية رئيس الكرمليين في بغداد الذي كان قادماً من حلب ومسافراً الى ديره (٣) . وستكون رفقة هذا الراهب لطيفة ومفيدة جدا بالنسبة الينا ، لان اقامته مدة ثلاثين سنة في تلك الربوع وفّرت امكانية التعرف على عادات السكان ، كما انه يتقن اللغات الشرقية بشكل جيد ، وقد قطع اكثر من مرة ، بامر من رؤسائه ، بلاد فلسطين

(*) انه الفصل التاسع من المجلد الثاني من رحلة اوليفييه ، في الاصل ، وقد جعلناه الفصل الاول في ترجمتنا لاقتصارنا على رحلة اوليفييه الى العراق . ومن عادة اوليفييه وضع رؤوس نقاط تحت عنوان الفصل مباشرة ، فأبقينا على ذلك ، لكننا اضفنا تقسيمات صغيرة امام كل موضوع ، مستمدة عادة من تقسيماته عينها .

(١) اورفه (اديسا) أو اورهاى) القديمة ، ويكتبها اوليفييه : Orfa واسمها القديم Edessa وهي الآن مدينة في تركيا ، واشتهرت بمدرستها في الماضي .

(٢) Ventôse هو الشهر السادس من السنة حسب التقديم الجمهوري الفرنسي ، يبدأ بالتاسع عشر من شباط وينتهي في العشرين من آذار . والسنة هي ١٧٩٤ م .

(٣) انه الأب فولجنس للقديسة مريم P. Fulgenzio di S. Maria الماني من اقليم كولونيا . ولد سنة ١٧٤٤ ، واصبح راهبا كرمليا وابرز نذوره سنة ١٧٦٦ ، وقدم البصرة عام ١٧٧٥ ، ثم اصبح رئيس رسالة الآباء الكرمليين من سنة ١٧٨٠ الى ١٧٩١ ، ثم نائبا رسوليا في بغداد من ١٧٩٤ الى ١٨٠١ ، وتوفى في البصرة سنة ١٨٠٣ .

وسوريا وما بين النهرين (٤) وكردستان ، كمـا انه اوغل ايضـاً في جبال سنجار التي لم يكن الامر مستتباً فيها (٥) .

كانت قافلتنا (٦) كبيرة العدد ، اذ كانت مؤلفة من خمسين الى ستين أرمنياً يقودون حوالي خمسين حصاناً ، ونحو ثمانين حماراً ، محملة معظمها بنحاسيات قديمة ، كمـا كان ثمـة بضـائع اوربيّة قليلـة ، بعض الاقمشة الحلبيّة ، وقليل من السكر والقهوة ؛ وكمية كبيرة من الرز .

ركبنا الخيل قبل طاوع النهار ، وسرنا مدة سبع ساعات في سهل خصيب مروي في قسمه الاكبر ، وتنتشر في عدة اماكن شظايا صخور بركانية . كما شاهدنا بعض المحاصيل ، وبعض القطعان الجبلية ، وفي البعيد بعض القرى البسيطة المظهر . ينتهي هذا السهل بتل كِلْسيّ يمتـد من الشمال الى الجنوب يبدأ بالجبل القليل العلو الذي قلنا انه قائم على بعد فرسخين (٧) شمالي اورفه .

---

(٤) سيتبع اوليفييه هذا التقسيم في رحلته كلها ، فيقول : سوريا ، ويقصد بها لبنان وسوريا ، وبلاد ما بين النهرين ويقصد الجزء الاكبر من العراق، ويذكر كردستان قاصدا بذلك كل المنطقة الجبلية ، كما سنرى في الفصل السادس . وقد رأينا الابقاء على تسمياته ، فترجمنا Mésopotamie ببلاد ما بين النهرين .

(٥) سنجار من مدن العراق القديمة ، يرجع بناؤها الى العهد الاشـوري ، يسكنها اليزيديون بكثرة ، وتشتهر بوعورة جبلها المنتصب وسط سهل مترامي الاطراف ـ يكتبها رحالتنا هكذا : Senjaar وحالياً من اقضية محافظة نينوى .

(٦) يستعمل اوليفييه لفظة Caravane (الكروان) للدلالة على القافلة ، ويبدو من كلامه ان قوافل تلك الأيام كانت تستخدم الخيل والحمير في هذا الخط من الطرق البرية : اورفه ـ الموصل ـ كركوك ـ بغـداد ، علاوة على قوافل الابل الكبيرة .

(٧) وبالفرنسية lieue وهي مسافة مسيرة ساعة ، او نحو ثلاثة اميال اي حوالي خمسة كيلومترات .

دياميس الكاوى :

توقفنا في مكان يسمى الكاوى (٨) حيث توجد بعض دياميس شبيهة بالتي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، فاستقررنا في احدها ، ووضعنا أسرّتنا فوق مصطبات كان قد استراح عليها قبلنا بزمن طويل جسدان محنطان .

كان الطقس بارداً ، والسماء ملبدة بالغيوم ، حتى ان الدنيا جمدت ليلا ، وتغيرت الريح من شمالية الى شمالية شرقية .

كاور ـــ كيورى :

مكثنا هنالك اليوم السابع والعشرين (١٧ آذار) ، لان اشخاصاً كانوا قد أخذوا في العشية حماراً محملاً بنحاسيات قديمة لشخص تخلّف عن الركب ، فلجأ القوم الى متسلّم (٩) اورفه لكي يبعث من يتعقب اللصوص . ورغم ذلك فان قسماً من القافلة غادرنا مساء لمواصلة الطريق ، بينما فضّل البقية انتظار اولئك الذين مضوا الى اورفه لرفع شكواهم ، ولم نسافر نحن الا مع هذا القسم المتخلف من القافلة ، وذلك في ساعة مبكرة من صباح ٢٨ منه .

لقد كانت السماء صافية ، والبرد شديداً جداً ، وقد أزعجتنا ريح شمالية شرقية كانت تلفح وجهنا . كما ان الطريق اصبحت رديئة بعد ذلك ، فهي صخرية ، وذلك مدة ساعتين او ثلاث من سيرنا في تضاعيف التلول . وبعد ان تركناها لقينا انفسنا في سهل جميل فسيح . وقد لاحظنا بعض آثار بركانية ، حتى بلغنا ، بعد احدى عشرة ساعة ، قرية ارمنية متروكة منذ عهد سحيق ، يسميها الاتراك كاوور ــ كيورى (١٠) ، اي قرية الكفّار ، حيث لقينا رفاق السفر .

---

(٨) يكتبها الرحالة هكذا : Alkaoüi

(٩) يستعمل اوليفييه لفظة (متسلّم) ، ويكتبها بالفرنسية Mutselim للدلالة على من يعنيه الوالي لادارة مدينة بصفة مؤقتة ، أما الوالي فيعبر عنه بلفظة Gouverneur كما سنرى .

(١٠) وردت لدى اوليفييه على النحو التالي : Djaoür - Kiouri وهي كاوور ــ كيوري . ومن المفيد للتعرف على هذه المنطقة مراجعة كتاب محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل ، بغداد ١٩٧٧ .

وكان الماء يعوز (اهالي) هذه القرية ، فعوضوا عنه بصهريج كبير ، مربع ، تعلوه قبة (عقدة) جميلة . كما شاهدنا بعض الحفر القليلة العمق ، والمتسعة في الاسفل ، كانت تخزن فيها البقول لحفظها .

رقدت القافلة تحت سماء متلالئة بالنجوم ، كما فعلت في دياميس الكاوى . اما نحن فقد نمنا في مبنى متهدم ، حيطانه من صخور سميكة مقطعة ومرصوفة الواحدة فوق الاخرى بدون ملاط ، وثمه اعمدة ضخمة موضوعة على مقربة غير متباعدة عن بعضها كانت تسند قبة أو سقفا من حجارة مسطحة ، كان هذا السقف منخفضاً جداً بحيث انه في الامكان لمســه باليد ، لكن يبـــدو ان الارضية هي التي ارتفعت بسبب الانقاض .

وفي التاسع والعشرين منه (١٩ آذار) ، وبعد مسيرة ساعة ، عبرنا نهراً صغيراً ينساب من الشمال الى الجنوب . وسرنا خلال ثلاث ساعات اخرى في سهل كان يكشف لنا عن آثار بركانية ، حتى انتهينا الى نهر صغير شبيه جــداً بالاول ، ضفافه جرداء ووعرة ، ومع ان ماءه قليل ، فقد حفر قاعا بعمق اكثر من ستين قدماً . وقد لاحظنا على ضفاف المياه نباتاتْ فلفل الصقالبة وضرباً من الشوكيّات (١١) . تتغذى هذه الشجيرات بشكل رديء ، ربما بسبب البـــرد الذي يكون أحياناً شديداً جدا في الشتاء في هذه الربوع من بلاد ما بين النهرين .

استقرت القافلة في مغائر واسعة لقيناها على الساحل الايسر (من النهر) .

وحوالي منتصف النهار قلنا للخادم (١٢) ان يتناول بندقية ويتبعنا ، وكانت نيتنا ان نصطاد حجلا (١٣) كنا نعلم بوجوده بكثرة في هذه الربوع ، وان نجمع شيئاً من الزعفران والسورنجان والرسيات (١٤) ، وهي نباتات شاهدنا أزهارها

(١١) أسماء هذه النباتات بالفرنسية Agnus castus, Paliure

(١٢) انه خادم اوليفييه ، يأتي ذكره في الرحلة غفلا من اسمه . واوليفييه يتكلم في الرحلة كلها بصيغة الجمع .

(١٣) وبالاصل الفرنسي : Peredrix

(١٤) أسماء هذه الحشائش بالاصل الفرنسي : Safrans, Colchiques, Arums

صباحاً . لكن الخادم الذي كان مكارو (١٥) القافلة قد أخافوه اكثر من مرة ، وكان هو ايضاً بطيء الحركة ، استخدم فصاحته كلها لارغامنا على المكوث في المغائر حيث كنا قد نزلنا . ولم يهمل شيئاً الا وذكره لحملنا بان ثمه خطراً فادحاً في تركنا الكهوف ، مؤكداً ان هذه المناطق مليئة بأشخاص هم على أهبة الاستعداد دائماً لنهب المسافرين . وانضم اليه جميع المكارين فراحوا يكررون انه ليس من الفطنة ان نبتعد عنهم ، كما كنا نفعل كل يوم . وكانوا ينبهوننا بان هذا المكان اخطر من اي مكان آخر في طريقنا بسبب الكهوف الموجودة على طول النهر .

لقد جعلتنا هذه الاقوال الأخيرة نمني النفس اكثر بالقيام بجولة حول مأوانا ، وكنا نحاول تهدئة المكارين بالنسبة لشخصنا ، وطلبنا من الخادم ان يبقى وسط القافلة إن كان يخشى الابتعاد عنها ، وتناولنا سيفاً وبندقية ذات طلقتين وبعض الاطلاقات ، وانطلقنا وحدنا . ولم يتمكّن بركيير (١٦) الذي كان متوعك المزاج منذ ايام من مرافقتنا ، كما كان عليه ان يكبس بعض النباتات ، من بينها سوسن ، وقضاب ، وزراوند (١٧) ، كنا قد لقيناها في طريقنا صباحا .

كنا واثقين كل الوثوق باننا اذا اتخذنا الاحتياطات اللازمة للجولة دون ان ندع مجالا لكي نؤخذ على حين غرة ، فلا خوف علينا من المهاجمين لانهم قلائل في هذه الطرق ، وليس لهم اسلحة نارية ، بل هراوة لا غير باليد اليمنى ، وترس صغير في الساعد الايسر ، وخنجر او سيف قصير في

---

(١٥) يستخدم الرحالة لفظة (Moucres) للدلالة على مكاري الدواب أو أدلاء القافلة .

(١٦) انه Bruguière مرافق اوليفيه في رحلته . انظر ما ذكرناه في المقدمة بشأنه .

(١٧) أسماء هذه النباتات بالفرنسية : Iris, Pervenche, Aristoloche

الحزام (١٨) .

بقايا مدينة قديمة تحت الارض :

ابتعدنا نحو نصف فرسخ عن القافلة ، وصعدنا الضفة اليسرى من النهر ، فأعجبنا بانحدار الضفة المقابلة ، حيث مغـائر ودياميس متتالية لا انقطاع لها ، تدل على انه كان في الموضع مدينة مطمورة ، ونقول مدينة ، لاننا رأينا بوضوح ما يشير الى سكنى الانسان ، من أبواب وشبابيك ، ومقاعد خارجية ، ونوع من البوابات ، واروقة ، وكل ما يشكل القسم الخارجي لبيوت المدينة . اما اليوم فلا يسكن المكان سوى البوم وأبناء آوى والحمام .

في الثلاثين منه (٢٠ آذار) ، سرنا ست ساعات ونصف عبر سهول بركانية غيرمزروعة . وبعد ساعة ونصف حاذينا جبلا صغيرا اصطناعياً ، وشاهدنا في الاطراف كلها بقايا سور حجارة ضخمة مرصوفة بدون ملاط . اطراف هذا الجبل مكسوة بحجارة كبيرة بركانية . وقد كانت الريح في ذلك اليوم شديدة البرودة ، بل لقد سقط شيء من الثلج والمطر . عبرنا نهراً صغيراً مجراه كالانهر السابقة ، اي من الشمال الى الجنوب ، وضفافه مغطاة بشوكيات .

حطينا الرحال على الضفة الشمالية ، في مغائر واسعة جدا . وقد رأينا للمرة الثانية منذ مغادرتنا اورفه بعض الخنازير البرية الضخمة (١٩) ، ولم نعد الا على بعد ثلاثة او اربعة فراسخ من سلسلة جبـال مغطاة بالثلوج ، تتدرج من الغرب الى الشرق في القسم الاعلى من بلاد ما بين النهرين ، وتلي جبال

---

(١٨) لقد ترجمنا Massue بالهراوة ، و Bouclier بترس ، و Yatagan بالخنجر ، و Sabre بالسيف . ويقول الرحالة في هامش انه رأى بعضهم مسلحين بالرماح بدلا من الهراوة ، أما غالبيتهم فيستخدمون الهراوة ، ويصفها هكذا : انها عبارة عن عصا ضخمة ذات رجلين طويلتين ، وتنتهي في الاعلى براس مدور او بيضوي .

(١٩) sanglier fort gros .

طوروس (٢٠) . لقد كنا بالامس على بعد سبعة او ثمانية فراسخ منها . يسقط الثلج ليلا ، والدنيا شديدة البرد نهاراً .

شاهدنا سراطين كثيرة جدا في جميع الانهر والجداول التي في بلاد ما بين النهرين ، كما في سوريا وفارس ، وقد تحدثنا في مقالتنا عن نكسوس (٢١) ، وصورناه ص ٣٠ ، الشكل ٢ (٢٢) ونلقاه مصورا بشكل غير دقيق في كتـــاب (تاريخ الاسماك) لروندليه (٢٣) ، وقـــد شاهده بلون (٢٤) في كريت ومقدونية ، كما انه موجود في اطراف روما وصقلية ويؤكد ايليون (٢٥) بأنه موجود في النيل ايضاً ، كما يذكر هذا السمك كل من ديسقو ريدس ، وجالينوس ، وبليناس ،وابن سينا ، ونيقاندروس، بينما لم يتحدث عنه ليني ، وفابر يسيوس ، وهربست (٢٦) .

اقامة في كيروســمانا :

انطلقنا في الاول من جرمنال (٢٧) (٢١ آذار) ، الساعة الثانية ليلا ،

---

(٢٠) طوروس سلسلة جبـــال في آســيا الصغرى ، واقعـــة بين قيلقيقية وقبادوقيه .

(٢١) انهـــا Naxos والسراطين التي يتحدث عنها Crabes .

(٢٢) في المجلد الاول من الرحلة ، ص١٣٦ Cancer potamios, Tab. 30, f. 2 .

(٢٣) Rondelet, L,Histoire des Poissons, trad. fr. , pag. 153, ch. 31.

(٢٤) وبالفرنسية : Belon

(٢٥) انه : Elion

(٢٦) من مشاهير الاوائل من كتبوا عن الحيوان والنبـــات ، فديســـقوريدس صاحب كتاب الحشائش أو هيولى الطب ، وجالينوس كبـــير الاطبـــاء اليونانيين ومفسر ابقراط ، وبليناس أو بلينوس الاكبر من علماء الطبيعة الرومان ، وابن سينا صاحب القانون في الطب والعلامة الموسوعي العربي ، ونيقاندروس كذلك عالم طبيعي . اما الثلاثة الاخرون فمن علماء الطبيعة المتأخرين نوعا ما ، وقد وردت أسماؤهم بالفرنسية :
Linné, Fabricius, Herbst وجميعهم من القرن السادس عشر .

(٢٧) شهر germinal هو الشهر السابع من شهور الجمهورية الفرنسية ، يبدأ في ٢١ أو في ٢٢ آذار ، وينتهي في ١٩ أو في ٢٠ نيسان ومعناه الانبات .

وسرنا حتى الحادية عشرة . اجتزنا بعد ساعة ونصف نهراً صغيراً يسمى ايليلي ثم قطعنا سهلا غير مزروع ، حيث آثار بركان . ورأينا قبل وصولنا المأوى بساعة قرية كردية اسمها قره موسكوك او ديمي ، مبنية على صخور بركانية . وقد استرحنا في قرية اخرى اسمها كيروسمانا (٢٨) .

اضطررنا في اليوم الثاني ان نمكث فيها بسبب الامطار ، وتغيرت الريح الى جنوبية غربية ، وطاب المناخ جداً .

انزلوننا عند كردي يتكون بيته من فناء داخليّ مساحته عشرة أقدام مربعة ، وكانت أسرّتنا متلاصقة ، وقد وضع كل سرير في زاوية . لقد كنا على حذر ، لذا وضعنا سلاحنا تحت الوسادة باتجاه الحائط . وايقظتنا ليلاً جلبة مزعجة ومستديمة ، خلنا ان سببها شخص يهدم الحائط . ولما أيقظنا الخادم ، بطلت الضوضاء . وكنا مزودين بضوء ، فشاهدنا في الحائط الذي كان من طين شقاً كبيراً ، لابد ان بعضهم منه حاول سرقة سلاحنا . وقد نهض رب البيت الذي كان يسكن مع امرأته واولاده في ركن من البيت ، وخرج من المنزل ، ثم عاد بعد لحظة ، لانه لم يكتشف شيئاً ، لكنه شك في أمر جار له اتى في العشية ولاحظ اين وضعنا سلاحنا ساعة الرقاد . ان هذه الحادثة ستجعلنا في المستقبل اكثر يقظة .

الوصول الى ماردين :

في الثالث منه ، وبعد مسيرة ساعة ، عبرنا مجرى مياه كانت الامطار قد جعلته كبيراً بحيث انه بلغ اطراف القلعة . ثم اجتزنا بعد ثلاثة فراسخ نهراً صغيراً عبر جسر ضيق لا سياج عليه ، وفي حالة سيئة جداً . وقد اقتربنا من الجبل فشاهدنا في الاسفل بعض أشجار الزيتون الكبيرة أشد خضرةً من المعتاد .

انفصل عنا قسم من القافلة ومكثوا في قرية من قرى السهل وسيواصلون المسيرة بانطلاقهم من هناك ، اما نحن فقد صعدنا الجبل مع القسم الباقي .

(٢٨) وردت الاسماء هكذا : Elleli, Cara - Moscok, Déémi, Kerosmana

وكانت الطريق وعرة ، ونحن بحاجة الى ساعة ونصف اخرى للوصول الى ماردين ، وقد قطعنا من كيروسماناحتى الآن سبع ساعات ونصف .

وصف ماردين :

تقع ماردين ، وهي ماردي او ميريدي القديمة (٢٩) ، بمحاذاة قمة جبل عال ، بدرجة ٣٧ و ١٩ دقيقة من الطول الشمالي ، وهي في انحدار ، وامتدادها الى الجنوب . بوسع العين ان ترى من هذا الموقع المرتفع ارضاً فسيحة كبيرة : انها سهول بلاد ما بين النهرين الخصيبة ، تمتد امام النظر ، لا تقطعها سوى جبال سنجار التي نشاهدها على بعد عشرين فرسخاً الى الجنوب الشرقي ، يسكنها اليزيديون ، ويقال بان اخلاقهم وعقائدهم تختلف عن سائر سكان بلاد ما بين النهرين وهم شعب قاس وغير مضيف .

كما نرى الى الجنوب الغربي والى الشرق حران(٣٠) القديمة ، وبعض الجبال الاخرى التي يقصدها البدو ، وهؤلاء ذوو اخلاق الطف ودين متسامح .

تهيمن على المدينة قلعة واسعة قد لحق بها الدمار ، ولغرض حمايتها في الماضي كانت محاطة بسور أصلحه باشا بغداد . ويطيب لاهالي ماردين ان يحكوا بان تيمورلنك حاصر مدينتهم مدة خمس سنوات دون ان يستولي عليها لكنهم مخطئون في ذلك ، فان تيمورلنك دخل ماردين من دون مقاومة ، هذا اذا ما اخذنا باقوال المؤرخين العجم . بينما هولاكو ، وهو حفيد جنكيزخان الذي كانت بلاد ما بين النهرين وفارس من نصيبه بعد موت ذلك الغازي ، هو الذي هاجم هذا الموقع دون ان يحالفه التوفيق ، وذلك في اواسط

---

(٢٩) يأتي اسم ماردين لدى اوليفييه هكذا Merdin, Mardé, Miridé وهي مدينة شهيرة ، في تركيا حالياً .

(٣٠) Charrae

القرن الرابع عشر (٣١) .

لاريب في ان القلعة واسوارها كانت يومذاك بحال جيدة ، كما ان السكان كانوا اكثر بكثير مما هم عليه اليوم . وماردين ، رغم سعتها ، أشبه بقرية منها بمدينة . فيها حوالي ثلاثة آلاف كردي ، وخمسة آلاف او ستة الاف عربي وتركي ، والف وخمسمائة ارمني يعقوبي ، ومثلهم تقريباً من النساطرة (الكلدان) ولهؤلاء اسقف فيهــا . ومعلوم بان الاخيرين قــد اتحدوا مع الكنيسة الرومانية ، وبطريركهم في انطاكية ، بينما يسكن بطريرك اليعاقبة في ديار بكر (٣٢) . وفي ماردين ايضاً حوالي عشرين عائلة يهودية ، ودير للكرمليين الحفاة لم نلق فيه سوى راهب واحد (٣٣) .

لقد كان لهذهالمدينة سابقاً حاكم يعينه سنوياً السلطان (٣٤) لكنهــا تتبع اليوم باشا بغــداد الذي يعين لهــا متسلماً . ولقــد دهشنا لدى معرفتنا انها غير ملحقة بباشوية ديار بكر . فان بغداد هي على بعــد مائة وخمسين فرسخاً ونيّفاً من ماردين بالطريق العادي ، اما ديار بكر ، او قره آمد (امد القديمة) فهي على بعــد ثمانية عشر او عشرين فرسخــاً ، وهي احدى المدن الكبيرة في آسيا الصغرى ، وتقع على الضفة اليمنى من دجلة ، الى الشمال الغربي من ماردين .

---

(٣١) أو تيمور الاعرج (١٣٣٦ ــ ١٤٠٥م) غزا بلاد فارس والعراق وسوريا ، خرّب بغداد واشتهر بقسوته وهو مغولي . أما هولاكو (١٢١٧ــ١٢٦٥) فهو حاكم مغولي ، غزا العراق وسوريا ، وعلى يده زالت الدولة العباسية سنة ١٢٥٨ .

(٣٢) لم يكن اوليفييه خبيرا بسكان هذه البلاد ، لذا نراه هنا يخطأ ، فلا يميز بين الكلدان (النساطرة أصلا) والذين بطريركهم في بابل وآشور ، وقد كان يسكن مؤقتا في ديار بكر ، وبين السريان الارثوذكس (اليعاقبة) وبطريركهم في انطاكية .

(٣٣) الرهبنة الكرملية سميت باسم جبل الكرمل في فلسطين . غربية المنشأ . حط رهبانها في الشرق منذ القرن السابع عشر .

(٣٤) الحاكم هنا Vaïvode Le Grand - Seigneur(ويوضة)

أقمنا خمسة ايام في ماردين ، الامر الذي اتاح لنا ان نطوف في اطرافها ، ونقطف بعض النباتات المزهرة ، كما رأينا بعض الكروم ، وبعض اشجار الفستق ، والعديد من اشجار اللوز ، والكرز ، والخوخ ، والكمثرى ، والتفاح ، واشجاراً اخرى اوربية مثمرة . وعلى الرغم من شدة البرد شتاء في هذا البلد ، بسبب الارتفاع ، فان الصيف فيه حار جدا ، وبخاصة في سفح الجبل . يزرع اهاليه القطن والسمسم ، كما انهم يزرعون كميات كبيرة من الحنطة والشعير .

تجارة هذه المدينة ذات شأن ، لانها تقع خارجاً عن طرق الموصل والجزيرة وديار بكر واورفه وحلب ودمشق ، وهي بمثابة مخزن لسلع القرى الواقعة الى الشمال الشرقي ، حيث يصنعون بعض الاقمشة القطنية والمراكشية (٣٥) ، كما تصنع في ماردين كميات كبيرة منها لغرض تصديرها الى حلب .

السفر الى نصيبين :

سافرنا في اليوم الثامن من جرمنال (٣٦) حوالى الساعة التاسعة صباحاً ، وانحدرنا من الجبل قبل الفجر ، واجتزنا ارضاً سهلة خصبة ومزروعة ، لا اشجار فيها عبر طريق وعرة رديئة ، شبيهة بطريق الامس . الصخور التي نشاهدها بركانية باجمعها . وقد توقفنا بعد مسيرة ثلاث ساعات على مقربة من قرية صغيرة تقع في السهل حيث امضينا الليل . انزلونا في اصطبل ، وكانت أسرّتنا موضوعة في ركن منه ، بينما كدسوا بضائع القافلة كلها بشكل نصف دائري ، بحيث تفصلنا عن الحمير والخيول .

انطلقنا في التاسع منه قبل الفجر ، واجتزنا ارضا سهلة خصبة مزروعة خالية من أشجار أو شجيرات . تركنا على اليسار قره — ديرى التي

(٣٥) انها الاقمشة المنسوبة صناعتها الى بلاد مراكش ، ويسميها اوليفييه : Maroquins

(٣٦) انظر الهامش ٢٧ . ويقابل ٢٨ آذار .

كانت مدينة كبيرة فيما مضى ، امـــا اليوم فقد اصبحت قرية صغيرة ، فيها خربات كثيرة من بينها اطلال كنيسة ما يزال برج ناقوسها قائما . ويلاحظ ان في قره – ديرى ، كما في اطرافها ، كثرة صهاريج مياه ضخمة ومقببة ، مبنية بشكل جيد ، وكذلك عدد كبير من الكهوف المنقورة في الصخر ، يلجأ اليها شتاءً أكراد رُحّل . ويبدو بان هذه الكهوف كانت في الماضي قبورا ، لا ننا نلقى فيها حتى الان نواويس حجرية . وتقع هذه القرية على نفس البعد بين ماردين ونصيبين . ومن المحتمل انها كانت القلعة التي بناها الامبراطور اناستاسيوس في اواخر القرن الخامس (للميـــلاد) وسماها باسمه . ويسميها تافرنبيه قره سيرا (٣٧) .

بعد مسيرة سبع ساعات مررنا بقلعة مربعة محاطة باثني عشر برجاً ، يقال ان بيليزير قد بناها (٣٨) . واجتزنا بعض السواقي التي كونتها مياه الامطار او وسعتها ، ثم وصلنا نصيبين نحو منتصف النهار بعد ان قضينا احدى عشرة ساعة على ظهور الخيول .

نصيبين وآثارها :

لا تزال نصيبين تحتفظ ببعض الآثار القديمة ، اذ نلقى قوس نصر متداعيا ، وهيكلا صغيراً مربعاً ما زال قائماً بشكل جيد يبدو بان ريازته رومانية ومع ذلك فان نيبور (٣٩) ، والأرمن في المدينة كذلك ، يعتقدون بان كنيسة شيدت

---

(٣٧) تافرنييه G. B. Tavernier رحالة فرنسـي قام برحـلة الى العراق عام ١٦٤٤ ، وقد ترجمها الاستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عـواد بعنوان (العراق في القرن السابع عشر) ، نشرت في بغداد عام ١٩٤١ . ويكتبها اوليفييه هكذا Karasera ولاظها قرية قارة .

(٣٨) Bélisaire قائد بيزنطي من قواد جستنيان (القرن السادس م) ، دحر الفرس والفندال والقوط الشرقيين .

(٣٩) كارستن نيبور Carsten Niebhur عالم دانمركي قام برحلة الى بلاد الشرق ، فزار العراق سنة ١٧٦٥ ، وسجل مذكرات نقلها الى العربية د. محمود حسين الامين بعنوان (رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر) ، ونشر في بغـداد ١٩٦٥ .

في القرن الرابع على اسم مار يعقوب اسقف هذه المدينة (٤٠) . لكننا لا نقبل بهذا الرأي ، بل نظن بان الهيكل المذكور قد شيد زمن الرومان او الاغريق ، ثم تحول الى كنيسة عندما ساد المسيحيون هذه البلدة ، ثم شيد مكانه جامع بعد الاسلام . نجد في ارضية هذا الهيكل ناووسا بسيطا من مرمر ابيض مع غطائه . وقد أكدوا لنا بان ثمه ما يشبهه في ارضية موضع آخر متصل به ، لكننا لم ندخل الى الموقع الثاني لانه مليء بالانقاض . غير ان ثمه كاهنا ارمنياً يقيم الشعائر الدينية تحت قبة قائمة ظاهر هذا الهيكل . وعلى مقربة من هذا الموقع نلقى خمسة اعمدة ما زالت منتصبة ، تحتفظ ثلاثة منها بتيجانها ، لكنها قد طمرت بالانقاض حتى وسطها . وشاهدنا على مسافة ابعد قدّ مرمر ابيض واسمر ، معظمه ، عليه كتابة لاتينية ممحوة كثيراً ، بحيث اننا لم نقدر ان نقرأ سوى الكلمات التالية : « عربة . . . نصراً . . . في الميدان . . . »(٤١) . ولعله كان الميدان الذي كانت تجري فيه سباقات الخيل .

لقد كانت نصيبين ، كما هو معلوم ، مدينة مهمة ايام حكم الاغريق والرومان، وهي تقع الى الغرب من نهر صغير يسمى مقدونيوس او ساوكوراس(٤٢) يستمد ماءه من نبع في لحف جبال قريبة ، ويجري حتى يصب بالخابور ثم في الفرات في سير سيسيوم ، المسماة اليوم قرقيسيه (٤٣) . وقد كانت نصيبين في سهل فسيح خصب ، وعلى بعد فرسخ واحد الى جنوب الجبل الذي يكمل امتداد الجبل المشيدة عليه ماردين .

اخذت نصيبين في ايام السلوقيين اسم انطاكية (٤٤) ، واصبحت مفتاح

---

(٤٠) يعقوب النصيبيني اسقف نصيبين ومعلم مار افرام في القرن الرابع للميلاد .

(٤١) سجلها اوليفييه هكذا ، باللاتينية : Currus.... Victoriam.... stadii....

(٤٢) وردت هكذا : Mygdonius, Saocoras . وهو نهر جغجغ .

(٤٣) وردت هكذا : Circesium, Kirkésiéh

(٤٤) المعلومات التاريخية لرحلتنا ليست دقيقة ، بشأن نصيبين وانطاكية ، فان انطاكية بناها سلوقوس الاول سنة ٣٠٠ ق.م ، واصبحت ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية بعد روما والاسكندرية ، وقد دمرتها الحروب ثم الزلازل في القرن السادس للميلاد ، فأصبحت ابان الفتوحات العربية بلدة بسيطة .

كبادوسيا(قبادوقية)، وهي المقاطعة الواقعة شرقي بلاد مابين النهرين . ثم خضعت لملوك ارمينيا حتى دخلها لوكللوس فاتحا بعد ان قهر اكثر من مرة ميتريدات وتيغران (٤٥) . وكانت ايضاً جزءاً من امبراطورية الفرثيين حين استولى تراجان على بلاد ما بين النهرين والحقها بالامبراطورية الرومانية . ولم يحكم جوفيان، الذي خلف يوليانس الا فترة وجيزة ، ثم هدم كل ما شيده سلفه ، وطلب شابور الثاني ملك الفرثيين (٤٦) الصلح ، فتم له ذلك بعد قطع نصيبين عن البلاد الواقعة شرقي هذه المدينة .

تعود نصيبين اليوم الى باشا بغداد ، ويحكمها (ويوضة) ماردين ، وهي ليست سوى قرية مزرية لا يكاد سكانهايبلغون الف نسمة ، معظمهم تقريباً من الاكراد والعرب ، كما ان فيهم بعض الارمن واليعاقبة الذين يعتـاشون على مرور القوافل . والقرية هــذه مشيدة على مقربة من النهر في موقع المدينة القديمة . ازقتها ضــيقة جداً وغير متناسقة اطلاقا ، كما انها ليست مبلطة البتة . والبيوت واطئة ، وغير مريحة ، وليست مشيدة بشكل جيد . تشتمل على فناء غير مبلط ولا مسيّج ، الحيطان من طين ، والسقوف من قش يضعون فوقه طبقة من طين يخلطونه بتبن اتقاء للمطر . لكننا لاحظنا بان هذه الوسيلة غير مجدية ، لاننا حين سكنا في العاشر (من جرمنال) (٣٠ آذار) في جو ماطر ، كان الماء يقطر في سائر أركان غرفتنا تقريباً ، رغم اننا سكنا في بيت يبدو انه في حال جيدة (٤٧) .

---

(٤٥) لوكللوس قائد روماني شهير (القرن الاول ق.م) ، وميترايدات الكبير عدو الرومان اللدود ، وتيغران صهره ، وكلاهما ارمنيان . وردت أسماؤهم بالفرنسية : Lucullus, Mitridate, Tigrane

(٤٦) يخطيء اوليفييه بقوله ان شابور ملك الفرثيين ، بينما هو في الحقيقة ملك الساسانيين ، وقد حكم في السنوات ٣١٠ ــ ٣٧٩م ، بينما حكم الفرثيون من سنة ٢٥٠ق.م ولغاية ٢٢٨م .

(٤٧) العادة المتبعة ان يجدد طلاء سطوح هذه البيوت بالطين في أواخر الصيف ولغاية ٢٢٨م .
فلا تتعرض لرشح الماء شتاء ، ويبدو ان البيت الذي سكنه رحالتنا لم يحظ بذلك .

لاهالي نصيبين بعض القطعان ، ويحرثون بعض الاراضي ، وينصرف غالبتهم الى زراعة الرز .

لم يكن المطر وحده هو الذي ألزمنا على البقاء ، بل انهم كانوا يبغون التأكد من صحة الاشاعات المتفشية ، فقد ذكر الاهالي بان عصابة اوقفت قافلة قبل يوم من وصولنا ، واجبرتها على دفع غرامة . وقد شاهدنا فعلاً وصول قافلة يوم العاشر (من الشهر) اكدت لنا بانها قد دفعت الضريبة. لقد كانت قادمة من الموصل ، وتمكنت من العبور بعد التضحية بحمل اقمشة قطنية ، وعشر عباءات واربعين قرشاً فضياً . وان قافلة (قادمة) من ديار بكر ، كانت قد سبقتنا ، أكرهت هي ايضاً على الدفع ، وقيل لنا انه بقدر ما نتأخر ، بقدر ذلك نتعرض لمشاكل اكبر ، لان هؤلاء الأشخاص تزداد قوتهم ساعة بعد اخرى ، اذ يصبحون اكثر عدداً ، فيتمكنون من التصدي للقوافل القوية ايضاً ، ومع ذلك فان قافلتنا لم ينالها ضرر .

استناداً الى تلك المعلومات ، واصلنا طريقنا في اليوم الحادي عشر منه وسط امطار ورياح جنوبية غربية شديدة ، وعبرنا النهر على جسر ذي اثني عشر قوساً صغيراً ، ووصلنا بعد مسيرة خمس ساعات الى قرية عربية مبنية على اكمة اصطناعية . وقد قطعنا سهولا بدت لنا خصيبة جدا .

وعندما حطينا الرحال زارنا الاغا . لقد كان رجلا في السبعين من عمره ضخم الجسم ، مكتمل البنية ، وما يزال قوياً بحيث انه قادر على استعمال الرمح وركوب الخيل ومطاردة العدو كاقوى واسرع من في القرية . أفادنا بان قبيلته تخضع لباشا بغداد ، وتزرع اراضي القرية فتنتج محصولا سنوياً تدفع منه ضريبة . واضاف بان القبائل الموجودة في اطراف جبال سنجار هي مستقلة نوعا ما ، وقد كانت احداها التي اوقفت القوافل قبل ايام دون معرفة

السبب حتى الآن . وقال ان قبيلته معادية لتلك ، لكنها اضعف منها ، يدافع امير الجزيرة عنها ، وهو غني ومقتدر وصديق لباشا بغداد .

واكد الاغا وكل الأشخاص الذين أتوا لرؤيتنا باناولئك سيسلبوننا لامحالة اذا ما تابعنا سيرنا . لذا نصحنا الاغا بالعودة الى ماردين ، او الذهاب الى الموصل عبر الجزيرة . والموصل مدينة تقع على دجلة على بعد عشرة او اثني عشر فرسخاً جنوب شرقي القرية التي كنا فيها . وكان يردد : « علي ان احميكم طالما انتم في اراضي ، اما بعد ذلك فعلي ان احذركم بانكم محفوفون بالاخطار » .

كان الاغا خلال حديثنا يتفحص جيدا اسلحتنا النارية ، وهما زندان صغيران حربيان مع حرابهما ، ومسدسان ، وبندقية ذات اطلاقتين . وطلب منا شرح كيفية استخدام الحراب ، وتفهم فائدتها لمن يحارب مترجلا ، لكنه افاد بان للفارس العربي رمحه ، وهو افضل . واعجب بالمسدسين كثيراً ، لكنه وجدهما قصيرين جداً . وقد رغب في بندقيتنا ذات الاطلاقتين ، وسالنا بالحاح ان نتنازل له عنها ، وان نحدد السعر الذي سيدفعه لنا فوراً ، لكننا امتنعنا عن النزول عند رغبته بذريعة ان المسافرين في بلد مضطرب الأمن هم بحاجة الى التسلح . فقدم لنا عندئذ بندقيته بديلاً ، وكانت بندقية طويلة ، قديمة جداً ، مركبة على الطريقة التركية ، تزن ثلاثة اضعاف بندقية حرب اوربية ، فقلنا له بان سلاحه اكثر قيمة من سلاحنا ، وبان بندقيته جيدة للحرب ، اما ما يرغب فيه فلا يصلح الا للصيد . اما اذا كانت رغبته الحصول على بندقية ذات اطلاقتين شبيهة ببندقيتنا ، فاننا نستطيع ان نأتي له بواحدة من حلب بقيمة ٥٠ الى ٦٠ قرشا . وقد اطال كثيراً في طلبه كما تمادينا نحن ايضاً في الرفض دون ان يبدو عليه اي انزعاج .

تعرض القافلة لخطر النهب :

استمرت الامطار في الثاني عشر من الشهر (١ نيسان) ، بل اشتدت . وكانت القافلة بأسرها في العراء اما نحن فكنا وحدنا قد حللنا عند اعرابي ، في بيت طيني مكون

من فناء مساحته ١٢ قدماً مربعاً ، وقد اهتمت زوجة العربي واولاده بضيافتنا وتقديم كل ما كان لازماً بشكل كبير . وجدنا في هذه القرية زبدةً وحليباً فاخراً ، وعسلا طيباً ، وجبناً غير جيد . البيض متوفر جداً ، والدجاج سمين كثيراً . ولكي نصالح الاغا ونكسب رضاه وننسيه رفضنا بيع البندقية ، ارسلنا له بعض ارطال سكر وقهوة ، فاستحسن ذلك جدا ، واكسبتنا هذه الهدية خروفين منه .

انصرم النهار بتردد ، اذ لم يستطع أدلاؤنا اتخاذ اي قـرار ، فاقترحنا ارسال خبير الى شـيخ القبيلة سائلين اياه اجازة مرور لقاء هدية . كان هذا رأي الاغا ، وقد تبنته القافلة برمتها ، لكننا حين اردنا وضعه موضع التنفيذ كنا وكأننا في مجلس شورى ، لان عرب القرية اعترضوا انهم في حالة حرب مع اولئك النـاس ، ولم يرض احد من افراد القافلة القيام بالمهمة ، فاقترح بعضهم ان يكون الطلب من أميـر الجزيرة (٤٨) ، وكانت (الجزيرة) على بعـد مسيرة يوم ، فيبعث هذا برسالة وبعض الضباط ، وتعهد الاغا بذلك لقاء عشرة قروش ، وقال اننا سنحصل على الجواب نهار الغد ، فاعطينا عشرين قرشاً الى المكرين لكي يجمعوا على هذا الرأي ، ومع ذلك لم يمكننا التأكد من الأمر ، وانقضى النهار ايضاً . دون التوصل الى نتيجة .

وكان الموقف في اليوم الثالث عشر ايضاً موقف تردد وعـدم اتخاذ قرار . فقد قرر بعضهم العودة الى ماردين ، بينما كان الآخرون يفضلون الانتظار ، وقد أخذ بعضهم في العودة فعلا .

وحوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم الرابع عشر رأينا قافلة مـن الموصل وقد وصلت بعد ان قدمت هدية هي عبارة عن خمسين قرشاً قدمتها الى رئيس القبيلة قبل ان تمر في اراضيه .

وبوصول هذه القافلة اقتنعنا بان كافة الصعوبات ستزول بسهولة ، واننا بفضل الدراهم سنصل دونما حادث الى الموصل ، لكننا لم نشك بان أدلاءنا لن يحتذوا بما قدمه لهم اولئك من امثلة .

(٤٨) يكتبها اوليفييه : Géziréh وتدعى جزيرة ابن عمر ، وتقع على دجلة .

ارتحلنا ظهر اليوم الرابع عشر ، وكان المطر قد انقطع ، والطقس قد اصبح لطيفاً جداً ، والسماء صافية . وعلى بعد فرسخ من القرية ، اجتزنا نهراً صغيراً كانت الامطار قد جعلته اكبر ، لكننا لم نكد نصل الى الضفة الثانية حتى رأينا ثلاثة اعراب مسلحين قادمين نحونا ، احدهم على الحصان ، اما الآخران فمترجلان . فتوجسنا شراً واستحوذ الخوف على جميع رفاق السفر ، حتى بدا عند رؤيتهم اياهم ، انهم توقعوا بان القبيلة العدوّة كلها قد جاءت لمهاجمتهم . رغم انه لم يكن علينا ان نخشى بأساً ، لاننا لم نكن بعد على اراضيهم . وقد قال لنا هؤلاء الذين واجهونا اننا لن نتعدى ابعد من ذلك الا اذا نقدناهم على الفور عشرة قروش ، فمطالبهم كانت بخسة . وكانت القافلة على وشك تسديد هذا المبلغ حين نصحناهم بالا يفعلوا ، اذ قلنا لهم : « لِمَ تعطون دراهم لثلاثة اشخاص لا تخشون منهم بأساً ، وفي الامكان تأديبهم حالا على تجرؤهم ؟ » . لذا قررت القافلة التي كانت اسلحتنا ومنزلتنا تبعث فيها الطمأنينة ، رفض اعطاء القروش العشرة . وحصلت مشادّة ظننا انها ستؤدي الى اراقة الدماء ، اذ هدد اولئك الأشخاص عدة مرات انهم سيضربون ، وكانوا يقتربون منا اكثر من مرة لكي يتفحصوا اسلحتنا ، وللتأكد من مدى تخوفنا . لكننا كنا قد تنحينا جانباً دون التلفظ بكلمة واحدة ، وكنا على أهبة الاستعداد لاتخاذ الموقف الذي تتطلبه الاحوال . ونظراً لأن المشادّة طالت واصبحت مستهجنة ، خاطبهم عنا الراهب (رجل الدين) الذي كان معنا (٤٩) ان ينسحبوا او يسكتوا ، والا فاننا سنطلق عليهم اذا ما استمروا في ازعاجنا . فقدموا انفسهم عندئذ لقاء مبلغ من المال ، لكي يرافقونا حتى القبيلة المجاورة ، فقلنا لهم شرط تسليم السلاح الذي سيرد لهم في حينه ، فلم يرضوا ، وتركونا وشأننا .

---

(٥٢) هو رئيس الكرمليين الذي ورد ذكره في الهامش ٣ .

وبعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان عبرنا نهراً آخر ، فألقينا انفسنا في اراضي القبيلة التي كان الشاك يحوم حولها ، ولم تكن الساعة قد بلغت بعد الخامسة . لم يشأ أحد من افراد القافلة ان يمضي فيقدم نفسه للشيخ ، وكان الجميع في قلق شديد طيلة النهار .

وقبل ان نترك القرية التي كانت محط رحالنا ، قال الاغا لادلائنا انه قد استلم امراً من والي ماردين يسمح لنا بالمسير اثناء الليل مع حماية كافية ، لبريد مرسل من القسطنطينية الى بغداد ، فعرض على القافلة ان تنضم اليه ، وكان على اكريائنا ان يقبلوا بكل فرح هذا العرض ، لكنهم ارادوا تحاشي التعرض اثناء الليل الى عبور النهرين اللذين في الطريق مع حميرهم وخيولهم المحملة ، قرروا ان يتقدموا وينتظروا الاغا ، الذي وعدهم بانه سوف يمر في الساعة العاشرة . لكنه لم يأت حتى الثانية عشرة ليلا ، فظنوا انه لن يأتي بعد ، او انه قد مرّ دون ان يسمعوا به ، وكان كافة الادلاء مجتمعين ، وهم آذان صاغية لسماع اية ضجة ممكنة ، وكانوا يتحدثون من حين لاخر عن مغامرات القوافل . رقدنا ونحن غير مرتاحين كثيراً من تصرفاتهم ، وكنا على وشك النوم عندما جاء الراهب حوالي الساعة الواحدة ليوقظنا ويقول لنا بان القافلة كلها قائمة ، والخوف الشديد مستول عليها ، لأنهم كانوا يسمعون منذ مدة رجالا عن بعد يتحدثون فيما بينهم . واضاف بانهم قد ذهبوا لمعرفة المصدر . فقلنا : « لِمَ الخوف ، انه الاغا قادم ، فليمضوا سراعاً وليدعوه للراحة ريثما ينتظرنا لحظة » . فلم يتجاسر اي واحد على الذهاب الى الطريق ، رغم انها على بعد مائتي خطوة من الموضع الذي كنا مخيمين فيه ، مع انهم اشخاص مفروض فيهم انهم قائمون بمهمة الرصد ؛ انهم لم يكونوا على بعد اكثر من عشر خطوات منا .

وفي الخامس عشر منه ، كانت الشمس قد ارتفعت كثيراً في السماء دون ان يتخذ القوم قرارا ، اذ لم يكونوا يجسرون على التحرك في الطريق ، او يجرأون على الذهاب وتقـديم انفسهم الى شيخ القبيلة ، او حتى على التحدث بصوت عال ، وكانوا يتركون للحمير الاسترسال في قرع اجراس تسمع اصواتها اكثر من اصوات البشر . وكانت هذه الحيوانات تعبر من حين الى اخر عن مشاعر الحب بينها بشكل عنيف وسمج ، دون ان يثير ذلك ادلاءنا . فكنا نقول : « ترى ما هذا السلوك ؟ اية سخافة ؟ وأي جبن؟ اترى التجارة بيد اناس مثل هؤلاء ؟ هل ان اناس زماننا يعهدون باموالهم يومياً الى اشخاص مثل هؤلاء ؟ ان كان شخصان فقط كافيين لاخذ ضريبة منها ؟ فقد كنا واثقين بان رجال العشية الثلاثة ، يحمل احدهم رمحاً فقط ، وللاثنين الاخرين خنجر رديء في الحزام ، كان بوسعهم الحصول على القروش العشرة لو لم يخفهم حضورنا و يبعث الطمأنينة في افراد القافلة » .

بينما كانت تنتابنا تأملات اليمة حول الوضع المزري لأهل هذه الارجاء بسبب حكومة لا تراعي الا القوي ، بحيث انها خلقت شـقة واسعة بين جماعات السكان ، وفرضت على البعض دفع ضريبة واعفت اخرين منها ، اذا بنا نسمع صراخا مرعبا تكرّر تباعا ، ثم غدا صياحا شاملا ، فقد لمح احدهم فرسـانا في البعيد . ازاء هذا المنـظر اسرع بعض افراد القافلة يتجمعون ويطلبون الغفـران ، ويقبلون الارض ، ويقرعون صـدورهم . وقد جعلنا هذا الموقف المخجل نتبسم شفقة عليهم ، ثم احتقارهم ، تمنينا لو انهم نهبوا وعوملوا معاملة سيئة . لقد كانوا اكثر من خمسين ، انهارت معنوياتهم بظهور عشرة أنفار . فهم ان كانوا يخشون الموت بهذا الشكل، فلمَ تراهم يستسلمون له دون أي دفاع عن النفس ؟ وان كانوا يتطلعون الى ضياع سلعهم واموالهم وكأنه اتعس الشرور ، فلمَ لا يعرضون بحياتهم للحفاظ عليها ؟

ان الرجفة عند الخطر ضعف معذور احياناً ، ومدعاة الى الشفقة دائماً ، اما الاستسلام وعدم الدفاع عن النفس ، وعدم التحرك حين تتعرض الممتلكات والوجود عينه الى خطر ، فبالنسبة للشخص القادر على الصمود جبن لا يستحق صاحبه ان يحيا ، ولا يوحي الا باحتقار صاحبه .

ومع ذلك فقد كان علينا ان ندبر أمر أمننا ، لذا ذهبنا لأخذ سلاحنا ، وتنحينا جانبا انا والراهب والخادم ، وفكرنا ونحن احد عشر فارسا ، انه قد يكون الاغا ومعه عشرة رجال . ان هذه الفكرة التي قبلها افراد القافلة بانزعاج ، هدأت روعهم ، ثم ما لبث ان اتضح الامر فعلا فعرفوا انه الاغا يتقدم جماعته . فحيّانا واعرب عن تعجبه لاننا لم نرافقه حين مروره ، وقال بانه قد أوصل البريد حتى نهاية اراضي قبيلته دون ان يلاقي اي شخص ، ونصحنا بان نواصل طريقنا فورا .

ظننا بانهم سوف يعماون بنصيحته ، لكننا اخطأنا ، فقد مكثوا ساعتين مترددين ، ولم نعلم اي موقف كانوا سيتخذون لو لم تأت قافلة من الموصل ، وقد قطعت الطريق دون اي ازعاج . كانت هذه القافلة قد ارسلت احد افرادها الى رئيس القبيلة ، فاجابهم انه ليس في نيته التعرض للقوافل ولا طلب اي شيء منها . واستنادا الى هذا التأكيد شرعنا في المسير حوالي الظهر دون ان نصادف احدا . وبعد خمس ساعات من المسير عبرنا نهراً صغيراً قد حفر قاعه عميقاً جدا في ارض بركانية . وخيمنا على الضفة اليسرى ، خارج حدود القبيلة التي ترددوا تجاهها كثيراً ، والتي كان سلوكها الشاذ لغزا بالنسبة لنا حتى وصولنا الموصل ، حيث علمنا هناك بان باشا بغداد (٥٠) كان مريضاً ، وقد اوشك على الموت في تلك الايام ، ثم انتشر الخبر بان صحته قد تحسنت وانه من المؤمل بان يشفى قريباً .

---

(٥٠) هو سليمان باشا والي بغداد ، وسيأتي ذكره وترجمته في الفصل الخامس . تولاها مدة طويلة (١١٩٤ ــ ١٢١٧ هـ / ١٧٨٠ ــ ١٨٠٢ م) .

في الطريق الى الموصل :

اصبحنا في صحراء منذ عبورنا النهر الصغير الواقع على بعد فرسخ من القرية العربية التي أقمنا فيها . وقد رأينا منذ مغادرتنا ماردين وحتى تلك القرية بعض القرى الآهلة بالعرب . ولقينا في كل مكان من الريف قطعان ابقار واغنام ومزروعات قليلة . الاراضي سهلة وخصبة جداً . اما الارض ،من النهر الى ضواحي الموصل التي ترعى فيها مواشي العرب ، فليس فيها أي نوع من المحاصيل الزراعية ، مع انها سهول فسيحة وخصبة جدا ، تنبت مراعي كثيفة ، ترعى فيها قطعان العرب والاكراد أيضاً ، إلا أن هولاء لايتجاوزون حدود الاراضي المتفق عليها ،لأن العشائر كلها تقف ضد العشيرة التي تحاول مخالفة هذا الاتفاق الذي قد اقره اسلافهم . وللقوافل حق ترك دوابهم ترعى في هذه الاراضي دون ان يقلقها احـــد ، فقد لاحظناهم في الطريق يتــوقفون في اي مرعى طبيعي كمـــا في الحقـول القريبة من المنـــاطق السكـنية . العشب كـــثير في كل مكان بحيث انه يــزيد عن الحاجة ، كمـــا انه يجب ، ان يؤكل في موضعه ، لذا فهم لا يهتمون بفصل المراعي ووضع العلف في اهراء للشتاء ، اذ يعوض عن العشب في موسم الشتـاء ، باضـــافة حصة من الشعير صباحاً ومسـاءً ، حتى ان خيـول المدينة ذاتهـا لا تعـرف أكـلا مغايراً بل تتناول العشب الطري في الربيع مدة خمسة عشر يوماً وذلك للتطهير ، اما بقية السنة فعلفها التبن والشعير .

سرنا في السادس عشر منه ثماني ساعات ، وكان المطر غزيرا طوال النهار وبعض الليـل . وخيمنـا في حقل يعلو فيه العشب الكثيف جدا ، وارض مسقية . اضطررنا الى حفر حفرة صغيرة حـول خيمتنا لكي نحرس امتعتنا وأسرتنا من المطر .

وفي السابع عشر منه استمرت الامطـار ، وسرنا مدة عشر ساعات ونصف واسترحنا بضع ساعات على حافة ساقية كانت مياهها مالحة خفيفاً . وسرنا بعد

الغداء مسافة فرسخين ونصف ، ورغم كون الارض سهلة فقد غدت غير مستوية ، وكان امامنا تل على بعد فرسخ ونصف .

سرنا في الثامن عشر منه ثماني ساعات واسترحنا على ضفة جدول ، يسميه نيبور كاسفي – كوبري (٥١) ، شاهدنا عليه آثار جسر عال ذي ثلاثة اقواس ، جميل الشكل . الارض غير مستوية ، وقد لاحظنا فيها جبساً اسمر وجبساً ابيض جميل اللون ، كأنه المرمر . وماء الجدول مالح .

وشاهدنا بعض الجمال في البعيد . رحانا الساعة السادسة مساء ، وسرنا حتى العاشرة . وبعد ربع ساعة من امتطائنا الخيول ، لقينا الى اليسار عدة خيم ، ثم مجموعة كبيرة من الانوار في موضعين مختلفين انهم اعراب الموصل الذين يأتون في مطلع الموسم الجميل لكي يرعوا مواشيهم في هذه الاراضي غير المزروعة .

وفي التاسع عشر منه سرنا بين مرتفعين ، يبعد الواحد عن الآخر اكثر من فرسخين . الارض التي نسير عليها سهلة ولكن غير مستوية ، وهي مزروعة ، وتبدو خصبة جداً .

وصلنا الموصل بعد ست ساعات ونصف من المسير ، ونزلنا في دير الرهبان الدومنيكيين (٥٢) .

---

(٥١) وردت هكذا : Kasfi - Kupri . يبدو انها جسر الكسك – انظر الهامش ١٧ من الفصل التالي .

(٥٢) يقع في المحلة المعروفة اليوم بالساعة . وقد بدأ نشاط الرهبان الدومنيكان في الموصل منذ القرن الثالث عشر ، وافتتحت رسالتهم رسميا عام ١٧٤٨ بأمر من البابا بندكتس الرابع عشر .

الفصـــل الثـــاني(*)

وصف الموصل.السكان . القرى المحاصيل . منتوج هذه المدينةوتجارتها. سلوك الباشا . جولة في نونيا . السفر الى بغـداد .

وصف الموصل :

تقع الموصل في سهل ، على الضفة الغربية من دجلة ، بدرجة ٣٦° و ٢٠° دقيقة . انها مدينة مهمة جدا ، سواء من حيث عدد سكانها ، او من حيث موقعها وتجارتها وقد رسم السيد نيبور (١) خططها ، وقـدّر قطرها نحو ١٣٠٠ خطوة هندسية ، غير ان البيوت في الشمال الغربي لا تصل الى الاسوار ، بحيث ان امتداد المدينة نفسها لا يتجاوز اكثر من الف خطوة .

هذه الاسوار تشبه اسوار جميع المدن التركية والعربية ، فهي مرتفعة وفيها عدد كبير من الابراج تحيط بها حفرة عميقة جدا (٢) بوسعها ان تملأ من النهر لو عرف العثمانيون فن الدفاع عن المواقع .

الى الجانب الايمن شيد على جزيرة في دجلة قصر قد أهملت صيانته ، وليس في داخله مدفع واحد . ورغم ذلك كله فانه بوسع هذه المدينة على وضعها هذا ان تصد كافة الهجمات التي تشن عليها ، مهما كان مصدر تلك الهجمات . وقد انتصرت اكثر من مرة على الفرس بفضل قوتها وحدها ، ولا سيما عام ١٧٤٣ ، عندما جاء نادر شاه لمهاجمتها بجيش

(*) كما نوهنا سابقا فان هذا الفصل اتى في الأصل عاشرا . راجع هامش الفصل الاول .

(١) ورد ذكر نيبور ورحلته الى الشرق في الهامش ٤١ من الفصل الاول ، وانظر الخارطة المهمة التي رسمها للمدينة .

(٢) يسمّى الخندق،ويحيط بالمدينة خارج السور ويسمي أهل الموصل السور (البدن) . انشأ الامويون سوراً حول الموصل ، ثم أعاد العقيليون بناءه في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ثم رفع السور

=

مدهش كان قد حقق انتصارات(عديدة (٣).

كان السور يمتد سابقاً على طول دجلة . اما اليوم فلا نشاهد سوى بقاياه ، فقد اهملت صيانته، ولابدّ انهم اعتقدوا ان بوسع النهر أن يحمي المدينة بما في الكفاية . وتبدو الاسوار في الجنوب الغربي احدث من التي فيالشمال الغربي . ويلاحظ بانهم قد شيدوا البيوت فيما بعد في عدة اماكن مختلفة وجعلوا جدرانها كسور .

لم نشك بان امتداد المدينة كان في السابق اكبر مما هو عليه اليوم ، وقد زادت قناعتنا ونحن نشاهد خارج المدينة عمالا منهمكين في الحفر وسط اطلال لاستخراج مواد مختلفة صالحة للإستعمال مرة اخرى. ونحن نعلم بان

= واحكمه وحفر الخندق عمادالدين زنكي في القرن السادس الهجري واهمل بعد العصر الاتابكي ، ولما تولى الحاج حسين باشا الجليلي حكم الموصل جدّد السور القديم وحفر الخندق في سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣م) واصابه بعض التلف في حصار نادر شاه للموصل في تلك السنة ، فجدّد حسين باشا ترميمه ثم أعاد احمد باشا بن سليمان باشا الجليلي اصلاحه وحفر الخندق سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) . انظر : سور الموصل : سعيد الديوهجي (مجلة سومر ، العدد الاول من السنة الثالثة ص ١١٧ ـ ١٢٨ ، بغداد ١٩٤٧) ، والموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي ، عماد عبدالسلام رؤوف ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٥ .

(٣) عندما حاصر الفرس بغداد سنة ١١٤٥ هـ (١٧٣٢ م) أرسلوا قوة من ٨٠٠٠ جندي الى الموصل فاصطدم معها الموصليون بقيادة واليها حسين باشا الجليلي ودمّروا القوة المهاجمة وقتل قائدها ، ثم هاجم نادر شاه الموصل مرة اخرى بجيش عظيم زهاء ٣٥٠٠٠ جندي سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) وحاصرها مدة طويلة وقصفها بالمدافع فقاومته الموصل بقيادة واليها حسين باشا الجليلي مقاومة عظيمة أدّت الى اندحاره ، وهي من المعارك الفاصلة في التاريخ (انظر في ذلك : منهل الاولياء ، وتاريخ الموصل لسليمان الصائغ ، والموصل في العهد العثماني لعماد عبدالسلام رؤوف ، وحصار الموصل لعبدالجبار محمد جرجيس ، وحصار الموصل لروبرت اولسن ، واربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) .

الموصل قد سقطت عام ١٥١٦ (٤) واحرقت في عهد سليم الاول ، وذلك من قبل محمد باشا والي ديار بكر ، الذي أعمل السيف في رقاب اهاليها . فلعل نطاق المدينة قد ضاق في تلك الفترة في الجانب الجنوبي منها ، بحيث تركت في الشمال الغربي مسافة ما تزال خاوية .

تزدان الموصل بعدد كبير من الجوامع الجميلة ، وفيها خمسة عشر خاناً ، منها عشرة ذات بنيان جميل . الاسواق كثيرة وجميلة جدا ، وكذلك الحمامات العامة والمقاهي . وللمسيحيين فيها كنائس كثيرة ، وللدومنيكيين دير لقينا فيه ثلاثة رهبان ، رئيسهم طبيب ثقة لدى الباشا (٥) .

والمدينة جيدة البناء ، اما الطرقات فضيقة وغير متناسقة ، القليل منها مبلط ، بحيث ان الناس يسيرون ستة اشهر في الاوحال ، وستة أشهر في الاتربة . وفي كل بيت سطح او اكثر ، والسطوح مرتبة بحيث ان كل سطح مستور عن الجيران. وتصعد النساء في ليالي الصيف الى السطح لاستنشاق الهواء . طيلة ثلاثة اشهر او اربعة ، يصعد كل من السكان فراشه كل ليلة ، ويشتمل هذا الفراش على مطرح او مطرحين من قطن للاغنياء ، اما الفقراء فلهم بساط او فرش بسيط ، اي وفقاً للحال ، ثم غطاء ثقيل نوعا ما ، لان الليالي باردة بقدر ما النهار هو حار .

وبعض المنازل مبنية من حجر ، اما غالبيتها فمبنية من طين . والحيطان مكسوة بطبقة جصية . ويستعملون للابواب وارضيات البيوت نوعا من الرخام يبدو لاول نظرة انه مرمر جميل اسمر وابيض ، لكنه لا يبقى على جماله . ان هذا الحجر الذي اعتبره نيبور مرمرا يكثر جداً في اطراف الموصل ، ويبدو انهم كانوا يستخدمونه منذ زمن طويل ، لاننا رأيناهم يستعملونه بكميات كبيرة يستخرجونها

---

(٤) انظر عن فتح العثمانيين للموصل ، مقالة سيّار كوكب علي الجميل ، مجلة بين النهرين ، الموصل .

(٥) هو محمد باشا بن أمين باشا الجليلي تولى حكم الموصل في السنوات ١٢٠٤ ـ ١٢٢١ هـ (١٧٨٩ ـ ١٨٠٦ م) وستأتي ترجمته .

من مقاطع في جنوب المدينة ، يقطعون القطع الكبيرة وينظفونها ، ويحولون المتفتت الى جص (٦) .

السـكان :

في الموصل سبعة او ثمانية آلاف مسيحي ، من يعاقبة ونساطرة (٧) ، وحوالي الف يهودي ، وخمسة عشرين ألف مسلم من العرب(٨) وخمسة عشر الى ستة عشر ألف كردي ، وكذلك تقريباً من الاتراك ، اما اليزيديون فلم يحاولوا ابدا السكنى فيها لان الناس تنفر منهم ، ولا يسمح لهم بممارسة دينهم بحرية ، لذا يفضلون البقاء في جبالهم في سنجار وفي بعض القرى الى الشـرق من دجلة حيث يحتفظون بنوع من الاستقلال (٩) .

كان في الموصـل باشـا ذو ثلاثة طوغات (١٠) ، بينمـا ليس

(٦) انه المرمر الموصلي المعروف ، ويميل الى الزرقة ، ويعرف عند الموصليين بـ (الفرش) . ويختلف عن الحجر الاسمر المشوب بالصفرة والمعروف بـ (الحلاّن) .

(٧) اليعاقبة هم السريان الارثوذكس ، والنساطرة هم الاثوريون حالياً لكن الرحالة لا يفرق بين السريان الارثوذكس والسريان الكاثوليك ، ولا بين الاثوريين والكلدان ، كما رأينا . راجع الهامش ٣٢ من الفصل الاول .

(٨) يقصد اوليفييه بـ (العرب) (العرب المسلمين) .

(٩) وبشأن اليزيديين انظر كتاب الاستاذ عبدالرزاق الحسني وغيره .

(١٠) انها رتب يمنحها السلطان للولاة ، و (الوزير) أعلاهم رتبة ويكون ذا ثلاث طوغات وبعده رتبة أمير الامراء (بكلريكي) ويكون ذا طوغين .

ووالي الموصل السابق الذي يشير الرحالة اليه هو سليمان باشا ابن محمد أمين باشا الجليلي وكان برتبة وزير . ولد سـنة ١١٥٢ هـ (١٧٣٩ م) ووجهت اليه ولاية الموصل سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) ثم تولى شهرزور سنة ١١٨٩ هـ عند تولية والده على الموصـل وبغـداد والبصرة وشارك في عزل والي بغداد عمر باشا في تلك السنة . وبعد ذلك تولى الموصل وولايات اخرى ، وعند اضطراب الاحوال في بغداد وهروب واليها تولّى محافظة بغداد سنة ١١٩٣ هـ الى حين وصول واليها الجديد سليمان باشا من البصرة أوائل سنة ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) . طلب اعفاءه من ولاية الموصل سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) لمرضه وتوفي سنة ١٢١١هـ . ودفن في جامع الباشا بالموصل .

=

للحالي (١١) سوى طوغين ، لذا عليهفي حالة اعلان حرب على فارس ان يسير خلف لواء باشا بغداد . تحت امرته سبعة أمراء سناجق (١٢) ومائتان واربعة وسبعون زعيماً (١٣) بوسعهم ان يجهزوا مع جبابيهم (١٤) ستمائة من رجال القتال الاشداء، وعلينا ان نضيف الى هذه الخيالة حوالي مائتي فارس(١٥). اما الانكشارية (١٦) فعددهم بين ستة الى سبعة الاف . ولا يتجاوز حرس الباشا في ايامنا المائتين .

لا تمتد هذه الباشويه كثيراً ، فهي لا تبلغ في الشمال الى ابعد من اسكي موصل وكسفي كوبري (١٧) ، لكنها تمتد الى الجنوب حتى تكريت ، وتمتد شرقا من دجلة الى الزاب الكبير والى حافات الجبال .

اما باشوية بغداد فتضم كل المجرى الشرقي لدجلة حتى الزاب الكبير ومناطق الاكراد وتمتد في الغرب لتشمل الغرب كل بلاد الجزيرة حتى ماردين واطرافها .

يقدر عدد سكان باشوية الموصل بمائتي الف (نسمة) . ويشمل ذلك سكان المركز . ولا تبلغ واردات الضريبة الاعتيادية وجميع المصروفات المرتفعة

= (أخباره في منهل الاولياء ، وغاية المرام ، ودوحة الوزراء ، وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ، وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، والموصل في العهد العثماني) .

(١١) هو محمد باشا بن محمد امين باشا الجليلي ، وقد منح رتبة وزير (ثلاث طوغات) بعد ذلك ، وستأتي ترجمته . انظر الهامش ٣١ .

(١٢) السنجق هو قاطع عسكري ، وقد كتبه اوليفييه : Sangiak - bey بك سنجق .

(١٣) الزعيم

(١٤) أي فرسان الجبال ، ويكتبهم رحالتنا هكذا : gébélis .

(١٥) وردت في الاصل الفرنسي : saphis (سباهي) وهم الفرسان الخيالة لدى العثمانيين .

(١٦) انهم الينجرية أو الينكجرية ، والمقصود بهم الانكشارية ، ووردت التسمية بالفرنسية : Janissaires

(١٧) اسكي موصل أو بلد القديمة ، Eski - Mossul وكسفي كوبري Kasfi - Kupri . هو جسر الكسك . انظر الهامش ٥٥ من الفصل السابق .

الى مبلغ مائة بورصة (كيس) او مائة الف فرنك (١٨) .

ان هذه الباشوية ، كما نرى ، مكتظة بالسكان رغم انها محصورة في رقعة صغيرة . أرضها خصبة جداً، والمحاصيل وفيرة جدا . وتبعد الجبال عن الموصل اثني عشر الى خمسة عشر فرسخاً ، وجبال الثلوج على بعد مسيرة ثلاثة ايام ، لكنه في الامكان رؤية السهول وتلول ممتـــدة في الشمال والشرق ، الى بدايات جبال كردستان العالية ، التي تفصل (بلاد) فارس عن الامبراطورية العثمانية ، وتتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي .

المنـــــاخ :

مناخ الموصل حار جداً في الصيف ، ومتقلب جداً في الشتاء . ويكون الهواء عليلاً وصافياً في فصل الشتاء ، حين تسود رياح الجنوب ، بينما يصبح الجو قاسيـــا وقليل البرودة عند هبوب رياح الشرق والشمـــال . اما الرياح الغربية فتسبب الامطار شتاء والرطوبة صيفاً .

ان هـــذا البلد ، كجميع بلاد ما بين النهرين السفلى ، اصبح مأهولا في الاشهر الحارة جدا من السنة بفضل هبوب رياح البحر المتوسط بشكل قياسي ابان النهار . ولا تشاهد ابدا غيوم منذ شهر بريريال (١٩) وحتى فند مير (٢٠) . ولا تسقط خلالها الامطار التي تغـــزر في الربيع وفي اواخر الخريف (٢١) . وليالي الصيف رطبة ، الا ان حر النهار يشتد من الساعة الحادية عشرة او منذ الظهر وحتى المساء .

---

(١٨) المقصود (بالبورصة) كيس من عملة فضية . أما الفرنك فهو عملة فضية وزن خمسة غرامات . وهما بالفرنسية : Bourses - Francs

(١٩) هو الشهر التاسع من التقويم الجمهوري الفرنسي ، يبدأ في ٢٠ أيـار وينتهي في ١٨ حزيران ، ومشتق من المروج : Prairial .

(٢٠) هو الشهر الاول من التقويم المذكور ، لانه شهر القطاف ، ويبدأ في ٢٢ أيلول وينتهي في ٢١ تشرين الاول : Vendémiaire .

(٢١) نظرا لطيب مناخ الموصل في فصلي الربيع والخريف معا ، سميت بـ (أم الربيعين) .

الجو عادة صحي جدا وقلما تتعرض هذه المدينة لامراض مستوطنة . وتندر فيها الحمى المتواترة والصفراوية المتقطعة . والطاعون الذي يسبب اضراراً فادحة في الساحل السوري ، غير معروف تقريباً فيها ، بل يتجدد ويتطهر دونما انقطاع بفضل حركة المياه . وكذلك فى المدن الواقعة في السهل ، او المشيدة على مرتفعات ، فهي اكثر صحية من الواقعة في اودية او اسافل الجبال ، ويكون التعرض لهذه الامراض اشد خطورة في البلدان الحارة ، اذ تكون اعراضها اكثر ملموسة ، ولهذا السبب ذاته فان المدن الواقعة على حافة البحر ، تتميز جميعاً بصحة سكانها وبتكوينهم الجيد ، شرط ان تهيمن عليها الجبال كثيراً ، ولا تكون محاطة باهوار او مياه راكدة.ومع ن ذلك فان للمدن الاولىامتيازات على غيرها ، اذ انها تستمد من الانهار ماءاً اشد عذوبة من مياه الينابيع والآبار والصهاريج .

لايشرب اهالي الموصل الا من ماء دجلة ، وهم يحملونه بالقرب الى بيوتهم الخاصة ، ويتركونه لكي يركد قبل شربه . ويصعب الحصول على ثلج نظراً لبعد الجبال الثلجية كثيراً ، ولانه ليس لهم فن صنع مجمدات بوسعهم ان يملأوها شتاء ، لذلك نراهم يستخدمون في الصيف ، كما في مصر ، جراراً او آنية فخار لتبريد الماء (٢٢) ، يعرضونها خلال ساعات لمجرى الهواء ، فيكتسب الماء الذي فيها درجة من البرودة المستساغة ، بحيث يكون ثمة ٥ او ٦ درجات كفارق بين حرارة الجو والمناخ وبين درجة الماء المبرد .

اهمية موقع الموصل ومحاصيلها :

الموصل اعظم الاسواق التجارية في الشرق ، فان معظم الاقمشة وعقاقير الهند والسلع التي تصل البصرة وبغداد تمر بهذه المدينة في طريقها الى الاستانة عبر آسيا الصغرى ، وكذلك بشأن قهوة مخا وبضائع فارس . كما انها مستودع

---

(٢٢) وتسمى لدى أهالي الموصل من (شربات) جمع (شربة) .

للعفص والصمغ وشمع كردستـــان ، وقطن المنـــاطق القريبـــة . وتصنـــع فيها الاقمشة المراكشية ذات النوعية الفاخرة ، واقمشة قطنية لاستعمال الاهالي ، بينما يصل العفص والصمغ والكثيراء الى حلب حيث تباع الى التجار الفرنسيين الذين يرسلونها الى مرسيليا . وقد اعطت الموصل اسمها الى اقمشة قطنية معروفة باسم (الموصلين) (٢٤) ، لانه عبر هذه المدينة وصلت هذه الاقمشة الى اوربا ، وقد كانت تجلب من الهند الى فارس عبر الخليج .

ترد الى الموصل البضائع التي تحتاجها هذه المدينة ، كالعباءات المصنوعة في سوريا ، كما يأتيها من سوريا وبلاد مابين النهرين والاناضول وارمينيا وكردستان نحاسيات قديمة تمر بها قبل ذهابها الى الهند عبر بغداد .

يكثر في الموصل وبغداد ومدن البلاد الجبلية نوع من المن (٢٥) تصنع منه حلويات صغيرة بيضاء ، طعمها الظاهري اشبه بعجين لوز شديد الحلاوة ، او كخليط بديع من العسل مع عجين السمسم ، هذا ما خلناه لدى تذوقنا اياه للمرة الاولى . ان هذا المن الطيب المذاق ليس مسهلا ، يجمع في كردستان وشمال فارس ، ويسمونه كيزن — كيبان (٢٦) ، ويصل مخاوطاً باوراق شجر او شجيرات لم نعرف ان نشخصها بسبب تكسر الاوراق بشكل كبير . وقد سألنا عبثا التجار الذين يقطعون تلك الجبال ، فقال لنا بعضهم انهم يجمعون هذه المادة قبل طلوع الشمس من على شجرة ضخمة ، بينما دلنا غيرهم على شجيرة كالتي تعطينا الصمغ ، غير ان الاكثرية اشاروا الى شجرة متوسطة الحجم ، او الى شجرة كبيرة شبيهة

---

(٢٤) يقع الرحالة في الخطأ الذي وقع فيه آخرون ، فظنوا (الموزلين) قماشا هنديا سمي كذلك لانه كان يصل أوربا عن طريق الموصل ، بينما الحقيقة انه قماش قطني رفيع كان يصنع في مدينة الموصل ، واسمه بالفرنسية : Mousselines فضلّنا كتابته بالصـــاد . وقد ورد ذكره في رحلة ماركو بولو منذ أواسط القرن ١٣م على أنه من الموصل .

(٢٥) انها الحلوى المعروفة في الموصل حتى يومنا هذا ، وتسمى (منّ السما)

(٢٦) وردت : Guiésen - guébin

بالباوط . وقد تحدث سترابون وديودورس الصقلي وكوينتوس كرس(٢٧)عن هذا المن ، وهو عندهم ضرب من العسل يستحصل في هيركانيا (٢٨) من على اوراق الشجر وينبغي الحصول عليه قبل طلوع الشمس ، وبالتالي فأن هـذا المن يختلف كثيراً عن المن للذي يعطيه الزنجبيل ، وسوف تتاح لنـا الفرصة للتحدث عنه في موضع آخر ، ولدينا نماذج من الاول والآخر .

تعطي بساتين الموصل ليمونا حلوا (٢٩) واترجا ، وفستقاً ، وتيناً ، ورمانا ، وخوخاً ، ومشمشاً ، واجاصاً ، واشجاراً مثمرة اخرى ، كما في اوربا . وتنتج الاراضي المحيطة بهـا الحبوب والقطن بكثرة . وللناس قطعان ماشية وفيرة ، لكنهـم يصنعون قليلا جـدا من الخمـر ،مع ان الكرمة تطيب لهم بشكل خاص ، وتزود كردستان والاناضول بخاصة تجار الموصل باجود انواع العنب المعروفة ، كما ان كردستان تزودها ايضاً بزبيب يصنع منه المسلمون شراباً لهم(٣٠) بينما يصـنع المسيحيون منـه عرقاً فاخراً بواسـطة التخمير والتقـطير . ولا يعرفون شراب التوت وشجرة التوت تصبح عندهم كبيرة . وتزود كردستان كذلك نوعاً من التبغ اقل جودة من الموجودة في اللاذقية .

سـلوك الباشـا :

ابان اقامتنـا في الموصـل سمعنـا التجـار والناس يتحـدثون عن

---

(٢٧) سترابون Strabon جغرافي يوناني من القرن الاول للميلاد له كتاب الجغرافية وفيه معلومات نفيسـة عن بلاد المشـرق العربي . وديودور الصقلي Diodore de Sicile احد الكتبة اليونان ، نبغ في أيام اوغسطس ، وله المكتبة التاريخية ، وكوينتس كورسس مؤرخ لاتيني من القرن الاول الميلادي أيضا ، له تاريخ الاسكندر . انظر المواضع التي يذكرون فيهـا المن في مؤلفاتهم :
Strabon, Lib. 2, pag. 73, edit. Almenhoven. Diodore, Tom, 2, pag. 218, edit. Wesslling. Quinte - Curce, lib. 6, cap. 14.

(٢٨) بلاد Hyrcanie في الجنوب الشرقي من بحر الخزر .

(٢٩) ويسمى في الموصل بالنوم الحلو .

(٣٠) يسمى شراب الزبيب في الموصل بـ (شربت زبيب) ولا يحتوى على الكحول .

الباشا (٣١) بخير ويكياون المديح له لادارته الحسنة ، وبسبب الامن الذي وطده في ولايته كلها . ورأيناهم معجبين بتجرده وتجرد عماله (موظفيه) ، فهم مرتاحون

---

(٣١) محمد باشا بن الغازي محمد امين باشا الجليلي ، ولد سنة ١١٧٠ هـ (١٧٥٦ م) نال رتبة الميرميران سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) بعرض اخيه والي الموصل الوزير سليمان باشا الجليلي ، الذي كان يعهد اليه ببعض المهمات منها اخماد الاضطرابات في سنجار سنة ١١٩٣ وكذلك القضاء على عصيان محمود باشا بابان سنة ١١٩٦ هـ بالاشتراك مع سليمان باشا والي بغداد .

وتولى بعض المهمات قبل توليه ولاية الموصل ، فقد (تسلم) الموصل بعد وفاة والده محمد امين باشا الجليلي سنة ١١٨٩ الذي كان قد عين والياً على بغداد والموصل ، واصبح المتسلم (اي وكيل الوالي) بعد عزل والي الموصل مصطفى باشا يازجي اوغلي سنة ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ م) ، وكذلك بعد وفاة عبدالباقي باشا الجليلي سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) . تولى حكم الموصل لمدة ١٨ سنة مستمرة بعد ان استعفى اخوه الوزير سليمان باشا الجليلي من الحكم سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٨٩ م) حتى وفاته سنة ١٢٢١ هـ (١٧٩٦ م) . ومنح رتبة الوزارة سنة ١٢١٢ هـ . ولقد اثنى المؤرخون عليه ، فقد جاء في زبدة الآثار الجلية (ص ١٥٨) انه عندما عين سليمان باشا الجليلي والياً للموصل للمرة الرابعة سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) ، قدم محمد باشا من بغداد وتسلم الموصل نيابة عن أخيه وأمر بعمل خمسة عشر فرناً للخبز وقضى على الغلاء ، وكانت قد كثرت الفلوس القبيحة ، فجلب معه من بغداد فلوساً جداً كباراً وامر ان تكون كل أربعة فلوس بصاغة . واشاد المؤرخون بالأمن والهدوء والرخاء الذي ساد الموصل اثناء حكمه الطويل ، ومما يرويه ابو طالب خان في رحلته سنة ١٢١٨ هـ (١٨٢٣ م) عن موظفي الدولة واعيان السكان في الموصل (ص ٣٥٩) : كان هؤلاء ناساً مثقفين خاصة وذوي أخلاق محبوبة وتفكير واسع ، ومنذ مغادرتي باريس لم الاق رجالا ذوي اذهان نيرة مثلهم ، ووزراء السلطان (في الاستانة) لو كانوا يملكون عشر براعتهم فقط ما خشيت على ما يستقبله « الباب العثماني » (يعني السلطنة) من مقادير .

(اخباره في منهل الاولياء ج ١ ص ١٨٩ و ج ٢ ص ٩٨ ، ومنية الادباء ص ٨٨ ، وزبدة الآثار الجلية ص ١٤٥ و ١ ، وغاية المرام ص ٣٢٧ ــ ٣٢٩ ، وغرائب الاثر ، والموصل في العهد العثماني ، ورحلة ابي طالب خان ص ٣٥٧ ــ ٣٦١ ، وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٥٢ .)

جدا من الهدوء المستتب في كل مكان ، والحماية التي تتمتع بها التجارة . وفعلا فان الباشا يعمل كل مافي وسعه لكي يحمل يزيديي سنجار والاكراد والكلدان والارمن الذين في كردستان والعرب الذين في بلادما بين النهرين على جلب محاصيل اراضيهم الى المدينة ، ويمنـــع قيام اي تعسف عليهم ، ولا يرتكب اي نوع من الظلم حيالهم ، لذلك نراه قد اجرى تعديلات على رسوم دخول المواد الغذائية ، ويسهر على تسهيل معاملات التجار من قبل موظفي الكمارك ، وهو يحرص خاصة على عدم زيادة الرسوم التي تستوفى عن البضائع . همه استتباب النظام وحماية الضعفاء والحد من الاقوياء اكثر من اضفاء هالة على سلطة هو ليس بحاجة اليها .

لقد اشاع هذا السلوك الحكيم والسياسي كل الاثر الذي يرجوه الباشا ، فان الموصل تعرضت في السابق اكثر من اية مدينة اخـــرى في الامبراطورية ، لقلاقل وفتـن وحروب داخلية ، متأتية ليس بسبب بعدها الكثير عن العاصمة ، بقدر ما عن اختلاف عادات واديان الاقوام التي تسكنها او تقصدها ، ثم رات انقطاع هذه القلاقل واستتباب الامن . لذا كانت حرمة مدينة الموصل قائمة في الحروب التي جـــرت بين الاكراد والعرب ، حتى ان الباشا نفسه اصبح وسيطا لفض النزاع . وفي المجادلات اللاهوتية بين النساطرة واليعاقبة (٣٢) لم يسفك دم ، انما اكتفوا بالصياح العالي دون ان يصغي الواحد للاخر ، وتبا غضوا دون ان يؤذي احدهم غيره .

وقد تقاطر الى الموصل التجار والباعة الذين رأوا انفسهم في مأمن زرافات زرافات ووسعوا مجـــالا حراً لاعمالهم التجارية . وازداد عـــدد القوافل لان هذه المدينة اخـــذت تستهلك اكثر من ذي قبـــل ، كما انهـــا اصبحت ، نظـــراً للوضع الذي ساعد على ذلك ، مستودعاً ضخماً جدا . ومنذئذ كثرت الحرف والصناعات ، وتضاعف المنتوج الزراعي ، وازداد عدد السكان ، وعندما يرى السكان مثل هـــذا الرفاه ، ينعمون في الوقت عينه بفوائد حيـــاة خالية من الهموم والتشكيات .

---

(٣٢) لقد شبت الخلافات بين النســـاطرة (الاثوريين والكلدان) واليعاقبـــة (السريان الارثوذكس والكاثوليك) في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بسبب زيادة تكتلك قسم من كل من هاتين الفئتين .

لا ترجع هذه المزايا الى حكمة الباشا وحده ، انما تعود ايضا الى الضمان الذي استحصله هذا الوالي بتجديد ولايته كل سنة ، وان يكون خلفه واحداً من اقاربه المقربين . فمنذ ان وصلت عائلة عبدالجليل الكبيرة ذات الاقتدار الكبير ، والتي اصلها من الموصل(٣٣) ، الى حكم هذه المنطقة ، رأى السيد الاعظم (السلطان) نفسه مضطراً نوعا ما للرضوخ سنويا لمطلب الشعب ، فاخذ يبعث بفرمان التأييد . ولماذا الامتناع عن تلبية هذا المبتغى مادامت الضرائب تدفع بانتظام الى خزينة السلطان ، واوامر الباب العالي تنفذ دون ابطاء . ولمَ الرفض ، في حالة وفاة الباشا ، في تعيين من هو مرشح من قبل الاعيان حين يكون الخلف متمكنا من فرض سيطرته اكثر من غيره ؟ .

وهكذا فان الباشا لتمكنه من دعم نفسه بسبب سمعته ووجاهة عائلته ، لم يكن بحاجة الى حامية كثيرة العدد . فقد اشترى الباشوية بامواله . ولوثوقه بانه سوف يستعيد تدريجياً امواله ، فأنه يمتنع عن التضييق على الشعب ، على عكس ماكان يفعل نظراؤه المجبولون على الجشع ، اوالذين يتكالبون في جمع الاموال . ولتأكده اخيراً بانه ثابت ، نلقاه يتطلع الى حكمه وكأنه ملكية خاصة يجب عليه تحسينها .

ولم يقتصر ادراكه على منع المظالم والاختلاسات والاعمال الارتجالية ، بل رأى أيضاً ضرورة تشجيع الزراعة والصناعة والتجارة لكي يزيد هو ايضاً موارد ثرواته .

لا يتجاوز حرس الباشا الخاص اكثر من مائتي رجل ، فهو محاط بالرأي العام ، والشعب يسانده بحب ، لذا فهو في امان اكبر مع هؤلاء المائتين المخلصين ،

---

(٣٣) قدم عبدالجليل جدّ الاسرة من ديار بكر الى الموصل في القرن السابع عشر ، وسرعان ما اصبحت الاسرة موصلية ، وتولى اسماعيل باشا بن عبدالجليل حكم الموصل سنة ١١٣٩ هـ (١٧٢٦ م) وتولى بعده أولاده وأحفاده حكم الموصل وغيرها من الولايات اكثر من مائة سنة .

(انظر تاريخ الموصل لسليمان صائغ والموصل في العهد العثماني وتذكرة شعراء آمد لعلي اميري (ترجمته في منهل الاولياء ج ١ ص ٣١٨) .

اكثر مما هي حال باشا عقرة مثلا المحاط بعسكر يكرهه ، وعلى استعداد ابدا للانضواءتحت لواء أي باشا آخر يدفع اكثر. ان باشا عقرة بحاجة الى عسكر للابقاء على استقلاله . وكيف يعيش عسكر كهـذا بغيـر النهب والسلب والمصادرة ؟ بينما تكفي لباشـا الموصل حامية بسيطة ، لخدمته في قصـره ، ولحمـل اوامره خارج المدينة ، يدفع لها من واردات الولاية الاعتيادية . ترى ماعظم الفرق بين هذين الباشوين ؟ الاول باق في مكانه بتأييد السلطان ، والآخـر لانه عاص عليه ، ولا يقوى على الحفاظ على نفسه ضد محاولات حجاب السلطان ورسله(٣٤) الا بالحـذر والتجسس . بوسع الاول ان ينام مرتاح البال وسط حامية وكأنه في حضن عائلته ، بينما يتسكع الآخر في خبايا قصره ولا يصدق نفسه مطمئنا البتة رغم البنادق والمسدسات والخناجر المحيطة به . بوسع الاول ان يذهب الى أي مكان يشاء ، وحده وبدون سلاح ، بينما ناقى الآخر مكرها على احاطة نفسه بجهاز القوة الخانق . تصل الاول الحقيقة بوثوق ، بينما التملق وحده يتحدث الى الآخر . يسمع الاول في كل مكان اناشيد حمد ، ولا يلقى سوى عبارات الخير ، بينما لا يسمع الآخر غير صوت آلام تعساء يعذبه ، ولا يجد حواليه سوى صوت يعبر عن عدم الرضى . وبينما يحصل الاول لقاء سلوكه على طمانينة النفس وتقدير الناس الطيبين ، يحزّ في نفس الثاني تقريع الضمير محملا بالاستياء العلني . فاذا مات الاول يشـيعه اسـف الشعب عليه ، بينما الثـاني تلاحقه لعنات الناس .

التأهب للسفر الى بغداد :

كان علينا ان نحصل على مقابلة الباشا ، بل لقد قيل لنا انه يتمناها لكي يتحدث الينا عن احداث اوربا المهمة (٣٥) ، ولكن بما اننا لا نحب التحدث عن

---

(٣٤) قبوجي باشي capijis - bechis موظف يرسله السلطان بمهمات خاصة منها مصادرة أموال الولاة الذين يعزلون لغضب السلطان عليهم ولتحصيل بعض الاموال .

(٣٥) يشير المؤلف الى الثورة الفرنسية ، وعدم رغبته في البحث عنها خاصة مع الحـكام .

احداث كهذه لا سيما مع الباشوات ونكره المراسم التي تتطلبها زيارات كهذه ، فهي لا تعلّم شيئاً ، اذ انها متساوية كلها ، سألنا رئيس الدير (٣٦) ان يحاول اعفاءنا منها ، وسلمناه الفرمان الممنوح لنا ، كما اريناه رسالة الوزير الكبير (الصدر الاعظم) الى باشا بغداد . لذا قدم لنا باشا الموصل ضابطاً من حرسه لكي يرافقنا حتى تكريت اذا ما كنا نود ان نقصد بغداد عن طريق دجلة ،او حتى كركوك ان كنا نريد الذهاب براً .

ان المعلومات التي حصلنا عليها عن شكل القوارب المستخدمة وعن طريق السباحة في النهر لم توح لنا بالثقة ، اذ تحدث احيانا حوادث بسبب عدم التمكن من قيادة القوارب بصورة جيدة ، كما قد تنشطر الى قسمين عند اصطدامها بصخور يمنع احيانا لون المياه من رؤيتها ، او بسيقان شجر يجرفها النهر ابان موسم فيضان المياه . ويأتي الخطر الاكبر من البدو الذين يرصدون الأكلاك وهي ليست سوى عدد من القرب المنفوخة والمربوطة الواحدة الى الاخرى بواسطة اخشاب صفصاف طويلة او ركائز طرفاء تثبت في الاعلى . ثم يضعون الواح صنوبر وفوقها البضائع وينصب المسافرون في احدى الجهات مصطبة يجلسون عليها . وتكفيهم اربعة او خمسة ايام للوصول الى بغداد .

لا تمضي الأكلاك الى ابعد من ذلك ، لان الملاحة من بغداد الى البصرة تتم بواسطة زوارق او سفن شراعية ، لذا فهم يفككون الاكلاك في بغداد ويبيعون القرب التي يجري استعمالها لنقل المياه من دجلة الى البيوت الخاصة او يحفظون فيها التمر ، فهي خير وسيلة لحفظه ،لان الحشرات والقوارض لاتستطيع انتضع فيها بيضها وفراخها .

لم يكن ثمه قافلة مستعدة للسفر الى بغداد ، لكنهم اكدوا لنا بان الطريق امينة . لذا قررنا ان نسأل الباشا ساعياً (٣٧) لمرافقتنا وامراً لتزويدنا بخيول

---

(٣٦) يقصد رئيس الرسالة الدومنيكية في الموصل ، وقد كان يومذاك الاب الايطالي غرتزوني Garzoni .

(٣٧) جوقدار هو ساعي بريد في الايام الخوالي ، أو الحارس الخبير بالطرقات ،

بريد على طول الطريق ، الامر الذي نلناه دونما صعوبة .

نينـــوى :

قبل مغادرة الموصل دفعنا الشوق الى ان نزور الارض التي يعتقد بان نينوى الشهيرة كانت مشيدة عليهـــا ، ونينوى عاصمة الامـــبراطورية الآشورية وكنا نأمل ان نلقى بعض آثار مدينة عَيّنَ اليهود (٣٨) لها خمسة عشر او عشرين فرسخا كامتداد على طول النهر ، وحكيت عنهـا العجائب بحيث ان ديودور الصقلي يحدد امتدادها بمائة وخمسين غلوة (٣٩) طولا وحوالي خمسة عشر الف وتسعين غلوة عرضا . وكان ارتفاع اسوار نينوى ، مائة قدم ، والاسوار عريضة بحيث أنه بوسع ثلاث عربات السيـــر عليـــه ، وعـــدد الابراج الف وخمسمائة وارتفاعها ضعف ارتفـــاع الاسوار . ويظن المسيحيون واليهود في الموصل بأن نينوى تشمل الرقعة الممتدة بين القاضية ويارمجة وهما قريتان تبعد الواحدة عن الاخرى سبعة او ثمانية آلاف غلوة .

يبـدو ان كل الجغرافيين المعاصرين متفقـون على موقع هذه المدينة القديمة ، انهم يضعونها برمتها على الضفة الشرقية من دجلة ، بازاء الموصل . ويبـدو ان هذا الموقع هو الاكثر طبيعياً ، ولكن يجب التنويه الى انه لم يبق اي اثر للمدينة في كل السهل المزروع الذي قطعناه ، ولكن من المحتمل ان تكون المواد قد انتزعت منذ ساعة خرابها لتشييد مدن اخرى ، وان المحراث قد سوى الارض فيما بعد ، لا سيما كما نظن بان حيطان البيوت هي من طين ، كما نشاهده حتى اليوم في كل مدن تلك الربوع ، القديمة منها والحديثة . اما اذا كان السهل لا يظهر اي اثر لمدينة ، فثمه بعض آثار الحيطان على الضلع الذي يحد ذلك السهل الى الشرق ، ويسمى ذاك الموضع (قلعة نينوى) (٤٠) ، كما ومنها شيء قليل

---

(٣٨) اي التوراة ، او العهد القديم ، كما جاء في سفر يونان ، الفصل الثالث .

(٣٩) مقياس قديم وهو عبارة عن ستمائة خطوة بالقياس اليوناني ، وبالفرنسية : Stade

(٤٠) يكتبها اوليفييه هكذا ، وقد سمع لفظها في الموصل : Kalla - Nunia

الى الجنوب على التل عينه ، حيث قرية تسمى (نونيا) (٤١) ، يذكر البعض في الموصل بان النبي يونس مدفون فيها .

★ ★ ★

(٤١) Nunia ويقصد بهـا قرية نينـوى ، ولم ينتبه اوليفييه الى ان التلول المتناثرة يومذاك في الساحل الغربي هي أطلال نينوى التي اكتشفها المنقبون بعد حوالي نصف قرن من تاريخ رحلته .

الفصل الثالث (*)

السفر من الموصل ـ عبور الزاب ـ الاكلاك وانطباعات بشأنها ـ ملاحظات حول مكان وقوع معركة اربيلا ـ وصف اربيل ، والتون كوبري ، وكركوك ، وطاووق ، وطوزخورماتو ، وقرهتبة ـ الوصول الى بغداد

مغادرة الموصل :

استقلينا اربعة عشر من خيول البريد ، وسافرنا في الخامس والعشرين من جرمنال (١٤ نيسان)(١) حوالي الساعة التاسعة صباحاً تحت قيادة دليل(٢) كان الطقس ممطرا . قضينا زهاء الساعة في عبور النهر على قارب من خشب البلوط خشن الصناعة ، كان قاعه مسطحاً تقريباً ، ومقدمته مرتفعة ارتفاعاً ملحوظاً ، بينما مؤخرته مفتوحة في بعض اقسامه ، ومسدودة من ناحيتنا ، وكانت مرتفعة كارتفاع الاطراف اكثر من ثلاثة اقدام في الماء بحيث ان الخيول لاقت صعوبات جمة في الدخول اليه والخروج منه (٣) .

يقوم اتصال الموصل مع الجانب الشرقي بواسطة جسر قوارب ، ويتم العبور عليه بحرية طيلة السنة تقريباً ، اما حين يفيض النهر بسبب الامطار وذوبان الثلوج ، فانّهم يسحبون الجسر ويستخدمون عندئذ قوارب كالتي تحدثنا عنها . وكان دجلة حين عبرناه ضعف عرضه الاعتيادي . وهو اسرع بكثير من نهر السين في باريس في أوج جريانه .

(*) انه الفصل الحادي عشر من المجلد الثاني من الرحلة .

(١) انه الشهر السابع من التقويم الجمهوري ، يبدأ في ٢١ أو ٢٢ آذار وينتهي في ١٩ أو ٢٠ نيسان ، وقد ورد ذكره في الهامش ٢٧ من الفصل الاول .

(٢) أو الجوقدار tchocadar وقد ورد ذلك في الهامش ٣٧ من الفصل السابق .

(٣) يسمى هذا القارب بـ (طرادة) ، في الموصل .

امتطينا الجياد حوالي الساعة العاشرة . وبعد اربع ساعات وثلاثة ارباع الساعة ، وصلنا بخطى وئيدة الى قـره قوش (٤) ، وهي قرية سريان كاثوليك وتضم نحو ثلاثمائة بيت ، وبيوتها مشيدة بالطين ، وتشبه معظمها بيـوت حردران ، او القرية الاولى التي صادفناها لدى مغادرتنا حلب ، فهي منخفضة ويعلوها قبة .

لقد كان الجو لطيفاً جدا منذ اكثر من عشرين يوما . الليالي باردة ورطبة ، بينما النهار حار ،سيما عند ارتفاع الشمس اذ يؤشر مقياس الحرارة الساعة الواحدة بعد الظهر درجة ١٦ ، ١٧ بل و ١٨ درجة (٥) في الظل . وقد بدت لنا النباتات ، لدى تحركنا من الموصل ، متقدمة في النمو ، وكاننا في باريس في أواخر موسم الازهار ؛ والاراضي الواقعة شرقي دجلة كبيرة الخصوبة ومزروعة بشكل جيد . وقد لقينا فيها مقدراً كبيراً من نباتات مزهـرة سوف نقدم فيما بعـد وصفها وشكلها (٦) .

عبور الزاب على أكلاك :

وفي اليوم السادس والعشرين منه (١٥ نيسان) ، وبعد مسيرة ثلاث ساعات عبرنا نهراً اسمه الخازر وهويسمى عند الاقدمين بومادوس او بوميللوس(٧). لقد جعلته الامطار كبيراً جدا ، بحيث ان الميـاه بلغت ثلثي بطون الخيـول . قيل لنا انه يجف في الصيف . وبعد ساعتين وصلنا الزاب او (زرب صوي) او النهر القوي (٨) ، وهو نهر أكبر واسرع من السين شتاء كما نلقاه امام

(٤) هذا ما يسجله اوليفييه ، ويكتب اسم القصبة بالفرنسية هكذا : Kara - Coch ' أي الطير الأسود . ويرى بعضهم اصلا مختلفا لاسم قرهقوش أو باخديدا . وهي اليوم مركز قضاء الحمدانية في محافظة نينوى .

(٥) يستعمل المؤلف مقياس ريمور وتقابل هذه الدرجات ٢٠ ـ ٥ر٢٢ بالمقياس المئوي .

(٦) وذلك في الفصل السادس من هذه الرحلة .

(٧) يكتبه اوليفييه هكذا : Bumellus - Bumadus - Khaser Soul

(٨) ويأتي لدى رحالتنا على النحو التالي : Zab - Zarb Souï و (صوي) يعني النهر .

الانفاليد (٩) . يسميه الفرس القدامى زاباتس ، واليونان ليكس (١٠) .

لقد اهتم جماعة من اليز يديين الذين لقيناهم بانزال حمولة خيولنا ، ورفع سرُجها وبرادعها ، كان بعضهم مزودا بقربة منفوخة ، يتناول حصاناً حصانا من زمامه ، ويجعله يسبح ، وهو يمسك الزمام بيد ، والقربة بالاخرى ، وكانت بطن الحصان وفخذاه تستريح عليها ، وقد كان تقدم الجياد بقوة السيقان والارجل . فكان التيار يجرفها كثيراً ، ولكنها وصلت جميعها دون ان يحدث أي حادث . اما امتعتنا فقد وضعوها على اكلاك مؤلفة من اثنتين وثلاثين قربة مربوطة الى بعضها ومثبتة تحت اخشاب الصفصاف بنحو عقدة ونصف من السمك ، وقد جلسنا فوقها . وكان التجذيف بمجذاف ذي مسند على شكل مقبض ، لم يكن ليوصلنا الى الطرف الآخر بالتأكيد لو لم يجرنا حصان يقوده يزيدي كان يمسك بيمناه الذؤابة واللجام ، وبيسراه قربته ، لذا كان يطوف فوق الماء .

كنا قد استأجرنا قاربين لنكون اقل حمولة فلانتعرض لخطر تبلل امتعتنا واوراقنا . وكنا مرتاحين جدا من مهارة هؤلاء الملاحين ، ومن السرعة التي كانوا ينزلون بها الحمولة من على ظهور الخيل ويضعون امتعتنا على الاكلاك . اجتزنا النهر . وحمّلنا الخيل ثانية ، واعطيناهم بواسطة الدليل بضعة قروش ، فكانوا مسرورين كل السرور . وقد تم عبورنا خلال ساعة واحدة .

ان طريقة الملاحة هذه سهلة جدا واقتصادية ، وقد يستغرب المرء لعدم رؤيتها مستخدمة احيانا من قبل الجيوش الاوربية حين تضطر الى عبور عاجل لقنوات وانهر دونما اخطار . لاريب في ان النجاح في عمليات كهذه تعود دائماً الى البراعة التي يتم بها تنفيذها . لكنها مفيدة حتماً في حالة عبور قسم من العساكر النهر قبل ان يعترضها العدو ، كما لامكانية الاستغناء عن معابر كثيرا ما تكون بعيدة وبحاجة الى حراسة ،

---

(٩) Invalides موقع في مدينة باريس ، هو حاليا متحف حربي وفيه قبر نابليون . ونهر السين هو الذي يقطع مدينة باريس .

(١٠) وردت هكذا لدى اوليفييه : Zabatus - Lycus وهو الزاب الكبير .

فان الجيوش تستطيع بهذه الوسيلة رفع قوارب موجودة في الضفة المقابلة ، وتأمين مواد معاشية تنقص عادة ، وحمل بريد لا تسهل حمايته ، ونظرا لان كل جندي يستطيـــع ان يحمل شخصيا ما يقيم اوده بالســـرعة والضمان المطلوبين ، فان هـذه الوسيلة تستحق لكل هـــذه الاسباب ان تحظى باهتمام رجال الحرب (١١) .

يحملنا هذا الامر على الاعتقاد بان وسيلة كهذه كانت مستخدمة منذ زمن سحيق جدا ، وعلى مختلف انهر الشرق . ففي حملة قورش (١٢) وانسحاب العشرة الاف نرى الجنود اليونانيين يصنعون لهم اكلاكا وجلودا مليئة بالتبـــن ويعبرون الفرات للمضي بحثا عن مواد معاشية ، ويقترح احدهم بعد ذلك عبور دجلة باربعة الاف رجل من المشاة دفعة واحدة على الفي قربة منفوخة . وحين اراد الاسكندر (١٣) عبور الاستر (١٤) . لكي يهاجم الحيتيين (١٥) لجأ الى خيم جلدية ، وصنع منها قربا ، وملاها بالقش ؛ واستخدم الوسيلة عينها لعبور هيداسب (١٦) من قبل فريق الخيالة ، كمـــا انه عبر بهذه الطريقة ايضاً نهر اشيزينوس (١٧) .

ولعـــل اليونان والرومان قـــد لجـــأوا الى هـــذه الوسيلة بعـــد كزينيفون (١٨) والاسكندر ، في حملاتهم في آسيـــا ، ان لـم يكن لعبـــور

---

(١١) ان لرحلة اوليفييه غايات منها معلومات عسكرية تفيد الاوربيين .
(١٢) المقصود هنا قورش (كورش) الصغير (٤٢٤ — ٤٠١ ق.م) وحمـــلة العشرة آلاف لكزينيفون المعروفة بالاناباسيس ، سنة ٤٠١ ق.م .
(١٣) الاسكندر المقدوني أو الاســـكندر الكبير الملقب بـــذي القرنين (٣٥٦ — ٣٢٤ ق.م) : Alexandre
(١٤) Ister انه الاسم القديم لنهر الدانوب .
(١٥) شعب قديم من أوربا الجنوبية الشرقية ، ورد بالاصل الفرنسي : Cilicis
(١٦) نهر في الهند ، يسمى اليوم جبلام : Hydaspe
(١٧) ورد هكذا : Acésinus .
(١٨) Xénophon كزينيفون ، مؤرخ وفيلسوف وقائد يوناني ، من تلاميذ سقراط ، اشتهر بكتابة حملة العشرة آلاف (الصعود) Annabasis يصف فيها سيرة بعشرة آلاف مقاتل من بلدة كوناكسا على الفرات الى البحر الاسود

عساكرهم ، فعلى الأقل حين احتاجوا الحصول بسرعة على كل مايمكن ان يسهل لهم هذا العبور .

غير ان القول بان اليونان والرومان قد عبروا الفرات ودجلة والانهر الاخرى في الشرق على جسور قوارب او على اكلاك مؤلفة من قرب منفوخة ، ليس اقل صحة من ان هذه الاكلاك تستخدم الان للملاحة العادية في نهري دجلة والفرات ، ليس لانهم بفضل هذه الطريقة الاقتصادية ينقلون البضائع والسلع الاشد نفاسة الى مسافات بعيدة وحسب ، بل ان الاهالي افراداً او جماعات قد تعودوا ، ان يقوموا باسفار بعيدة كل على قربته . واننا حين صعدنا الفرات ، عند عودتنا من بلاد فارس ، شاهدنا عائلات بكاملها تتبع مجرى المياه ، وهي على قربها ، وكان الاباء والامهات يحملون على ظهورهم اطفالهم الصغار ، اما الذين قد بلغوا السابعة او الثامنة فكانوا يطوفون جيدا على قربة ماعز ، وكانت المؤن موضوعة في قربة او اكثر تسير وراءهم . لقد كان هؤلاء المسافرون يدركون اليابسة مساء فينامون مرتاحي البال على الساحل ، ثم يواصلون طريقهم في اليوم التالي .

الكلك وعينكاوه :

لم نتوقف لحظة في القرية الواقعة على الضفة اليسرى وقد بدت لنا واسعة ، ويأتي اسمها (كلك) على خارطة بوشامب الخطية ، ولايسكنها سوى يزيديين (١٩) . ويتحدث نيبور عن قرية اسمها عبدالعزيز تقع على الضفة اليمنى من الزاب ، لعلنا اجتزناها على بعد بضعة اميال باتجاه الجنوب . وقد قيل لنا ان عدة قرى يزيدية كانت على طرفي النهر ، وكان لكل منها اغا ، ووفقا لموقعهم كان يتبع البعض باشا الموصل ، بينما يتبع الاخرون باشا بغداد . ولهؤلاء اليزيديين نفس معتقدات وعادات يزيديي سنجار ، لكنهم اكثر خضوعا ، ويدفع رؤساؤهم الجزية بصورة اعتيادية . يسكن كلهم في قرى ،

(١٩) وتعرف اليوم بأسكي كلك ، والقصبة التي ازاءها (خابات) ، أما بوشامب فرحالة فرنسي سيرد ذكره في الهامش ٢ من الفصل التالي . ولا يسكن الكلك حالياً اليزيديون .

ويقومون بزراعة الارض ، ولهم ايضاً قطعان ماشية كثيرة ، وكثير منهم لاعمل له سوى القيام بتأمين عبور قوافل كثيرة على اكلاكهم ، وتأتي هذه القوافل من العمادية والجزيرة والموصل الى اربيل وكركوك وشهرزور او بغداد ، او القوافل الوافدة من المدن الاخيرة الى الاولى .

لم يكن الظهر قد حان حين امتطينا الجياد ، فكنا على بعد بضع فراسخ شمالي الجبال التي اخذنا نبتعد عنها . سرنا بخطوات حثيثة ، بل عدواً معظم الاحيان ، فلم تمض اكثر من اربع ساعات وثلاثة ارباع الساعة حتى وصلنا عينكاوه (٢٠) . ينبغي ان تبتعد هذه القرية سبع غلوات عن الزاب الكبير ، وهي ماهولة بالاكراد والسريان الكاثوليك (٢١) ، وهم يراجعون اغا كرديا . الاراضي من الزاب الكبير وحتى هذه القرية مستوية وخصبة جداً ، وكلها مزروعة تقريبا ، انها من اجمل السهول التي شاهدناها في هذه الربوع .

تحديد موقع معركة الاسكندر وداريوس :.

نحن على بعد اقل من فرسخ من اربيل المدينة التي اعطت اسمها للواقعة التي انتصر فيها الاسكندر على داريوس ، وبها انتهت الامبراطورية الفارسية (٢٢)

بيد ان المعركة المذكورة لم تقع تماما في سهل اربيل ، بل على مقربة من قرية اسمها كوكاميلا (٢٣) ، ربما تقع الى يمين الزاب (٢٤) .

---

(٢٠) يكتبها اوليفييه في كتابتها (انكونا) : Ancona

(٢١) سكان عينكاوه هم من الكلدان (والنساطرة سابقا) وليس كما يذكر اوليفييه خطأ . وهو قضاء في محافظة أربيل .

(٢٢) Darius داريوس أو داريوش ، آخر ملوك سلالة الاخمينيين (٣٣٦ ــ ٣٣٠ ق.م) ، قهره الاسكندر وأنهى بذلك حكم سلالته .

(٢٣) يشخص بعضهم كوكاميلا بقرية كرمليس قرب الحمدانية .

(٢٤) وقد ورد هكذا : Bumadus . انظر الهامش ٧ من هذا الفصل .

لقد انتصر الاسكندر على الفرس في مضيق كرانيك، وفي مضيق قيليقية(٢٥) وسيطر على سردس ومليت وهاليكارناس (٢٦) وكل آسيا الصغرى ، وخرب مدينة صور ، واخضع سوريا وفينيقية ومصر ، وارسى اسس مدينتين بحريتين ستحملان اسمه ، الاولى شمالي سوريا ، والاخرى شمال مصر(٢٧). وكان ما يزال يفكر بانتصارات جديدة ، لذا هيأ نفسه لمعارك جديدة . ولم تشغله مصر وسوريا طويلاً ، بل اصلح كل ما يتعلق بادارة تلك المناطق الغنية ، وعاد ادراجه ، ثم توجه نحو الفرات ، فعبر هذا النهر عند تابساكوس (٢٨) على قوارب لم يتخذ داريوس الحيطة لهـا فلم يحرقها ولم يرفعها من مكانها ، واجتاز بلاد ما بين النهرين دون ان يلقى اي عدو يعترض سيره ، وعبر دجلة على معبر قوارب (كلك) ، وخيم على بعد بضعة اميال من النهر .

اما داريوس ، فبدل ان يجمع كل قـواه في سهول مابين النهرين الفسيحة حيث كان بوسعه ان يدمر عسكر عدوه عند اجتيازه الفرات ، نراه بالعكس يبتعد ، ويترك بابل ، ويعبر دجلة ، ويسير باتجاه اربيل ، وكما لو كان يريد ازالـة كل الحواجز ، نراه ينشيء جسـرا على ليكس(٢٩)ويتقدم ثمانين غلوة ، ويخيم على ضفة الزاب .

حين كان الاسكندر يحمل على داريوس ، كان دجلة الى يمينه ، وجبال قردو (٣٠) الى يساره . وكان يوجه جنده في المعركة حسبما كان يأتيه نبأ ظهور

---

(٢٥) Granique غرانيكوس ، نهر صغير في آسيا الصغرى ، وموقع فيه انتصر الاسكندر على داريوس سنة ٣٣٤ ق.م .
Cilicie مقاطعة في آسيا الصغرى .

(٢٦) وردت هكذا : Sardes, Milet, Halicarnasse .

(٢٧) الاولى الاسكندرونة ، والثانية اسكندرية مصر .

(٢٨) Thapsacus

(٢٩) ورد اسمه لدى اوليفييه بحسب التسمية اليونانية Lycus وهو الزاب الكبير .

(٣٠) وردت التسمية هكذا : Gordiens .

العدو. ولم يكن داريوس بعيدا اكثر من مائة وخمسين غلوة ، اي حوالي ١٥ ميلا .

لا يذكر بان الاسكندر قد عبر الزاب لكي يقترب من ميدان المعركة ، بل ان كونتينوس كورسيس يقول بالعكس(٣١). يقول ان داريوس عسكر على ضفافه، ثم تقدم نحو عشر غلوات ريثما يرتاح فيكون مستعدا للقتال . وبما ان الرقعة الواقعة بين النهرين تبلغ سبعة او ثمانية اميال ، فيبدو لنا بوضوح ان داريوس هو الذي عبر الزاب ، وان المعركة حدثت الى يمين هذا النهر ، وان الاسكندر لدى تقدمه (الى المعركة) ، كان يرى دجلة الى يمينه ، وجبال قردو الى يساره ، باتجاه الجنوب الشرقي ، والراجح انه كان قد عبر دجلة عند الموقع الذي تقع عليه اليوم مدينة الموصل . ولا ذكر للزاب بعد اندحار داريوس ، لاننا في نهاية الصيف ، وقبل امطار الخريف التي تتأخر في هذه المناطق ، علما بان المعركة وقعت في ٢ تشرين الاول ، حيث نلقى هذا النهر عديم المياه تقريباً .

لقد قيل ان داريوس حين هرب عبر الزاب من جديد في نهاية النهار ، وصل اربيلا حوالي منتصف الليل . لذلك يرجح بان الواقعة قد استمرت منذ الصباح وحتى الساعة الرابعة عصرا، وان داريوس سار ساعتين حتى وصل الزاب ، وخمس او ست ساعات لكي يصل اربيلا ، الامر الذي يوافق تماما المسافات التي لقيناها ، لاننا سرنا حوالي الساعتين من نهر الخازر حتى الزاب ، وخمس ساعات من الزاب حتى اربيل .

قلعة أربيل :

تركنا في السابع والعشرين منه عينكاوه ، وبعد مسيرة نصف ساعة اجتزنا اسافل اربيل . واربيل مدينة مبنية فوق تل اصطناعي عال مسطح القمة . وهي تشغل اليوم الموقع الذي كانت تشغله القلعة سابقاً ، ويحيط بها سور عتيق .

ان التل المذكور اعلى بكثير من تل حلب ومن كل ما راينا في بلاد ما بين النهرين ، ويصعب الاقتناع انه من صنع بشر ، لو لم يوجد في هذه البقعة

---

(٣١) ورد ذكره سابقا في الهامش ٢٨ من الفصل السابق .

من آسيا عدد كبير من (هذه التلول) ، ولو لم يكن باديا للعيان بان التراب مجمّع من كل الاطراف في ارض مستوية . فانحدار التل شديد ومغطى بالاعشاب ، وفي الاسفل حفرة تكاد تكون مملوءة . اما القسم الآخر من المدينة فيقع في السهل ، جنوب التل .

لايبلغ سكان اربيل اليوم سوى الفي شخص ، جميعهم تقريبا من الاكراد والكلدان ولكن يبدو ان هذه المدينة كانت تشمل في الماضي رقعة اكبر ممتدة في السهل . نلاحظ فيها اليوم بعض الخرائب ، كما نشاهد على مسافة من المدينة برجا مربعا يبدو انه كان منارة من عهد الخلفاء . يقول نيبور انه شيدها سلطان اسمه مسافر (٣٢) ، وهي من الطابوق والجص ، ويصعد اليها بدرجين متقابلين .

تتبع اربيل باشوية بغداد . ولها سنجق (٣٣) ، وحامية قوية من الينكشرية ، تبعث القسطنطينية بهم .

قوشتبه ــ آلطون كوبري :

كانت السماء ممطرة النهار بطوله ، والريح غربية . سرنا ثماني ساعات ونصف ، ورأينا عند مرورنا بقوش تبه قرية ليست بذات شان . واجتزنا بعض تلول حصى وتراب ، مكسوة بالخضرة . ووصلنا قرية التون كوبري او جسر الذهب ، وهي مشيدة على صخر بين دفتي نهر ، الزاب الصغير او كابروس حسب الاقدمين (٣٤). ندخل القرية من جسر مبني على صخور قرميدية ، ونغادرها من جسر آخر ذي قوس عال وضخم جدا ، وقوسين آخرين صغيرين ، بحيث لا يمكن للخيول ان تتسلقه الا بصعوبة . وكان النهر قد ازداد كثيراً بسبب

(٣٢) Mussafer من سلالة مسافري التي ملكت في آذربيجان وارن وارمينيا .

(٣٣) سنجق قاطع عسكري ، وله آمر .
بشأن اربيل انظر : تراث اربيل التاريخي ، تأليف هادي رشيد الجاوشلي، ١٩٨٥ .

(٣٤) يسجله اوليفييه هكذا : Le Petit Zarb, Zarb. Caprus وقد سماه بطليموس : Capious .

الامطار وذوبان الثلوج ، حتى بدا لنا وكأنه السين (٣٥) شتاء .

وجبات الطعام :

نزلنا عند آغا القرية، وتناولنا العشاء مع اولاده، وقد قام بخدمتنا خدم بيته . وكان عشاؤنا مؤلفا من : صحن رز (٣٦) فيه قطع لحم خروف ، وصحفة كبيرة جدا من حليب غنم ، وصحن لبن ، او الحليب المختر . لم يكن لنا صحن خاص ، بحيث ان كل واحد يأكل من الصحن الكبير (٣٧) . طلبنا منهم ملاعق فأتونا بها ، وكانت من خشب ، فهم لا يعرفون غيرها في البلاد العثمانية وفارس. اما اولاد الاغا فكانوا يأكلون بايديهم . كانوا يخلطون الرز بشيء من شرائح اللحم او باللبن ، ويشربون الحليب بالتناوب . بعد ذلك قدموا لنا التبغ (٣٨) والقهوة .

هذا كان اكلنا طوال مدة السفر تقريباً ، وقد كان الرزّ عادة مطبوخاً بالسمن ، ولم يكن يقدّم إلا مساءً ، كما كانوا يقدمون لنا ايضاً صحن بيض ، لكنا حين اصبحنا في قرى ينمو فيها النخيل ، كانوا يقدمون لنا في جميع الوجبات اليومية تمرا مقليا بالبيض ، وكانوا يضيفون الرز مساء .

بعد ربع ساعة من العشاء ، جاء من قال لنا بان الاغا سوف يأتي ويقضي الامسية معنا ، فشكرناه على فضله واعتذرنا بسبب حاجتنا الى الراحة ، فاعفانا من الزيارة ، ولم يتأخر ابناؤه عن الانسحاب متمنين لنا سفرا سعيدا في اليوم التالي.

كركوك :

خيم ضباب في اليوم الثامن والعشرين لم ينكشف حتى الساعة الثامنة صباحا .

---

(٣٥) هو النهر الذي يقطع مدينة باريس ، وقد ورد ذكره .

(٣٦) وحرفيا : بلاو رز ، وبالفرنسية : Un pilau de riz وهو نوع من طبيخ الرز .

(٣٧) كما هي عادة اهالي الشرق عادة ، وهي خير دليل على الترابط العائلي المتين .

(٣٨) الغليون أو السبيل . pipe .

كانت الارض غير مستوية في بداية الامر ، وفيها شيءٌ من الحصى . ثم سرنا بعدها بين سلسلتين من التلال ، وكان السهل يمتد امامنا بحيث بدا لنا ان ثمه تسعة او عشرة اميال اخرى، لكننا ما لبثنا بعد ثلاث ساعات ونصف من السير ان استدرنا يمينا بزاوية حادة ، واجتزنا تلا مكونا من تراب وحصى. وقد شاهدنا آثار شيء من الملاط ، واسفل ذلك النفط يسيل في عدة اتجاهات . انهم يحفرون آبارا بعمق خمسة أقدام الى اثني عشر قدما ، ويستخرجون النفط يوميا، ويجمعونه، ويضعونه في قرب يحملونها على ظهور الحمير الى كركوك.

وقد قال لنا الراهب الذي كان يرافقنا (٣٩) ان على بعد فرسخ من الموضع باتجاه الجنوب الشرقي تمتد مسافة كبيرة ، يخرج منها لهيب احيانا . وذكر لنا الامر ذاته رجال البريد ايضا ، فعرضنا عليهم ان يطلعونا عليها لقاء مكافأة جيدة ، لكنهم رفضوا خشية العقاب ، اذ انهم بذلك يغيرون الطريق .

سرنا اكثر من ساعتين اخريين ، ثم وصلنا الى كركوك . فغادرنا الراهب لرؤية بعض الكلدان الذين كانت تربطه بهم علاقة ، وسبقه الدليل (٤٠) الذي كان عليه ان يسلّم الى المتسلّم (٤١) رسالة من باشا الموصل وليسأله دليلاً آخر يرافقنا حتى بغداد .

لم نتوقف في كركوك . وبعد انقطعنا فرسخاً ، وصلنا قرية اسمها تسعين لهاتين البلدتين ارض خصبة تروي، تقع الاخيرة في سهل، بينما تقع كركوك، كاربيل ، على تل اصطناعي وسط سهل كبير ، يحيطها كالاخرى ، سور

(٣٩) انه رئيس الكرمليين الذي ورد ذكره سابقا في الهامش ٣ من الفصل الاول .

(٤٠) انه tchocadar وقد ورد ذكره في الهامش ٢ من هذا الفصل والهامش ٣٧ من الفصل السابق .

(٤١) المتسلّم هو حاكم المدينة نيابة عن الوالي ، انظر الهامش ٩ من الفصل الاول .

للدفاع عنها ، ولها حامية قوية من الينكجرية . يعين لها باشا بغداد متسلماً . ويقع جزء من المدينة عند اسفل التل .

اعتبرت كركوك مـدة طويلة ضمن باشوية شهرزور ، ثم صار لها باشا ذو طوغين (٤٢) اما اليوم فان شهرزور ، وجميع (الاراضي الواقعة) شرقي دجلة ، اعتباراً من الزاب الكبير وحتى كردستان ، منوطة بباشوية بغداد ، وليس لكركوك سوى متسلم يوليه الباشا المذكور (٤٣) .

يبدو لنا أن هذه المدينة تحتل موقع مدينة مينيس القديمة (٤٤) . واليك ما نبني عليه ظننا : يقول كوينتش كورسيس بان الاسكندر حين سعى مع عساكره وهو في طريقه الى بابل ، وصل خلال اربعة ايام من اربيلا الى مينيس ، وهي مدينة شهيرة بمغارة ينزل منها كمية كبيرة من القار ، يظن الناس تقليديا بان اسوار بابل مطليـة به . والناس يستخرجون فعلا القار في ضواحي كركوك ، كما ذكرنا اعلاه.وقد قطعنا المسافة من اربيل الى كركوك بمدة خمس ساعات ، ممتطين خيول بريد . وتقع المدينة الاولى على درجة ٣٦ و ١١ دقيقة ، والثانية على درجة ٣٥ و ٣٩ ، وهذا ما يدل على ان المسافة بينهما عشرون فرسخاً على الاقل ، اي اربـعة ايام بمسيرة للعسـاكر . لـم نلق في الاطراف اطلالا ولا موقع مدينة اكثر اهمية من كركوك ، كمـا ان هـذا التـل المرفوع بنفقات باهظة فـوق ارض سهلة لم يتـم تكوينه في الماضي الا لغرض تشييـد مدينة مهمة عليه .

وسيلة التدفئة والانارة :

منذ رحيلنا من الموصل لم نستخدم للانارة سوى النفط . انهم يصنعون لهذا الغرض فتائل كبيرة من القطن ، ويضعونها مع هذا القار السائل في اناء طيني له رأس منقار(٤٥) . ان رائحة هذا الضياء المنتشر في غرفة لا تحتمل ، اذ

---

(٤٢) أي مير ميران أو أمير الامراء .
(٤٣) والي بغـداد .
(٤٤) Mennis
(٤٥) والظهر مفتوح بفتحة دائرية ، وهي آنية تراثية الشكل .

لم ينتبهوا الى صنع نوع من المدخنة في الحائط ، تسهل خروج الدخان والرائحة . كما انهم يصنعون من فضلات البقر والتبن الهش اقراصا تغمس في القار (٤٦) ، يستخدمونها لانارة الفناء او لطبخ الطعام . كما يصنعون كذلك مشاعل من قطن قديم مشبع جدا بالنفط للاستنارة في الطرقات .

جاءنا الدليل الجديد بدلاً من صاحبه الذي رافقنا من الموصل ، مساء اليوم عينه ونحن في تسعين ، كما قدم ايضاً الراهب في ساعة مبكرة ، الامر الذي سهل لنا مواصلة طريقنا في اليوم التالي .

داقوق :

بعد ساعة ونصف من مغادرتنا تسعين ، اجتزنا بمعبر نهرا صغيراً بالقرب من قرية صغيرة محاطة بالبساتين وبعض الاشجار المثمرة . ثم وصلنا داقوق (٤٧) بعد ست ساعات ونصف من المسير .

وداقوق محاطة ببساتين مزروعة بالنخيل والليمون والتين والتوت والمشمش والاجاص والرمان . وقد رأينا بين هذه الاشجار قليلاً من الزيتون . وهي أول قرية رأينا فيها النخيل بكثرة ، وفيها ينضج التمر جيداً .

وفي الثلاثين من الشهر ، وعلى بعد فرسخ من داقوق ، عبرنا مجرى ماء لابأس به ، مؤشر باسم دوس على خارطة نيبور ، بينما هو تورناتوس او اودورنيج في معظم الخرائط (٤٨) . انه كوركس بالنسبة لبطليموس ، والفيسكس الذي نلقى اشارة عنه لدى زينيفون (٤٩) .

---

(٤٦) انها اقراص مدورة مختلفة الحجوم ، يبلغ قطر القرص الواحد عادة نحو عشرين أو ثلاثين سنتيمتراً .

(٤٧) يكتبها اوليفييه : Taouk, Daouk وتعرف أيضا بتسمية (طاووق) .

(٤٨) وردت هكذا : Dus Tornatu, Odorneh او طوزخورماتو .

(٤٩) Gorgus - Physcus وقد ورد ذلك لدى زينيفون ، الكتاب ٢ ، الفصل ٤ .

وبعد ثلاثة فراسخ ونصف عبرنا مجرى آخـــر يكاد يكون عديم الماء . ووصلنا بعد ست ساعات من المسير الى طوز خورمال(٥٠) ، وهي قرية محاطة ببساتين كسابقتها . وكان يحاذينا في ذلك النهار على بعد نصف فرسخ جبل شاهق العلو . اما السهل فيمتد بانحراف خفيف جهة اليمين ، وهو أقل خصوبة من السهـــول التي رأيناها حتى الآن . ويصنع سكان خورمال يعصـــرون الخمرة ، ويبيعوها الى مسيحيي بغداد .

زرنا مساء اطلالا قريبة من القرية ، لايتعدى تاريخها عهد الخلفاء مايزال شاخصاً فيها برج طابوق شبيه ببرج اربيل . لقد كان فيما سلف منارة جامع . ولقينا على مسافة قليلة من ذلك باب المدينة القديمة ، مازال قائماً بشكل جيد ، مشيداً بالطابوق ، وليس فيه مايذكر . يبدو ان المدينة قديماً كانت واسعة جداً ، اما قرية اليوم فصغيرة جداً (٥١) .

كفري :

سرنا في الاول من فلوريال (٥٢) (٢١ نيســـان) ست ساعات ونصفاً للوصول الى كفري . وبعد فرسخ من طوز حرمل عبرنا جدولاً يستخدم لسقي بساتين المدينة والحقول المجاورة . وعند نصف الطريق قال لنا رجال البريد انهم يستخرجون النفط من الجبل الممتد على يسارنا ، والذي سرنا بمحاذاته منذ العشية . لاحظنا بعض آثار الجبس ، فقيل لنا ان ثمة كميات كبيرة منه في الجبل . وكانت الارض تحتنا يابسة وصخرية وتصلح للزراعة قليـــلاً .

نزلنا في كفري عند اغا المدينة الذي سالنا اكرامية . ولم يكن لنا شيء

---

(٥٠) يسجلها اوليفييه هكذا : Dus - Hormal .

(٥١) يسود الاعتقاد فعلا بأن داقوق أو طاووق مبنية بجوار بلدة أثرية قديمة .

(٥٢) Floréal الشهر الثامن من التقويم الجمهوري الفرنسي ، يبدأ في ٢٠ – ٢١ نيسان ، وينتهي في ١٩ – ٢٠ ايار ومعناه الازهار .

نقدمه له ، ولم يكن له أي حق علينا ، لان البريد في الدولة العثمانية مجاني كتعويض عن ضريبة . ولا يشارك في البريد سوى عمال الحكومة ، او اشخاص يتمتعون بحماية خاصة من قبل الباشوات . وقد يسمح هؤلاء لبعض التجار أحياناً ان ينضموا الى التتار الذين يرسلونهم ، وفي هذه الحالة لايدفع التجار الا للتتاري ، كما ندفع نحن ايضاً للساعي . لذا أجبنا الاغا انه ليس معنا مابوسعنا ان نقدمه له ، فلما بلغه جوابنا جاء الينا بنفسه ، ولابدّ أنه ظن بأن حضوره سيضطرنا على تقديم شيء ما . وحالما واجهناه اعلمنا بلهجة آمر انه علينا ان نقدم فوراً هدية ما تليق بمقامه ، فقلنا له اننـا لانملك مانقدمه لكم ونحن لسنا مدينين لكم بشيء . فألح الاغا ، بل بدا وكأنه يهددنا ، لكننا اصررنا على الرفض. فقال لنا عندئذ انه لن يعطينا جياداً ، فقلنا : حسناً سننتظر هنا عودة الساعي الذي نرسله الى باشا بغداد ،إذ لنا رسائل من قبل الوزير الاكبر(الصدر الاعظم) وقـد اثمر هذا التهديد النتيجة التي كنا نتوقعها ، إذ طلب الاغـا المعذرة ، واحتج بأنه ظن اننـا من مسيحيي الامبراطورية ، وسألنا ان لا نذكر مطلبه هذا امام الباشا ، وعاملنا بلطف أكثر مما لو لم يكن قد وقع لنا هذا الحادث .

قره‌تبـه :

سرنا في اليوم الثاني من الشهر (٢٢ نيسان) ست ساعات . تركنا خلفنا الجبل الذي حاذيناه خلال يومين . وبعـد مسيرة خمس ساعات في سهل مزروع اجتزنا تلا ذا ارض رديئة وصخرية ، ثم عبرنا منخفضاً خفيفاً الى قرية قره ــ تبه . تسقيها مياه غزيرة يجلبونها ، حسبما قيل لنـا ، من نهر عاينا ان نعبره في اليوم التالي . هذه البلدة مبنية بنوع افضل ، ويبدو ان سكانها بخير افضـل من غيرهم . وهي محاطة ببساتين مزروعة بالنخيل وباشجار مثمرة اخرى .

في الثالث منه ، وبعد سبع ساعات من السير وصلنا الى خان دلي عباس الواقع على نهر يسمى الخالص . نظن بان النهر هذا ليس سوى قناة تأخذ من ديالى ، وقاعه عميق . وسهل قره تبه اكثر من ثلاثة فراسخ ، بعد ان قطعناها اجتزنا سلسلة تلول مكونة من حصى ورمل وتراب ، يبدو اسفلها حجر المِسَنّ في اكثر من موضع . وقد وجدنا في ذاك الموضع نباتات نادرة وغريبة اكثر من اي موضع آخر ، وذلك منذ مغادرتنا الموصل .

الخالص :

وفي الرابع من الشهر (٢٤ نيسان) سرنا مسافة اثنتي عشرة ساعة للوصول الى الخالص . وعقيب مغادرتنا دلي عباس عبرنا (نهر) الخالص على جسر ، ثم قطعنا سهولا قاحلة غير مزروعة ولكن في الامكان ربها . وبعد ثلاث ساعات عبرنا نهرا ثانيا اصغر من السابق ، عبر جسر آخر ، ولعله قناة اخرى. استرحنا قليلا في خان ، ووصلنا اخيرا الى سهل فسيح حيث تقوم في جميع الاتجاهات صفوف نخيل ، خير دليل على عدد المنازل .

يتبع سكان الخالص المذهب الجعفري ، والقرية غير واسعة وهي محاطة ببساتين مزروعة كلها تقريبا بالنخيل . ويزرع الاهالي في ضواحيها في حقول مروية ، القطن والسمسم والخروع وجميع انواع الحبوب الاعتيادية . منذ عدة ايام نرى العديد من الدراج والخضار والشقراق (٥٣) .

الاراضي التي قطعناها بعد خان دلي عباس هي اراض رسوبية كانت كلها ترويها سابقا قنوات تستمدّ مياهها من ديالى ، الا ان صيانتها قد اهملت .

وفي الخامس من الشهر سرنا ثماني ساعات حتى وصلنا الى بغداد.وقد اضطررنا على الاستدارة الى الشمال والابتعاد عن دجلة ، لأنه اغرق قسما من الاراضي الواقعة على الطريق ، الامر الذي اطال مسيرتنا ساعة او ساعتين.

---

(٥٣) وردت أسماء هذه الطيور في الاصل : francolins, guêpiers, rolliers

الفصل الرابع (*)

وصف بغداد . تاريخ تأسيسها . ازدهارها الحضاري قديماً ، وهي تشغل ضفتي دجلة في عهد الخلفاء العباسيين . دمرها التتار ، فانحسرت الى الضفة الشرقية . اخلاق الاهالي وعاداتهم . السكان ، الطقس وطيب المناخ .

موقـع بغـداد :

تقع بغداد في سهل على الضفة اليمنى من دجلة ، بدرجة ٣٣ و ٢٠ دقيقة من الارتفاع الشمالي . هذا وفق مشاهدات نيبور (١) ، بينما يضع بوشامب (٢) لهذه المدينة دقيقة أخرى أكثر الى الجنوب . ويبدو أن الذي رسم خططها ، عين لها أقل من الفي خطوة هندسية طولاً ، وأقل من الف عرضاً ، غير انها لاتقتصر على هذه المساحة وحدها .

نشاهد اليوم على الضفة الغربية ضاحية مكتظة بالسكان تمتد باتجاه الشمال الغربي ولا تنتهي الا بخرائب مايظن انها بغداد القديمة (٣) .

الخنـدق والسـور :

والمدينة محاطة بخندق واسع وعميق تحميه اسوار من طابوق عالية

(*) انه الفصل الثاني عشر من المجلد الثاني من الرحلة .

(١) كارستن نيبور ، جاء ذكره في الهامش ٤١ من الفصل الاول . ويقصد بالعرب الجغرافيين والمؤرخين العرب .

(٢) بوشامب هو Abbé Joseph de Beauchamps رحالة فرنسي زار العراق عام ١٧٨٣ واسهب في وصف مدينة بغداد ، ونشر مشاهداته تحت عنوان (مشاهدات في آسيا Observations faites en Asie في عدد شهري حزيران وتموز ١٧٨٤ في المجلة الباريسية Journal des Savants

(٣) انظر مصطفى جواد واحمد سوسه ، دليل خارطة بغداد قديما وحديثا ، بغداد ١٩٥٨ . وراجع ما نشره المجمع العلمي العراقي مؤخراً لآدمز ، شتريك ومقدسي والعلي .

جداً ، جيدة الصيانة (٤) . وهذا السور المشيد على الطريقة المسماه بالفارسية (٥) سميك جداً في الاسفل ، ثم يضيق في الاتجاهين الصاعدين ، كما انه مثقب بكوى صغيرة تمكن (الجنود) من اطلاق النار على العدو الذي يدنو منه . وللغرض عينه ، كما ثمة عدد كبير من الابراج المتقاربة ، لحماية الخندق ، بعضها أكبر من الاخرى ، وتنتهي بسطح وضع عليه مدفعان او ثلاثة . لايستمر السور بامتداد النهر ، كما في معظم المدن العثمانيّة ، لان البيوت مبنيّـة حتى حافة الماء .

ويقوم سراي الباشا (٦) في زاوية المدينة العليا او الغربية ، وهو واسع المساحة بسبب تعدد ساحاته وسكنى الحرس الكثيري العدد الذي يحمي المدينة .

يرى فيها ايضاً ، من جهة النهر ، مايشبه القلعة ، لاتصلح الا لخزن الاسلحة والبارود . وثمة ساحة كبيرة ، تقع بين السور والبيوت ، شرقاً وجنوباً ، لان امتـداد الاسوار هو أكثر من الفين طـولاً ، وأكثر من الف عرضاً (خطوة هندسية) .

الابـواب والجسـر :

كانت لبغداد سابقاً اربعة ابواب من جهة الحقول ، لم يبق منها اليوم سوى ثلاثة ، لان السلطان مراد (٧) الذي استولى على المدينة وطرد الفرس ، دخل من الباب الجنوبي الشرقي ، فاوعز بسده لكي لايدخل أحد منه بعده .

---

(٤) انظر د. خالص الاشعب ، مدينة بغداد ، نموها ، بنيتها ، تخطيطها ، الموسوعة الصغيرة ١٠٨ ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ٢٨ ــ ٣١ . ومحمد رؤوف السيد طه الشيخلي ، المعجم الجغرافي لمدينة بغداد القديمة ، مطبعة البصرة ١٩٧٧ . وبغداد مدينة المنصور المدورة لطاهر مظفر العميد ، بغداد ١٩٦٧ .

(٥) هكذا يدعوها اوليفييه خطأً ، وهي طريقة عراقية قديمة في الاصل .

(٦) مقر الوالي الرسمي . Sérail du Pacha .

(٧) السلطان مـراد الرابـع Sultan Amurat (١٦١٢ ــ ١٦٤٠) . وانظر الهامش ٢٣ .

وليس للمدينة الا باب واحد من طرف دجلة ، يقود الى جسر قوارب لا يسحبونه الا ابان الفيضانات الكبرى ، وهو مكوّن عادة من ثلاثين قارباً مربوطة بسلاسل قوية، يزاد عددها بمقدار ارتفاع المياه . وبما انها غير مثبتة بمرساة ، لذا يكون الجسر معرضاً للانكسار ، فيجرف التيار القوارب متى كان الفيضان شديداً وفجائياً او عند هبوب ريح شمالية او شمالية شرقية ، وحتى اذا كانت المياه عالية وعصف الرياح شديداً من الجنوب الى الجنوب الشرقي ، فانها تحرك المياه عندئذ بقوة .

حادثة انكســار الجســر :

لقد سكنا عند عودتنا من بلاد فارس في بيت مطل على دجلة (٨) ، وانكسر الجسر في شهر جرمنال (٩) بسبب فيضان مباغت . وكانت الريح آنذاك باتجاه الجنوب ، والحرارة مرتفعة نوعاً ما . كانت الريح باتجاه الغرب خلال الأيام السابقة ، ومن المحتمل انها سببت أمطاراً شديدة في المجرى الاعلى للنهر . اما في بغداد فقد سقط منها القليل .

وساعة تكسر السلاسل وانجراف القوارب ، كان ثمة قارب يقطع النهر فانقلب وفيه عشرة او اثنا عشر اعرابياً انقذوا انفسهم سباحة . ومن بينهم إمرأة كانت تمسك بين ذراعيها طفلاً عمره سنة . ولعل المفاجأة والحركة واهتزاز القارب وهيجانه ، بل قانون الطبيعة الذي يحملنا رغم ارادتنا وقبل ان نفكر بابعاد الخطر عنا ، ويشجعنا على التخلص منه ، كل ذلك جعل هذه المرأة تقارع بشكل لا إرادي ، فتندفع نحو الضفة . ثم كان الحنان الامومي ، لذا رأيناها تعود فوراً تقارع الامواج طويلاً ، باحثة عن

---

(٨) في بغداد . ورحالتنا يجمع الاحداث والمشاهدات في رحلته كلها ، وفقا للموضوع والمكان ، غير متقيد بزمن وقوعها دائما ، فهي ليست يوميات ، بل وصف رحلة ، كما ذكرنا في المقدمة .

(٩) شهر Germinal هو الشهر السابع من شهور الجمهورية الفرنسية ، يبدأ في ٢١ أو ٢٢ آذار ، وينتهي في ١٩ أو ٢٠ نيسان .

طفلها في جميع الاتجاهات ، ولما لمحته ضاعفت مجهودها وتمكنت من امساكه بيد واحدة وانقاذه ، سابحة بالاخرى . وقد جاء بعض الاعراب لنجدتها ، غير ان الرضى الذي اختزنته في اعماقها كان يشد عزمها ويجعل مساعدتهم لها دون جدوى . لذلك لم تقبل ان تعهد بكنزها الى أحد ، وحسناً فعلت ، فهل كان بوسعها ان تقتنع بأنه سيكون في مأمن في أيدي آخرين أكثر مما بين يديها ؟

الضاحية :

ليست الضاحية محصنة كالمدينة ، لكنها محاطة بخندق صغير وسور بسيط يحيطانها ويؤمناها ضد أية هجمة . وقد شيد الباشا الذي يحكم اليوم(١٠) بعض الابراج ووضع فيها مدفعاً .

البيوت :

ان هذه المدينة (بغداد) كما تبدو ليست كبيرة ولا آهلة بالسكان كحلب. والبيوت ليست عالية ولا مبنية بشكل متين ، ومظهرها عادة بسيط من الخارج ، وفيها قليل من الشبابيك ، وليس فيها سوى طابقين ، وهي مرتبة كلها تقريباً على شكل مربع حول فناء صغير مزروع فيه نبقة أو نبقتان ونخلتان او ثلاث .

ولبيوت الأغنياء فناء ثان يستخدم كحديقة ، ومجموعة سكنية ثانية مخصصة للنساء يقيم الحريم فيها ، ولا يستطيع أي رجل الدخول الا السيد او الرئيس الذي بيده المفاتيح ، وفي هذا القسم من البيت بخاصة لايفتحون أي شباك مطل على الطريق .

ومن غرف المجموعة السكنية الاولى والثانية نجد غرفة في الطابق الاول اكبر اتساعا من بقية الغرف ، مفتوحة تماما الى جهة الشمال او الى الشمال الشرقي ومفروشة للجلوس لانها قاعة الجلوس او الديوان ، يقضون فيها

---

(١٠) انه سليمان باشا الذي سيأتي الكلام عنه بعد قليل .

قسما من النهار في جميع المواسم .

اما في الصيف فمنذ الساعة الحادية عشرة صباحا وحتى غروب الشمس ينزلون الى السرداب(١١) . وهو نوع من قبو واسع مقبب جيدا ومزين نوعاما، محفور بعمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض لا يحس المرء فيه الا بدرجة ٢٥ او ٢٦ مئوية ، بينما تصل حرارة الغرف الى ٣٤ او ٣٥ مئوية. ولهذه السراديب منافذ هوائية تصل ، كما بالنسبة لمداخننا، الى الجزء الاعلى من البيت ، وتعمل على تجديد الهواء مساء وصباحا ، وذلك بفضل شبابيك صغيرة .

الاســـواق :

لبغداد مظهر شرقي اكثر مما لأية مدينة عثمانية (١٢) ، ففيها عدد كبير من الاسواق والمتاجر المخصصة للتجار والعمال . والاسواق هي الطرق الرئيسة للمدينة ، تضفي عليها اجمل زينتها،وهي جيدة التسقيف ، كما انها واسعة ومرتبة جيدا والسقف عال جدا ومشيد بالطابوق وقد جعلت فيه فتحات ينفذ منها ضياء كاف ، وكأنه وضح النهار ، كما يتمنى ذلك تجار كل البلاد . والدكاكين مرصوفة على الجانبين ، يجلس فيها التجار ويبسطون بضائعهم .

يصل المرء الى داخل الدكان عبر مجاز عرضه قدمان او ثلاثة بحيث لايبقى للسابلة وسط السوق سوى عشرة اقدام او اثنى عشر وحتى الخمسة عشر قدما .

تغلق الدكاكين ليلا ، وبوسع التاجر ان يخلد الى النوم في مكان آخر وهو مطمئن البال دون ان يخشى السرقة حتى ولو كان باب دكانه غير

(١١) يسجله اوليفييه كما هو : Serdap . ويطلق على الهوائية التي يصفها (ادكير) في بغداد و (زنبور) في الموصل .

(١٢) يقع اوليفييه في الخطأ عينه ، فينعت الطراز القديم بفارسي تارة ، وتركي كما في وصفه هذا ، بينما الصحيح انها ريازة عراقية أصيلة ترجع الى حضارة وادي الرافدين ، وعنها أخذ الفرس والاتراك وطوروها .

موصد بشكل جيد ، او انه قد ترك فيه بضائع ثمينة جدا .

اما باقي اقسام المدينة فقذرة وموحلة في الشتاء ، وتعج بالتراب صيفا ، والازقة ضيقة واقل ازدحاماً من الاسواق . وحين يريد السكان التنقل الى مسافات بعيدة سواء على الاقدام او على الجياد ، فان الحظ يحالفهم عبر الاسواق ، اذ انهم يكونون فيها في حمىً من الشمس والرياح والامطار ، فالمناخ فيها اقل حرارة بكثير مما هو في الازقّة ، كما تكون العين قريرة بسبب تنوع السلع المعروضة .

تاسيس بغـــداد :

تأسست هذه المدينة سنة ١٤٥ هجرية ، اي سنة ٧٦٢ للميلاد ، اسسها ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني الذي لم يرغب بالاقامة في الكوفة بسبب المشاكل الدينية (١٣) . واستقر رأيه على تشييد مدينة جديدة يجعل منها مقرا للخلافة . ولهذا الغرض نقل مقره ثلاثين فرسخا الى شمال الكوفة ، على الضفة الغربية من دجلة ، وشيد مدينته بالمواد التي زودته بها بابل وساليق وطيسفون (١٤) . وقد صرف أكثر من اربعة ملايين قطعة ذهبية على هذا المشروع الذي نجح فيه وفق رغائبه ، لان عدداً كبيرا من الاشخاص هرعوا من شتى انحاء العراق وسوريا وكل بلاد ما بين النهرين وفارس لكي يقيموا في المدينة الجديدة التي كانت تقدم لهم كل المؤهلات الحسنة من موقع لطيف ومناخ طيب وارض خصبة . وقد سماها المنصور مدينة او دار السلام (١٥) . غير ان اسم بغداد الذي

---

(١٣) ينسب الرحالة هذه المشاكل الى أحفاد العلويين .

(١٤) بابل عاصمة الدولة البابلية ، من عظمائها حمورابي ونبوخذنصر ، أما ساليق فعاصمة السلوقيين ، وساليق وطيسفون مشتى الفرثيين والساسانيين ، وفي الاخيرة الايوان الشهير ، في موقع سلمان باك .

(١٥) يخطىء اوليفييه فيكتبها بشكلين : دار الساني ودار السلام :
Dar - al - Sani/Dar al - Salam

كان يطلق على الموقع سابقا ، غلب عليها وظل يستعمل دون تغيير حتى ايامنا .

وبعد زمن وجيز اضحى ما اقامه المهدي ابن المنصور على الضفة اليمنى (من دجلة) مدينة ثانية سميت الرصافة ، عرفت ، كالمدينة الغربية ، اتساعا منذ احاطتها بسور للصمود في وجه الفرس وهجماتهم .

وكان للخليفة قصر في كل من هاتين المدينتين اللتين ما لبثتا ان شكلتا مدينة واحدة ، فلم تعرفا الا باسم واحد .

بغداد في أوج المجـــد :

تألق نجم بغداد خلال خمسة قرون بشكل لم تبلغه أية مدينة من مدن الامبراطورية العثمانية . ولم تبلغ شأو بغداد في زمن العباسيين مدينة لا دمشق التي كانت المقر الاعتيادي للخلفـــاء الامويين ، ولا القـــاهرة التي حاول السودانيون وخلفاء مصر (١٦) ان يكثروا اهاليها وجمالها ، ولا فارس حيث وضع فيها سلاطنة الاتراك كرسي امبراطوريتهم في اول الامر ، ولا القسطنطينية نفسها رغم موقعها البديع وبنائها ، مناخها الطيب ، ولا أية مدينة اسلامية كانت مزدهرة وغنية وآهلة بالسكان وتجارية مثلها ، فقد كان من نصيبها ان ترث بابل وساليق وطيسفون ، كما اصبحت فترة من الزمن مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب وعاصمة من أعظم عواصم الامبراطوريات التي قامت حتى ذلك العهد .

يقول المؤرخون العرب انها كانت مزدانة بقصور منيفة وجوامع فخمة وخانات واسعة وعدد كبير من الحمامات العامة . وكانت المحلات التجارية تعرض كل فاخر ونفيس تنتجه الهند وافريقيا وآسيا ، وكل ما في اوربا من منتوجات مفيدة . غير ان هذه الاشراقة ماعتمت ان اختفت فجأة ، عام ٦٥٦ هـ في عهد الخليفة المستعصم بالله .

(١٦) يقصد الفاطميين على الارجح الذين تولوا مصر نحو ثلاثة قرون .

نكبة بغداد :

تقدم التتر المغول بغتة نحو بغداد بقيادة هولاكو خان، حفيد جنكيزخان(١٧) وذلك بالاتفاق مع الوزير ابن العلقمي، فسحقوا الجيش الضعيف الذي حشده الخليفة لمواجهتهم، ودخلوا المدينة وارتكبوا خلال اربعين يوماً كل المنكرات التي ينساق اليها دوماً أي عسكر غير نظامي جاهل وهمجي .

تأمل كيف يعبرّ عن ذلك كاتب عربي ، هو ابن يوسف الحنبلي في كتابه تاريخ الخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر ، واني احتفظ خطياً بالاصل والترجمة . وسيبان في تضاعيف تعابيره المتطرفة الى أي درجة كانت بغداد قد بلغت زخماً من السكان وترف الحياة . يقول :

« لقد كان الخليفة المستعصم بالله ضعيف الروح ، وكثيراً ماكان سلوكه مذموماً . وحكم سبع عشرة سنة حتى قتله التتار . فرأت بغداد آنذاك اراقة دماء مايوني شخص من اهاليها ، وخربت بيوتها وجوامعها ، والقيت الكتب المقدسة في دجلة .

لقد كان في هذه المدينة يومذاك اثنا عشر الف خان ضمن اسوارها ، واثنا عشر ألف رحى ، واربعة وعشرون الف سوق ، وستون الف حمام ، واربعة وعشرون الف مدرسة ، ومائة الف جامع ، من بينها مسجد الرصافة الشهير الذي كان يتسع لمائة الف رجل . وقد كان يقتضي ثلاثة أيام وثلاث ليال للتطواف حول اسوار هذه المدينة ، كما كان عرض الاسوار كبيراً بحيث ان ستين فارساً يتمكنون من السير على الواجهة » (١٨) .

وظلت بغداد تحت حكم المغول حتى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٢م) حين استولى

---

(١٧) انهم المغول أو التتار ، بقيادة جنكيزخان الذي اخضع بلاد فارس ، ثم بزعامة حفيده هولاكو الذي غزا بغداد وانهى حكم العباسيين فيها سنة ١٢٥٨م وقضوا بذلك على معالم الحضارة والتقدم .

(١٨) لقد ترجمنا هذا النص عن الفرنسية ، كما جاء في الرحلة ، لمزيد من الامانة في نقل ما كان بين يدي رحالتنا حسبما يذكره هو .

عليها تيمورلنك للمرة الاولى في عهد السلطان احمد (١٩) ، ثم سنة ٨٢٣ للمرة الثانية في عهد السلطان عينه الذي كان قد دخلها ، لكن تيمور لنك سلمها اليه ، فاحتفظ بها احمد حتى طرده ميران شاه بن تيمورلنك . وانتزعها التركماني قـــره يوسف من يد ابي بكر بن ميران شـــاه ، واحتفظ بهـا لنفســـه ولخلفائه ، حتى سيطر عليها اوزون حسن عام ٨٧٥ هـ ، وهو امير تركماني آخر . وتولى امراء هذه العائلة بغداد حتى سنة ٩١٤ هـ اذ انتزعها منهم شاه اسماعيل ملك فارس . وتقدم الاتراك بقيادة سليمان الاول ووصلوا بغداد سنة ٩٤١هـ ، واستولوا عليها دون مقاومة (٢٠) . غير ان الشاه عباس ملك فارس أستردها من الاتراك سنة ١٦١٦ م ، ثم جاء مراد الرابع لمنازلته شخصياً عام ١٦٣٨ ، وأخذها بعد حصار ستة وثلاثين يوماً ، واعدم أكثر من ثلاثين الف فارسي كانوا قد ألقوا السلاح بعد موت زعيمهم ، مع انه وعدهم رسمياً بأنه لن يمس حياتهم ولاحريتهم بأذى (٢١) .

آثــار بغـــداد :

كانت بغداد حين دمر التتار بغداد تقع على ضفتي في النهر ، ومنذ يومذاك تحول مركز الثقل الى مصر ، فلم تعد بغداد تضم سوى جزء يسير من سكانها السابقين ، ولم يعد في الامكان تشخيص القسم الغربي منها ، بينما اصبح القسم الآخر محصوراً ضمن مسافة ضيقة . واستعادت هذه المدينة بعض عزها في عهد الصفويين ، لانها كانت محطة تجارة تربط

(١٩) انه احمد جلاير أو الجلائري . تولى الحكم في بغداد ثلاثا ما بين ســـنة ١٣٨٢ و ١٤١٠ م .

(٢٠) انه سليمان الاول القانوني السلطان العثماني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦ م) .

(٢١) مراد الرابع (١٦١٢ ــ ١٦٤٠) سابع عشر سلاطين بني عثمان ، سار الى الحــرب بنفسه . أما شـــاه عباس فهـو الملك الصفوي الملقب بالكبير (١٥٥٧ ــ ١٦٢٨ م) .

فارس بسوريا وبابل وأقسام من الجزيرة العربية . كما ان بغداد كانت مركز اتصـــال بين فارس ومكة . وعبر بغـــداد ايضـــاً كان يمر الوافدون لزيارة ضريحي علي والحسين (رضي الله عنهما) (٢٤) . الا ان هذه المدينة منذ وقوعها تحت حكم العثمانيين ، ولا سيما منذ ان قتل (السلطان) مراد ثلاثين الف فارسي وفرض ضرائب باهظة على جميع السكان ، تناقص سكانها بسرعة ، ولم تعد بغداد لفترة طويلة سوى قرية كبيرة شبه مقفرة . فلم يلق فيها تافرنييه سنة ١٦٥٦ سوى خمسة عشر الف شخص ، رغم اننا نرى بأن امتدادها يشبه ماهي عليه اليوم ، حسب الخارطة التي رسمها (٢٥) .

كانت بغداد تمتد ايام العباسيين حتى الى مشهد الامام موسى (الكاظم) من جهة ، والى الامام الاعظم من الجهة الاخرى . ومازلنا نرى قرب الاسوار الحالية باتجاه جسر القوارب مدرسةقد تحولت الى خان مشيدة منذ سنة ٦٣٠ هجرية كما نشاهد جامعا مشيدا سنة ٦٣٣ هـ . والمدرسة (٢٦) والجامع شيّدهما الخليفة المستنصر بالله ، ٢٣ و ٢٦ سنة قبل غزو بغداد وتدميرها من قبل التتار . وفي الضاحية الواقعة غربي النهر نرى كذلك خرائب وبناية نجد عليها كتابة عربية متضررة جدا تحمل تاريخ سنة ٥٣٤ هـ (٢٧) . وفي الجانب عينه ، وعلى بعد اربع عشرة او ست عشرة ياردة (٢٨) من دجلة ،

---

(٢٢) في النجف الاشرف وكربلاء جنوب العراق .

(٢٣) G. B. Tavernier تافرنييه رحالة فرنسي ، قام برحلة الى العراق عام ١٦٤٤ ، وقد نقل ذلك الاستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد تحت عنوان : العراق في القرن السابع عشر ، بغداد ١٩٤١ . راجع الهامش ٣٩ من الفصل الأول .

(٢٤) انها المدرسة المستنصرية الشهيرة التي انشأها الخليفة العباسي المستنصر بالله في الجانب الشرقي من بغداد ، على ضفة دجلة اليسرى ، سـنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م . وقد اعيد ترميمها .

(٢٥) الارجح انه القصر العباسي الذي أعيد بناؤه مؤخراً .

(٢٦) جاء في الاصل استعمال مقياس toise وهو قياس قديم مقداره ستة أقدام ، ففضلنا تحويله الى الياردة ، وأجرينا التعديل الحسابي اللازم .

نشاهد برجا صغيرا وضع فيه عام ٢١٦ هـ جثمان (الست) زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد . كما نشاهد قبورا اخرى مختلفة يبدو انها كانت كلها ضمن اسوار بغداد القديمة . ثم ان الحفريات التي تجري في هذه الارض لاستخراج الطابوق ومواد اخرى للبناء تشهد بان المدينة القديمة كانت تمتد في هذا الاتجاه الى حد ميلين من النهر ، وبامتداد ثلاثة او اربعة اميال .

لقد قرأ السيد نيبور(٢٩)على واجهة باب المدينة ، كتابة يبدو منها أن الخليفة الناصر قد اكمل بناءه سنة ٦١٨ هـ (٣٠) ، ويعني ذلك انه لم يكن لبغداد قبل خرابها العرض الذي نلقاه اليوم في الاتجاه المذكور . ولكن بما ان الاسوار هي أحدث في جزئها الاعلى ، فبوسع المدينة ، كما قلنا ، ان تمتد اكثر على طول النهر وتستمر حتى مشهد الامام الاعظم ، بحيث تبلغ تقريبا سبعة الاف ياردة .

ومشهد الامام الاعظم هي القرية الواقعة على بعد نصف فرسخ الى الشمال الغربي من بغداد ، على الضفة الشرقية من دجلة وهي تسمّى المعظم ، وقد اعطي لها الاسم الثاني نسبة الى المسجد الذى دفن فيه ابو حنيفة ،احد علماء الاسلام والملقب بالاعظم (٣١) ، ويتبع مذهبه غالبية اتراك الامبراطورية العثمانية .

وعلى الجانب الاخر من دجلة ، على بعد فرسخ من بغداد وربع فرسخ من النهر ، تقع ضاحية موسى الكاظم المسماة ايضا باسم الجامع الذي يضم

---

(٢٧) بشأن الرحالة العالم نيبور انظر الهامش ٣٩من الفصل الاول .

(٢٨) هو صلاح الدين ابو المظفر يوسف الملك (١٢٣٠ ـ ١٢٦١ م) ، قتله هولاكو .

(٢٩) ابو حنيفة فقيه مشهور واليه ينسب المذهب الحنفي (٨٠ ـ ١٥٠ هـ / ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) .

رفات هذا الامام (٣٠) ، وينحدر موسى الكاظم من سلالة محمد (ص) من ابنته فاطمة زوجة علي (رض) ، وقد حكم عليه بالموت سنة ١٨٥ هـ بأمر من الخليفة هارون الرشيد بعد اشتباهه بانه يحاول الثورة مع اتباعه عليه ، ويجل الشيعة ذكراه ، ويعتبرونه الامام السابع الشرعي .

دجلة والملاحة فيه :

ليس لبغداد ، كما قلنا ، سوى جسر قوارب يقطعونه ابان الفيضانات الشديدة .ولكن من الممكن في كل المواسم عبور النهر بواسطة قوارب خفيفة تسمى قففا مصنوعة من الخيزران او من الخوص ، شبيهة بسلالنا ، ومطلية خارجا بطبقة سميكة من القار المخلوط بالتراب الذي يمنع تسرب الماء تتسع لثمانية ولغاية عشرة اشخاص . شكلها دائري ، وهي عميقة جدا . وليس فيها شراع أو مقود ، انما تسير بمجذاف او مجذافين على شكل رفش يمسك به واحد او اثنان باليد . وقد يحدث مرارا ان يتخبط القارب او يدور اكثر من مرة حول نفسه ، سواء كان ذلك بسبب شكله الدائري ام بسبب نوعية قيادته ، بحيث لا يصل الركاب الى الضفة الاخرى دون انحراف غير قليل او البقاء ربع ساعة على الاقل في المياه العميقة .

يقدر نيبور عرض دجلة ستمائة الى بستمائة وعشرين قدما ، لكننا نظن أنه اكثر من ذلك ابان شدة المياه التي تكون في الشتاء ، وبخاصة في الربيع ، اذ تختلط مياه الامطار في هذا الفصل الاخير في جزء من كردستان وبلاد ما بين النهرين بالمياه المجمعة من ذوبان الثلوج في بلاد فارس وكردستان وارمينيا واعالي بلاد ما بين النهرين . اما الزمن الذي يكون فيه دجلة منخفضا جدا ، فهو اواخر الصيف ومطلع الخريف ، لان

---

(٣٠) سابع ائمة الشيعة الاثني عشرية (١٢٨ — ١٨٣ هـ / ٧٤٥ — ٧٩٩ م) ، ولقب بالكاظم لانه لم ينتقم من خصومه ، والكاظم في اللغة من حبس غيظه .

المطر ينقطع تماماً في هذه الارجاء قبل شهري بروميير وفريمير (٣١) .

ان القوارب والسفن التي تصعد في النهر من البصرة الى بغداد ، هي شبيهة بالتي في اوربا ، فهي مغطاة بجملتها بطبقة سميكة من القار المخلوط بقليل من التراب الطيني الذي يحافظ عليه وقتاً طويلاً ، ولا يسمح بدخول الماء اطلاقا . وحين يخرجون القفة من الماء ، ويتركونها مدة ، تكون غير صالحة ، فيقلعون القار ويعرضونه لنار لطيفة تفصله عن التراب وتجعله يسيل في حوض يوضع خصيصاً لتجمعه ، وتعود اليه نفس الجودة التي كان عليها لدى استعماله للمرة الاولى .

يستخرج السكان هذا القار من اطراف هيت . فعلى بضعة فراسخ الى الغرب من هذه المدينة توجد عيون توفّر القار سنوياً ، اذ تجعله الحرارة يخرج من باطن الارض ، فيجمعه الاعراب في أواخر الصيف ويحملونه الى بغداد ، وهو بكميات كبيرة بحيث انه لايستخدم فقط للاغراض البحرية في بغداد والبصرة وحسب ، انما يطلون به ايضاً خارج المجاري وغرف الحمامات ومغاسل المطابخ وكل الجوانب المعرّضة للماء دائماً . ومن المحتمل أن اسوار بابل المشيدة بالطين كانت قد طليت بهذا القار ، وذلك في قسمها العلوي لصونها من تأثير الماء والهواء .

عدد السكان واحوالهم :

يقدر أهالي بغداد عدد سكان مدينتهم بأكثر من مائة الف نسمة . غير ان روسو وكيل العلاقات التجارية (الفرنسية) ، وليوني رجل الاعمال الايطالي الذي سكن منذ أكثر من اربعين سنة

(٣١) **شهر** Brumaire هو الثاني من التقويم الجمهوري ، يبدأ في ٢٢ أو ٢٣ تشرين الاول ، وينتهي في ٢٠ أو ٢١ تشرين الثاني . وشهر Frimaire هو الثالث ، يبدأ في ٢١ تشرين الثاني وينتهي في ٢٠ كانون الاول .

في هذه الربوع ، ورئيس دير الكرمليين (٣٢) الذين تحدثنا اليهم ، لا يقدرونها بأكثر من ثمانين الفاً ، ويوزعونهم هكذا : خمسون الف عربي ، عشرون الف تركي بمـــا في ذلك الانكشارية وحرس الباشا ، وحوالي الف كردي ، والف وخمسمائة مسيحي من الكلدان والارمن ، والفان وخمسمائة يهودي (٣٣)

ويؤكدون انه منذ تولي سليمان باشوية بغداد ازداد عدد السكان من ثلاثين الى اربعين الف نسمة ، من بينهم اثنا عشر او خمسة عشر الف من الفرس ، هربوا من الاضطرابات والحروب الاهلية التي يتعرض لها وطنهم منذ أكثر من نصف قرن . كذلك سكن فيها العديد من اليهود والارمن لاغراض تجارية مع تركيا والهند ، فان الباشا يشجع التجارة بكل ما في وسعه ، كما سنذكر ذلك في الفصل التالي .

ان هذه المدينة التي كانت لزمن طويل مقراً للخلفاء والمرجع الرئيسي لامبراطورية واسعة ومركزاً للاسلام وملتقى العلماء والشعراء والعرب وغيرهم ، لم يكن لها الا أن تحافظ على بعض آثار ذلك العمران ، والتفنن ، والتكالب وراء الملاهي التي تتميز بها العواصم الكبرى . وقد خيل الينا فعلاً أن أهل بغداد هم اكثر طيباً ، وان كبارهم أوفر ثقافة ، وابدى لطفاً ، وان التجار أكثر نشاطاً وحرصاً من غيرهم من تجار الامبراطورية ، كما ان التعصب الديني أخف فيها ، والحسد عينه أخف قسوة ووحشية .

النســـاء :

النساء محصنات في حرمهن ، كما في المدن الاخرى ايضاً ، اذ يبقين

---

(٣٢) انه الاب فولجنس المذكور سابقا .

(٣٣) بينما يقدر جمس بكنغهام عدد سكان بغداد عام ١٨١٦ ما بين خمسين ألف الى مائة ألف . انظر رحلته ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ١٩٩ . ويقول فريزر ان العدد بلغ مئة وخمسين الف نسمة في عهد داود باشا ، قبل تفشي الطاعون فيها ، انظر رحلته الى بغداد في ١٨٣٤ ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٨٦ .

منعزلات عن الرجال . وهن محجبات تماماً حين يخرجن ، لكنهن يتمتعن في منازلهن بحرية أوسع ، إذ يتزاورن مراراً ، ويقمن الاحتفالات بكثرة ، ويسترسلن لانغام الموسيقى والرقص بشيء من الانطلاق .

ونسـاء الطبقة الغنيّـة جميلات عادة ورشيقات ، وكثير منهن من الجواري الجيورجيات(٣٤) المشتريات بسعر باهظ ، ولا يخلين من حيوية وثقافة . يسترسلن في الكلام ، لكنهن يتكلمن بكثير من الاناقة ، ولغتهن المعتادة التركية والعربية .

لا تتحجب نساء العوام في الشوارع الا من باب المظهر ، وغالباً مايعفين انفسهن من ذلك ، وهن نحيلات عادة ، لاسمينات ، وفي قدودهن رشاقة ، والرأس بيضوي ، والانف جيد البروز وغالباً مايكون دقيقاً . الملامح اعتيادية المقاس ، واعينهن كبيرة وسوداء ، اما البشرة فسمراء . سحنتهن جميلة جداً ، وتتغير قليلاً بسبب الاسود (٣٥) الذي يضعنه على الحواجب وحول الاعين ، وكذلك بسبب الازرق(٣٦)الذي يصبغن به الشفاه بنفس الطرق التي يستعملها سكان جميع ضفاف البحر المتوسط . ويحملن قرطاً ذهبياً في أحد المنخرين ، ويرتدين قليلاً من الثياب ، وهي عادة قميص ازرق على الجسم ومنديل حول الرأس ، ويمشين دائماً حافيات لايتكلمن الا العربية .

تستخدم المثريات منهن افخر اقمشة الهند ، ويستعملن لزينتهن الكبرى قبعـة كبيرة للشعر عالية مسطحة ودائرية من الامام ، مائلة الى الوراء قليلاً ، تعلوها مناديل من الموصلين (٣٧) منقوشة ومطرزة بالذهب والفضة .

---

(٣٤) انهن الكرجيات ، يؤتى بهن من كرجستان في جيورجيا .

(٣٥) أو الكحل .

(٣٦) سيأتي وصفه بعد قليل ، وهو مادة الوشم .

(٣٧) لقد كتبناها هكذا ، بدلا من كتابتها (موزلين) ، لانها مشتقة من (الموصل) حيث المنشأ الاصلي لهذا القماش الفاخر ، وقد اعتاد كتابنا نقلها عن اللغات الاجنبيـة ، فكتبوهـا (موزلين) أو (موسـلين) لانهـا أتت mousseline ، والاجانب أيضاً يلفظونها بالصاد . انظر الهامش ٢٤ . من الفصل الثاني .

وقد تكون مزينة احياناً بالماس او بحجارة ثمينة أخرى .

اما في المناسبات البسيطة فلهن قبعة سوداء كبيرة مخملية مائلة الى الوراء ، تنتهي بشرابات من حرير او ذهب ، تكون مكسوة بشريط اذا كانت من ذهب . تثبت القبعة هذه في الرأس بواسطة شال كشميري .

الشعر مضفور بعدة ضفائر مدلاة . وهو مقصوص في مقدمة الرأس ينزل حتى اسفل الجبين ، ويحيط بالرقبة منديل من قماش مطرز او مزيّن بعقد جمان او من اللؤلؤ او من الزمرد .

السراويل عريضة مصنوعة من اقمشة مطرزة في الهند . والقميص الذي يعلوها من الموصلين مطرز بخيط حريري ذهبي اللون مفتوح من الامام كقميص الاوربيين . والثوب لايغطّي القميص من جهة الامام ، فهو لايلف سوى الفخذين ، كما انه مثبت بكلاب . وفوق الثوب رداء ضيق يغطي الظهر فقط ولا ينحدر الى اسفل الثوب .

نساء بغداد حافيات في منازلهن ،ولايرتدين الخفاف الا عند خروجهن .

الحناء وصبغات اخرى :

أيدي نساء بغداد وارجلهن مصبوغة بلون برتقالي ، واظفارهن مصبوغة بالأسود ، كما انهن يصبغن شعرهن ايضاً باللون عينه .

واليك طريقة استحضار ذلك :

معجون لصبغ الاظفار بالاسود :

خذ مسحوق المرتك (أوكسيد الرصاص) مقدار درهم (٣٨) .

ومن الجير (الكلس) المنطفىء ستة دراهم .

ومن الصودة ٣ دراهم .

اسحق الجميع ، واعجنه بالماء ، ضعه على الاظفار ، وبللها حتى تيبس

---

(٣٨) لم يعين اوليفييه اسما لمقياس المقادير ، والمعتاد ان تكون بالدراهم ، وبها أثبتناها ، فاقتضى التنويه . وكثيراً ما لا يذكر اسم مقياس لانهـا مقادير نسبية .

عليها ، وذلك سبعاً او ثماني مرات . وبعد ربع ساعة اغسل الظفر وافركه بقليل من الزيت لكي يغدو أشد لمعاناً ، ولتركيـز مفعول المعجون الذي وضعته عليه .

معجون لصبغ الايدي والارجل الاحمر البرتقالي أو بالاسود البنفسجي:

اسحق اوراق الحناء ، وبلل هذا المسحوق بالماء ، ثم ضعه على طرف اليد او الرجل التي تريد ان تصبغها ، وينبغي ترك ذلك مدة ثماني او عشر ساعات متتالية .

اما اذا اردت ان تحصل على (لون) اسود بنفسجي فعليك بعد رفع الحناء وقبل غسل (اليد او الرجل) ان تضع عوضاً عن الحناء مسحوق اوراق النيلة ، وتبللها بالماء (٣٩) .

معجون لتسويد الشعر :

خذ من العفص الصلب والثقيل مقدار ٣٦ درهماً .

ومن الاثمد مقدار اربعة دراهم

ومن القرنفل ١٢ درهماً

ومن الخل الجيد ثلاثة أقداح .

اسحق العفص واقله بقليل من زيت الزيتون . انزع قشرة الجوز واسحقه ومعه الاثمد والقرنفل ، وانخل الجميع .

ضع هذا المسحوق في ثلاثة أقداح خل ، ثم ضعه على نار هادئة حتى يتركز المعجون .

(طريقة) الاستعمال :

اغسل مساء الشعر جيداً بالماء الحار والصابون ، ونشفه جيداً بقطعة قماش . ثم ادهن خصلة خصلة بالمعجون أعلاه . وعليك ان تغطي الرأس ثم تغسله صباح اليوم التالي بالماء والصابون ثانية وتنشفه ، كما في العشية ، فيكون الشعر اسود ، ويظل هكذا مدة طويلة .

---

(٣٩) وردت الحناء لدى اوليفييه هكذا : henné أما النيلة فهي : indigo

ان هـذا المعجـون لايصلح للنساء حسب ، بل ان الرجال المتقدمين في السن ، وحتى الشباب ، يصبغون به من وقت لآخر لحاهم لكي يبدو مظهرهم أكثر شباباً ، ومحياهم شديد النشاط . وهو استعمال شائع عادة في الدولة

العثمانية ، وبخاصة في بغـــداد وبلاد العجم ، فاننـــا لم نر على الاطلاق شيخاً ذا لحية بيضاء ، ولا شاباً ذا لحية حمراء او شقراء .

ويضع افراد كلا الجنسين لابراز جمالهم ، يومياً على هـذا الاهداب والحواجب معجوناً أسود (٤٠) وتنثر النساء في العجم على اهدابهن الاسود الذي يضعنه على حافة الجبين ، وذلك لاظهـار العين باوسع مظهـر ، بغية ان تشكل الاجفان قوسين سوداوين كبيرين ومتصلين .

تبدو النساء وهن مصبوغات بهذا الشكل اوفر جمالاً بالنسبة للاشخاص الذين يرونهن بشكل اعتيـادي ، فاهم هـم ايضاً وجه ملطخ بالاسود . بينما نستطيع القول ان الامر كان عندنا اثر معاكساً ، نظراً لتعودنا على جمال الاوربيات الطبيعي . ان تلك الاهـداب السـوداء المستوية في اعلى الانف ، وسواد الحاجب المنتشر في الاطراف ، يعطي للمرأة سحنة قاسية مشوشة لا سيما حين تدلجها بالابيض ، وتكون العينان زرقاوين .

منـاخ بغـداد :

عندما وصلنا الى بغداد في مطلع فلوريال (٢١ نيسان) (٤١) . لم يكن

---

(٤٠) انه الكحل أو الصبغة التي تكحل بها العين ويبدو انها كانت تستحضر على شكل معجون . ويبالغ اوليفييه في ذم عادة هؤلاء النسـاء وامتداح النسـاء الاوربيات .

(٤١) شـهر Floréal هو الثامن ، يبدأ في ٢٠ أو ٢١ نيسـان ، وينتهي في ١٩ أو ٢٠ أيار .

مقياس الحرارة ريامر (٤٢) ليسجل سوى ١٨ درجة ، لكنها اصبحت في التالية ٢١ و ٢٢ درجة ، وصعدت تباعا حتى بلغت ٢٦ ، ثم غدت ٣٠ و ٣١ في اواسط بريريال (اوائل حزيران) (٤٣) اثر ريح شرقية خفيفة حملت الينا كمية كبيرة من الجراد .

وتشتد الحرارة اكثر ابان الصيف ، وتهب الريح عادة من الشمال الغربي ، فتجتاز اراضي خاوية جرداء ، حتى تصبح سعيرا في هذه الارجاء . ويرتفع مقياس الحرارة ظهرا الى درجة ٣٢ او ٣٤ او ٣٥ ، وتظل كذلك حتى المساء فتشبه بغداد حينذاك صحراء مقفرة ، بحيث لا تلقى احدا في الشوارع ، وتغلق الاسواق ايضا منذ الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا وحتى مغيب الشمس ، فيخلد الناس الى السراديب حيث لا تصل الحرارة ، كما قلنا ، اكثر من ٢٥ او ٢٦ درجة . ولكن بما ان الهواء يتجدد فيها بعسر ، يزداد التنفس داخلها بحيث يحتاج المرء الى جرعة ماء كل نصف ساعة تقريبا .

تلي هذه الحرارة المفرطة في النهار رطوبة في الليل هي السبب في سحر ليالي بغداد الذي يعتز به اهاليها ، فهم منذ غياب الشمس يخرجون من مخابئهم الى سطوح بيوتهم حاملين عشاءهم ، فيفرشون المنام . ويبدأ أوان الزيارات وساعات الانس ، فيأتي الاغنياء براقصين وموسيقيين وقارئين ، مهنتهم سرد حكايات هي على غرار الف ليلة وليلة (٤٤) .

وتنخفض الحرارة في الاعتدال الخريفي ، وتغدو الرياح متقلبة ، وتظل الرياح ، رغم ذلك ، حارة اثناء النهار اذا ما هبت من جهة الشمال ، اللهم إلا أن تكون جبال كردستان وفارس قد اكتست بالثلوج ، او المناطق المنخفضة من بلاد اشور قد ترطبت بالامطار . وعندما يسكن الهواء في شهر

(٤٢) مقياس الحرارة ريامر Réamur هو ٨٠ درجة كأعلى درجة ، لذا ينبغي ضرب الرقم ب (١٠٠) وقسمته على (٨٠) للحصول على الدرجة المئوية . وهكذا بشأن درجة الحرارة في الرحلة كلها .

(٤٣) شهر Prairial هو التاسع ، يبدأ في ٢٠ أيار ، وينتهي في ١٨ حزيران .

(٤٤) انه الراوية أو قارىء السير الشهيرة (عنترة ، الزير سالم والخ) .

فندميير (٤٥) ، وهو ما يحدث غالبا ، تصبح الحرارة لا تطاق ، رغم ان المقياس لا يسجل اكثر من ٢٨ او ٣٠ درجة .

لا يشعر المرء بالبرد اثناء النهار حتى اواخر فريميير (٤٦) ، وتكون السماء صافية دائما ، والرياح متقلبة جدا ، والرياح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية جافة وعليلة لكنها ليست باردة ، اما الرياح الغربية فرطبة قليلا ، وهي التي تحمل الامطار احيانا الى بغداد ، بينما يحدث ذلك بكثرة في اطراف الموصل والجزء الاوسط والاعلى من بلاد ما بين النهرين .

تكون ريح الجنوب عادة في اواخر الخريف ومطلع الشتاء ، وحين تهب فهي ليست شديدة الحرارة ولا طويلة الامد ، اذ انه منذ اواخر فندميير (اواسط تشرين الاول) (٤٧) ينخفض مقياس الحرارة (ريامر) من ٢٤ الى ٢٠ ومن ١٨ الى ١٥ درجة . وقد لاحظنا انها ، في نيفوز (٤٨) ، انخفضت اثناء النهار الى ٨ و ١٠ ، بل انها وصلت احيانا ٤ و ٥ ، حتى لقد شوهد الصفر او درجة ١ اثناء الليل ، بحيث ان الماء الذي في فناء المنازل كان يرى صباحا مغطى بطبقة جليدية سمكها خطان او ثلاثة (٤٩) .

ان مناخ بغداد ، كما يلاحظ ، أدفأ من مناخ صعيد مصر ، لان رياح البحر الابيض المتوسط التي قلنا سابقا انها تهب طوال النهار دون انقطاع تصل الى هذه البلاد شديدة الحرارة ، اذ انها تسخن حتما لدى قطعها ١٥٠ فرسخا من اراض غير مزروعة وملتهبة باشعة الشمس . .

---

(٤٥) شهر Vendémiaire هو الاول ، يبدأ في ٢٢ أيلول ، وينتهي في ٢١ تشرين الاول .

(٤٦) فريمير هو الشهر الثالث (٢١ تشرين الاول ـ ٢٠ كانون الاول) وقد سبق ذكره .

(٤٧) انه الشهر الاول ، كما جاء في الهامش ٥٠ .

(٤٨) شهر Nivôse هو الرابع ، يبدأ في ٢١ كانون الاول وينتهي في ١٩ كانون الثاني .

(٤٩) يستعمل اوليفييه هذا المقياس (Ligne) الذي هو ١/١٢ من (العقدة) .

والبصرة الواقعة على بعد ٨٠ فرسخا الى الجنوب ، أقل حرارة من بغداد، لانها تكون رطبة بتأثير ريح جنوبية شرقية تهب من الخليج ، ولا يرتفع مقياس الحرارة في البصرة الى اكثر من ٣٢ درجة . ورغم ذلك فان حرّ بغداد الجاف واللافح اكثر احتمالا ، ان كان أشد من حرارة البصرة الرطبة ، اذ ان الهواء في بغداد يحتفظ بلزوجة ، بحيث اننا قد شعرنا اكثر من مرة بان شهيتنا هي اشد ، واننا اقل تعرضا للتعب ، وأخف تألما ونحن في درجة حرارة بلغت ٣٠ و ٣١ ولغاية ٣٤ في جو رياح شمالية غربية ، اكثر مما في جو رياح جنوبية او جنوبية شرقية ، مع ان الحرارة لم تبلغ اكثر من ٢٦ او ٢٨ او ٣٠ . ومعلوم بان الحرارة مهما كانت شديدة فانها تحتمل في جميع الحالات بسهولة اذ كانت مصحوبة بهبوب ريح اشد سرعة ، من احتمال حرارة معتدلة ، ساكنة الهواء .

اما الشتاء فهو أبرد . لان الرياح التي تهب من جبال كردستان وفارس الثلجية ، رغم بعدها ، تصل الى بغداد باردة . بينما نجد الرياح التي تهب على مصر من الشمال تفقد شدتها عند اجتيازها البحر المتوسط . لذلك فان اشجار الحناء والموز ومعظم الاشجار الغريبة التي تنمو في مصر ، لا تقوى على النمو في بغداد ، اذ انها تموت في الليالي عندما تنخفض درجة الحرارة فيها الى اثنتين تحت الصفر . الا ان برودة كهذه لا تتمكن من القضاء على اشجار الحمضيات المزروعة فيها ، واقل من ذلك على النخيل الذي يبدو انه يحب مناخا كهذا مفضلا اياه على مناخ مصر (٥٠) .

ان هذه الحرارة الشديدة ابان النهار ، القليلة في الليالي ، لا تمنعان بغداد من ان تنعم بجميع فوائد مناخ صحي جدا ، فهي تقع في سهل فسيح ، وتهب عليها الرياح في جميع الفصول ، فلا تتكون فيها مواطن أو بئة . وماء دجلة الوحيد الصالح للشرب صحي جدا . والامطار فيها قليلة حتى في فصل الشتاء .

(٥٠) انها ملاحظات خبير في الجغرافيا يسجلها اوليفييه بذكاء ، وهي التي تسم رحلته بطابع خاص ، وتقدم فوائد جليلة .

اما السماء فصافية دوما تقريبا . والمناخ نقي صيفا الى درجة ان المرء لا يشعر فيه بأية رطوبة ولا بالندى الا على مقربة كبيرة جدا من النهر . فلو كانت الاراضي المحيطة بهذه المدينة مزروعة باجمعها ، ولو حبست فيها مياه دجلة والفرات ، وتم توزيعها على قنوات ، ثم جمعها بعيدا لتوزيعها على الحقول التي يراد سقيها ، وعدم السماح لها بتشكيل اهوار ومستنقعات تفسد الهواء ولو على بعد مسافات عن المدينة ، فاننا نعتقد بانه لن تكون ثمة منطقة اخرى في الارض اصح منها ، وانجح حيويّة ، واوفر غنى ، واكثر انتاجا ، وأشد ازدهارا (٥١) .

رأي في نشأة التنجيم :

يقال أن التنجيم نشأ في هذه البلاد ، ونحن نصدق ذلك ، التصديق ، لان السكان يقضون على سطوح بيوتهم أشهرا عديدة كل سنة ، والمناخ نقي في المواسم كلها ، والسماء صافية ، بحيث ترى النجوم متلألئة بأشعة لا تعرف في اوربا . فليس من الغرابة ان ينشأ هذا العلم في بلد تتجه فيه كل الانظار نحو السماء ، وحيث كانت الديانة عينها تستخدمه .لذلك تقدم الكلدانيون في علم له سحره بالنسبة للبدائيين ، وسبقوهم فيه ، بفضل غريزة طبيعية في الانسان المرء . هذا اذا لم يكن ثمة من فوائد حملتهم الى ذلك بسبب ما اجتنبوه من هذا العلم في حقل الزراعة ايضا (٥٢) .

---

(٥١) هذه الملاحظة يعززها التاريخ سواء أيام البابليين وازدهار عاصمتهم ، وسواء أيام العباسيين وبلوغ بغداد أوج العز والازدهار ، وتؤيدها يوما بعد يوم الانجازات القائمة في عاصمة العراق وبلوغها بسنوات قليلة ما توقعه اوليفييه قبل مائتي عام .

(٥٢) رأي جدير بالاهتمام حقا . أما بشأن التنجيم والفلك لدى قدامى العراقيين فانظر : علوم البابليين لمرغريت روثن ، ترجمتنا ، بغداد ١٩٨٠ ، الفصل الثامن .

الفصل الخامس

امتداد باشوية بغداد ، وحالتها العسكرية ، ومدخولاتها . حصار البصرة . مرض سليمان باشا ، وشفاؤه . سلوك مملوكه ، ومؤامراته ، وموته .

امتداد باشوية بغداد :

كانت باشوية بغداد (١) التي كانت محدودة جداً حين كان ثمةباشا آخر من الدرجة الأولى (٢) في شهرزور ،وباشا من الدرجة الثانية (٣) في البصرة ، ومتسلم في ماردين (٤) ، ثم اصبحت واحدة من اهم باشويات الامبراطورية (العثمانية) واوسعها ، بفضل جمع كل الباشويات الاخرى . وقد جرى ذلك ابّان تشويشات فارس ، حيث هدد نادرشاه (٥) بغداد والبصرة والمناطق الواقعة الى الشرق والغرب من دجلة والفرات ، الامر الذي جعل السياسة العثمانية تفكر بمشروع تركيز القوى القادرة على احباط نواياه .

الحالة العسكرية :

وعندما اصبح باشا بغداد ، حاكم ولاية خصبة كهذه ، وتجارية جدا ، ومكتظة بالسكان باتساع مصر ، صاربوسعه ان يجند بسهولة جيشاً مكونا من

(١) فضلنا ان نبقي استعمال (باشوية) على ولاية ، وذلك طبقاً لما استعمله اوليفييه في الاصل الفرنسي ، اذ كتبها اوليفييه هكذا : Pachalik de Bagdad

(٢) سجلها اوليفييه هكذا : Premier rang وهي رتبة الوزير .

(٣) وبالفرنسية : deux queues اي ذو طوغين . وهي رتبة الميرميران .

(٤) تستعمل كلمة (باشا) بالفرنسية Pacha للوزير والميرميران . وكلمة (ويوضة) ، وبالفرنسية : Vaivode لحكام بعض المدن منها ماردين . و(متسلّم) وبالفرنسية : Mutselim للوكيل أو نائب الوالي .

(٥) كان يسمى (طهماسب قلي) ثم (نادر خان) ثم (نادر شاه) الذي قضى على السلالة الصفوية في بلاد فارس وغزا العراق مرتين ، عام ١٧٣٢ وعام ١٧٤٣ م ، وقد أسهب المؤرخون في وصف طغيانه وهمجية حملاته .

اربعين الى خمسين الف مقاتل ، وان يعيلهم بموارد ومحاصيل هذه الباشوية نفسها . فقد كانت القبائل العربية المنتشرة في بلاد ما بين النهرين ، الساكنة على ضفتي شط العرب (٦) تجهزه وقت الحاجة بعشرة الى اثني عشر الف فارس . ولأجل أن يتم ذلك ينبغي ان تكون كل القبائل في حالة سلام مع الباشا ، وان يكون عنده المال الكافي لكي يدفع لهم بسخاء وانتظام .

وبوسعه ايضاً ان يقود الباشوات الاكراد الثلاثة الخاضعين له ، كما بامكانه استخدامهم . وكان احد هؤلاء الباشوات يسكن في شهرزور (٧) ، الواقعة على بعد ١٥ فرسخا الى الشرق الجنوبي الشرقي من اربيل ، ويقيم الثاني في قلعة قره جولان قرب حدود فارس ، أما الثالث فمقرّه في سربيل وهي آخر قرية على طريق بغداد — همدان . وليس لهولاء الباشوات الاكراد سوى طوغ واحد يتسلمونه من باشا بغداد ، ويحصلون عليه وفقا لوارد ولايتهم ، وذلك من باب التسابق فيما بينهم . وهم يستطيعون اذا اجتمعوا معا ان يجمعوا اثني عشر ولغاية خمسة عشر الف فارس يعتمد عليهم باشا بغداد كل الاعتماد ، واكثر من اعتماده على القبائل ، لان بيده وسائل انجع لمعاقبتهم ان هم تركوا الاعلام قبل نهاية الحملة .

يتكون حرس الباشا من أربعة الاف من الفرسان والفين من المشاة .

---

(٦) انه بازيتيجريس لدى الاقدمين Pasitigris ، ويتكون شط العرب من اجتماع دجلة بالفرات واتخاذهما مجرى موحدا بعد التقائهما في القرنة . ويكتبه اوليفييه هكذا : Shat - el - Arab .

(٧) من الولايات العثمانية المهمة ، تقع في غربي سلسلة جبال ادرامان ويكتبها اوليفييه : Shérhsour .

يبلغ عدد الفرسان الاتراك (٨) في الباشوية كلها الفا او الفا ومائتين . اما الانكشارية (الينجرية) المسجلون في المدن كلها ، فيشكلون جيشا كثير العدد جدا لو كان في الامكان سوقهم جميعا . ومن الممكن رغم ذلك ان يُجْمَع تحت الأعلام بكل سهولة اكثر من خمسة عشر الفا . منهم ثمانية الاف في بغداد يقومون بحماية المدينة ، ولهم ينجري اغا يعينه الباب (العالي) (٩) . يتلقون الاوامر من الباشا ، ولكنه لا يستطيع ان يستخدمهم في منازعاته المتعددة سواء مع البدو ام مع الاكراد . فان الحماية هذه مقصورة على للدفاع عن المدينة ، وهى بامرة الباشا .اما في حالة اضطرارها الى الخروج الاعداء فيجب ان تتلقى الاوامر من الباب العالي او من الصدر الاعظم (١٠) .

ويتم عند الضرورة تجنيد بضع فرق مسلحة متطوعة (١١) . يصبح عددها كثيرا حين تكون للباشا حرمة وحنكة ودراية ، وعندما تدور الحرب في اراض فارسية ، اذ ان ذلك يمنيهم بغنائم ثريّة ، وفي هذه الحالة يكون بوسعه الحصول بكل سهولة على خمسة الاف او ستة الاف مسلح .

المدخولات والواردات :

لم نتمكن من الاطلاع بدقة على وضع مدخولات هذه الباشوية ، الا اننا من خلال جميع التقارير التي قدمت لنا قدرناها باكثر من اربعة آلاف

(٨) السباهية هم الخيالية . ويبدو بوضوح تركيز رحالتنا على الشؤون العسكرية .

(٩) يقول رحالتنا (الباب) فقط ، ويقصد (الباب العالي) أو السلطة العثمانية العليا في الاستانة .

(١٠) أو رئيس الوزراء ، وقد ورد بالفرنسية هكذا : Le Grand - Visir

(١١) جاءت في الاصل : مسلحة بالبنادق Fusiliers volontaires .

كيس ، اي اربعة ملايين فرنك (١٢) . لا يصل ثُمنُهَا الى اسطنبول ، اذ أن المبلغ كله تقريبا ينفق لتمثيل الباشا ، ودفـع رواتب الموظفين الرئيسين ، وادامة عساكره . وعندما يحدث مع الاكراد او مع البدو ، تخفض كثيرا الحصة التي يجب ارسالها الى الاستانة ، لأن الباشا ينفقها كلها تقريبا لدفع المصاريف غير الاعتيادية التي قد اكره على القيام بها .

وان هذه الاربعة آلاف كيس منشؤها من (الميري) (١٣) او الضريبة المباشرة على الاراضي، وكذلك من الجزية (١٤) او الرسم الشخصي المفروض على غير المسلمين . وثمة مزارع يعهد بهـا الى مُحَصِّلين يأتون بالمحاصـيل الى خزينة الباشا . وكذلك من المساهمات الواجبة على البدو واليزيديين والاكراد ، ومن الرسوم الكمركية ايضـا . وقد اصبح البـاب الاخير مهما جدا بعد ان اخذت بضائع الهنـد تمرّ في البصرة وبغداد ، ولا تمرّ في فارس إلا نادراً .

وثمة حقوق اخرى متعددة كحق الوراثة وحق المصادرة بعد الحكم بالاعدام على احـد الرعايا ، والحق الناتج عن البيوع او عن التنازل عن عن الزعامة والتيمار ، وعن كل التعيينات والوظائف والمهـام لدى تسميتها من قبل الباب العالي . يجب ان تذهب جميع هذه الواردات مباشرة الى خزينة السلطان .

---

(١٢) ووردت في الاصل هكذا : Bourses - Francs

(١٣) وهي الضريبة عن الاراضي الاميرية .

(١٤) وردت لدى اوليفييه هكذا : Karacht وهي جزية الراس .

حسن باشا (١٥) :

اذا كان تجمع مثل هذه القوى والواردات ، قد ساهم في بعض الاحوال في صد هجمات الفرس ، كما انه منح الباشوات وسائل مختلفة ليحتفظوا بمراكزهم رغم ارادة السلطان فانه لم يمكنهم من كسب الرأي العام وان يحببهم الانكشارية ، وان يروا في جميع ضباط حرسهم رجالا مخلصين . واستوجب الامر ان يرسل السلطان سنويا فرمان التثبيت لدوام لسلطته والاعتراف بها .

هذا ما تحقق منذ عهد حسن(باشا)الذي تولى هذه الباشوية للمرة الثانية سنة ١٧٠٢ ، وكان له القدح المعلى في ان يغدو مفيدا مدة أثنتين وعشرين سنة متتالية ، اذ لم يعد السلطان ذاك السيد الذي يتمتع بصلاحية تسمية الشخص الجديد لهذه الباشوية في حالة وفاة متوليها،وبصورة اوضح من ذلك لم تعد له صلاحية خلع من يدعمه تأييد الشعب والعساكر ، حتى لقد اضطر الامر الى تجهيز جيش لكي يتولى الباشا المعين من قبل الباب (العالي) مقاليد الامور ، غير ان الباب (العالي) لم يكن مستعدا بالطبع لتجهيز جيش لاغراض كهذه ، لانه في الوضع المزري الذي آلت اليه هذه الامبراطورية ، كان كافياً للسلطان ان يحتفظ بمظهر من السيادة في ولاياته البعيدة والعاصية ، وكان يكفيه خاصة الحصول على الواردات بانتظام .

---

(١٥) حسن باشا : تولى بغداد في سنة ١٧٠٤ م (١١١٦ هـ) حتى وفاته سنة ١٧٢٣ م (١١٣٦ هـ) . كان من موظفي البلاط في الاستانة ثم تولى بعض الولايات وعين والياً في بغداد برتبة وزير . استقر الحكم في عهده الطويل . كانت له وقائع عديدة مع القبائل ، وحروب مع الايرانيين فدخل كرمنشاه واردلان . وتوفي في ايران ، ونقل جثمانه الى بغداد ودفن في جامع الامام الاعظم .
(أخباره في حديقة الزوراء ، ودوحة الوزراء ، وحروب الايرانيين ، وغاية المرام ، والعراق بين احتلالين ج ٥ ، واربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، والعراق في العهد العثماني) .

وقد قام السلطان مرارا بمحاولات لانتزاع هذه الباشوية من خلفاء حسن (باشا) ، الا انه لم يصل الى نتيجة ، اذ ان الباشوات الذين يعينهم كانو لا يجسرون على المثول الى بغداد ، او يقتلون وهم في الطريق ، او يكرهون على الانسحاب بعد زمن قليل من تسلم الولاية . ولم تفلح ايضا محاولة الاطاحة بهم (١٦) ، لان الذين ارسلهم السلطان لهذا الغرض فقدوا حياتهم ، او لم يتمكنوا من اتمام مهمتهم اطلاقا .

احمد باشا وسليمان باشا :

هكذا إذن خلف احمد(١٧) اباه حسن باشا ، وحكم ثلاثا وعشرين سنة ، وظل

---

(١٦) يعني خلفاء حسن باشا .

(١٧) احمد باشا بن حسن باشا ، ولد في حدود سنة ١٦٨٥ م (١٠٩٧ هـ) ورافق اباه عندما كان والياً في عدد من الولايات ، وعين سنة ١٧١٥ م (١١٢٨ هـ) في بعض الولايات ثم في البصرة ، وكان والياً فيها عند وفاة والده اثناء حربه في ايران سنة ١٧٢٣ م (١١٣٦ هـ) فتولى قيادة الجيش وولاية بغداد ، وكانت له حروب في ايران فأصبحت همذان في قبضته تابعة للدولة العثمانية . ثم تجددت الحروب وانسحبت قوات احمد باشا من ايران وعقد صلح سنة ١٧٣٢ م (١١٤٤ هـ) . وبعد سيطرة (نادر) على الحكم عادت الحروب من سنة ١٧٣٣ م (١١٤٥ هـ) وحاصر نادر بغداد بضعة اشهر ولكن الجيش العثماني بقيادة الصدر الاعظم السابق عثمان باشا الذي شاركت فيه ولايات متعددة ، دحر جيش نادر قرب بغداد ، فانسحب الى ايران ولكنه أعاد الكرة واصطدم مع الجيش العثماني قرب كركوك فاندحر الجيش العثماني وقتل القائد العام . ولكن (نادر) عاد الى بلاده لحدوث اضطرابات فيها وعقد الصلح مع والي بغداد . ونقل احمد باشا من ولاية بغداد . ويبدو ان الدولة العثمانية اعتبرته مقصراً ، وسبب ذلك نصيحته لعثمان باشا بتسريح بعض قواته مما أضعف الجيش وادى الى اندحاره . على انه اعيد بعد سنتين الى ولاية بغداد وعقد الصلح مع ايران . ولكن تجددت الخلافات بين الدولة العثمانية ونادر الذي أصبح آنذاك شاه ايران ، وأرسل الرسل الى احمد باشا فكان جوابه (خذ الموصل اسلم اليك بغداد) . وتقدم نادر شاه

سليمان (١٨) بعد وفاة حميه احمد ثلاث عشرة سنة في هذا المنصب. وقد خلف سليمان علي اغا (١٩) والي البصرة ، ثم عمر (٢٠) الذي تزوج ابنة احمد الصغرى

=

تجاه كركوك واربيل سنة ١٧٤٣ م (١١٥٦ هـ) فسقطت بيده وارسل قوة صغيرة لتحيط ببغداد عن بعد ، واخرى الى الجنوب ، وتقدم بجيشه الكبير نحو الموصل وبعد حصار دام أربعين يوماً وقصف شديد لم ينجح نادر شاه في حملته على الموصل واصيب جيشه بخسائر فادحة ، وتمكن المدافعون من أهل الموصل بقيادة واليها الحاج حسين باشا الجليلي من رفع الحصار ، فانسحب نادر شاه تجاه بغداد ثم الى ايران ، وعقد الصلح مع الدولة العثمانية وبقي احمد باشا في ولاية بغداد الى ان توفي سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٧ م) ودفن قرب ابيه في جامع الامام الاعظم .

(المراجع : حديقة الزوراء ، ودوحة الوزراء ، وحروب الايرانيين ، ومنهل الاولياء ، وغاية المرام ، وتاريخ الموصل للصائغ ، والعراق بين احتلالين ج ٥ ، واربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٦٣ — ١٩٦ ، والموصل في العهد العثماني ، وحصار الموصل لاولسن ، وحصار الموصل لعبدالجبار محمد جرجيس) .

(١٨) سليمان باشا (أبو ليلة) مملوك احمد باشا بن حسن باشا والي بغداد وصهره وكتخدا برتبة ميرميران ، ثم عين والياً على البصرة سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٧ م) ثم على بغداد برتبة وزير سنة ١١٦٣ هـ (١٧٤٩ م) حتى وفاته سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦٢ م) .

(دوحة الوزراء ، تاريخ بغداد الكوله مند ، غاية المرام ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، والعراق بين احتلالين ج ٦) .

(١٩) علي اغا (ثم باشا) كان من اتباع احمد باشا والي بغداد ولكنه لم يكن من المماليك ، وتولى في عهد سليمان باشا أبي ليلة بعض المناصب ومنها منصب الكهية في بغداد ، ثم عين والياً على بغداد برتبة وزير سنة ١١٧٦ هـ (١٧٦٢ م) . وحصلت أثناء حكمه اضطرابات في بغداد وخارجها ، فقاد الحملات للقضاء عليها ، وحدثت ثورة ضده دفعت اليها عادلة خانم بنت احمد باشا والي بغداد الاسبق (زوجة سليمان باشا أبي ليلة) وقادها عمر اغا كهية بغداد السابق ، فقتل علي باشا تولى عمر (باشا) بغداد في ١١٧٨ هـ (١٧٦٤ م) .

(المصادر مثل الهامش ٢٢) .

(٢٠) عمر اغا (ثم باشا) كان كتخدا والي بغداد سليمان باشا أبي ليلة ، وأحد الطامعين في ولاية بغداد ، اتفق مع المماليك (وهو أحدهم) على قتل

=

وكان علي الشخص المفضل لدي سليمان، وقد قتل بتحريضات عادلة خاتون. ابنة احمد الكبرى ، فعين الديوان عمر الذي استلم الفرمان من الباب العالي بعد زمن ، اي سنة ١٧٦٤ :

حصار البصرة :

وفي ايام ولاية عمر حاصر كريم خان (٢١) البصرة سنة ١٧٧٥

- علي باشا الذي أصبح والياً على بغداد بعد وفاة سليمان باشا أبي ليلة سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦٢ م) ، واسندت اليه ولاية بغداد برتبة وزير سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٤ م) ، وبالنظر الى الاعتداءات الايرانية على البصرة وعدم انجادها قررت السلطة في العاصمة الاستانة عزله وعهدت الى الوزير محمد امين باشا الجليلي بولاية بغداد والبصرة اضافة الى ولاية الموصل ، وعين في الوقت نفسه ابنه الوزير سليمان باشا الجليلي والياً على شهرزور سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) وارسل وزراء آخرون ليكونوا بمعية محمد امين باشا لعزل عمر باشا من بغداد وانقاذ البصرة ، ولكن وفاة محمد امين باشا الجليلي في الموصل قبل وصوله بغداد أدى الى ان يعهد بولاية بغداد والبصرة الى مصطفى باشا الاسبيناقجي الذي اصطدم مع عمر باشا والي بغداد المعزول وادى ذلك الى مقتله أوائل سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) .

(دوحة الوزراء ، تاريخ بغداد الكولهمند ، وغاية المرام ، وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٥٤ ، والموصل في العهد العثماني) .

(٢١) كريم خان من قبيلة الزند ، كان أحد الذين تنازعوا على السلطة في فارس بعد مقتل نادر شاه ، وأصبح سنة ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) الحاكم الذي لا ينازع ، باعتباره وصياً على العرش ، ثم دخل في نزاعات مع والي بغداد وهدد البصرة والشمال ، وتمكنت القوات التي ارسلها بقيادة أخيه صادق خان من الاستيلاء على البصرة سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م) ثم توفى كريم خان الزند سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) وأخلت قواته البصرة وعاد أخوه صادق ليتنافس مع غيره على تولي الحكم في بلاده .

كان سليمان والي بغـداد (٢٢) ، متسلماً على البصرة يومذاك ، فاحكم الحصار بمهارة مدة ثلاثة عشر شهرا . وبما ان ترفيع سليمان الى هذا المقام (٢٣)

---

(٢٢) سليمان اغا (ثم باشا) من مماليك والي بغداد احمد باشا بن حسن باشا ، ولد حوالي سنة (١٧١٦ – ١٧٢٠) وترقى في المناصب وعين متسـلماً في البصرة سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ونقل منها بعد ثلاث سنين ثم اعيد سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) وكانت الامور مستقرة والتجارة رائجة ، وحدث الطاعون المروع سنة ١١٨٧ هـ (١٧٧٣ م) ، وكان الخطر الفارسي المتمثل بخطط كريم زندي وأخيه صادق ، يهـدد البصرة ، فأسـرع المتسلم الى اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع . وهاجم صادق زند البصرة سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) وتمكن دفاع المدينة الذي شارك فيه الجميع من صد الهجوم الاول ، ولكن الايرانيين استمروا بمحاصرة البصرة ولم تأتهم نجدات من والي بغداد عمر باشا ، فاضطرت القوات المدافعـة للاستسلام ، وأسر المتسلم سليمان اغا وجماعة من أعيان البصرة سـنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦م) ، وحدثت بعدها اعتداءات فارسية كثيرة واصطدام بين قبائل المنتفك والفرس خسر فيها الفرس خسائر كبيرة . وبقي سليمان اغا في الاسر في شيراز اربع سنوات ثم عاد الى البصرة . ومنحه السلطان رتبة الميرميران ، ثم عين والياً على بغـداد برتبـة وزير سنة ١١٩٤ هـ (١٧٨٠ م) وقد نيف على الستين من عمره . واسـتقرت الاحوال في بغداد في عهده الطويل وازدهرت التجارة ، ولكن حدثت اصطدامات كثيرة بين قوات الولاية والقبائل التي كانت في نزاع مع السلطة . وحدثت مجاعة في بغداد أدت الى اضطرابات قضى عليها . ثم اتفقت القبـائل على التعاون فيما بينها وتمكنوا من السيطرة على البصرة ، ولكن سليمان باشا سار بقوات كبيرة وتمكن من اعادة السـلطة اليهـا في ١٢٠٢ هـ (١٧٨٧ م) . ثم حدث عصيان متسلم البصرة وعصيان آخر قام به حاكم كركوك بالتعاون مع البابانيين ، وتمـكن الوالي من اخضاعهمـا وضرب تيمور باشا الملي في منطقة ماردين ودخل في نزاع مع الوهابيين سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩١ م) . واصيب بمرض طويل ثم شفي منه وتوفي بعد ذلك في سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) .

(دوحة الوزراء ، غاية المرام ، وتاريخ المماليك الكولهمند ، العراق بين احتلالين ، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) .

(٢٣) أي الى باشوية بغداد ، وان رحالتنا سيراه على ذلك أثناء زيارته بغداد .

يرجع الى دفاعه عن المدينة ، فاننــا سنذكر بعبارة وجيزة اهم احداث هذا الحصار .

تسبب كريم خان ، وهو احــد مغتصبي عرش فارس ، في نشـوب خلافات مع عمر والي بغداد ، وذلك بسبب الزوار الذين يمرون في هذه المدينــة للذهاب لزيارة ضريح الامام علي (رض) ، حتى انــه طلب من الباب العالي رأس عمر ، وهدّد بانه يرسل جيشــا الى دجلة والفرات اذا لم يلبوا طلبه ، واذا لم يلغوا الضريبة التي كان الباشا قد فرضها على كل حاج ، وهي اربعة قروش (٢٤) .

ان الباب العالي الذي يتباطأ حتى حين يتهدد الخطر مصالحه ، او حين يطعن في كبريائه ، لــم يكن مستعداً للحكم على احــد كبــار موظفي الامبراطورية ، ولا على ملك فارس ، دون ان يستمع الى الاول وان يعرف الاسباب الحقيقية التي جعلت الاخر يتصرف هكذا .

غير ان كريم الذي كان يبغي ذريعة لكي يشن الحرب ، وكان يعرف جيدا انه لن ينال حظوة لدى اولئك الافراد الا بالاستيلاء على بغــداد والبصرة (٢٥) ، وعلى الأماكن التي تضم رفات أكرم الأولياء ، نراه يجهز جيشا مكونا من خمسين الف رجــل ، عهد بقيادته الى اخيــه صادق خان ، وامره بالتوجه الى البصرة وضرب الحصار عليها .

ولما علم سليمان متسلّم البصرة باستعدادات كريم خان ، جمع بسرعة مؤونة وذخيرة تكفي لمدة سنة . وسلّح نحــو خمسة عشر الف رجل من والانكشــارية ، وكان يمني نفســه ان يتمكن بهــم : اما من

---

(٢٤) وبالاصل الفرنسي : quatre piastres .

(٢٥) يذكرهم اوليفييه في هامش هكذا : علي (رض) صهر محمد (ص) ، وحسين بن علي (رض) ، وموسى من آله وذريته ، وغيرهم .

رفع الحصـــار ، او الانتظـار حتى تتم اية محاولة من قبـــل الباشا (٢٦) فيرسل لهم المعونة . لقـــد كانت اسوار المدينة جيدة رغم انها من طين ، وهي محصنة بمائة مدفع ذات عيارات مختلفة، كما انها كانت محاطة بقناة عريضة متصلة بالنهر . وكان الاهالي كلهم مستعدين لدعم حاكمهم الذي كانوا يقدرون مهارته ويمتدحون مزاياه الخلقية .

كانت البصرة تضم يومذاك داخـــل اســـوارها اكثر من اربعين الف نسمة . اما اليوم فلا يكاد يوجد فيها خمسة عشر الفا . اما نطاقها فاوسع بكثير من سكانها ، اذ يبلغ عرضها الفاً وخمسمائة او الفاً وستمائة خطوة هندسية على امتداد شط العرب، وطولها ثلاثة آلاف خطوة من المسافة (٢٧) . ولا يكاد يكون ربع هذه المساحة فقط مشغولا بالبيوت ، اما الباقي فليس فيه سوى حدائق وسهول مزروعة بالقمح والقطن او مغروسة بالنخيل .

وتدخل ضمن النطاق المذكور ، الضاحية او القرية المعروفة باسم المناوي (٢٨) ، وهي واقعة الى جانب النهر ، ولها سور محصن ايضا . اما البيوت التي تشكل البصرة بالمعنى الدقيق فهي التي على بعـــد نصف فرسخ من النهر . منذ ان تهددت المدينة بالحصار ، حمل الانكليز ما يملكون على متن ثلاث بواخر انكليزية كانت راسية في الميناء ركبوها باجمعهم ونشروا الاشرعة وابحروا الى بومباي . اما الرهبان الكرمليون وممثّل الشركة الفرنسية الهنـــدية وبعض الايطاليين الذين تحميهم فرنسا فقد مكثوا في المدينة ولم يقدموا على الهرب ، ولم يلحقهم اذى ، لا من قبل الاتراك ابان الحصار ، ولا من قبل الفرس بعد استيلائهم على المدينة .

---

(٢٦) يقصد عمر .

(٢٧) يحيل اوليفييه في هامش الى رحلة نيبور ، ويشير الى خارطة البصرة التي وضعها . ويضيف : تقع هذه المدينة على الضفة الغربية من شط العرب ، على بعد ١٥ فرسخا من المصب (في الخليج) ، وعلى ٣٠ درجة و ٣٠ دقيقة من العلو الشمالي .

(٢٨) ووردت بالفرنسية : Ménavi (المنّاوي) .

وكان كريم خان قـد سلّح في موانىء الخليج ثلاثين قاعدة بحرية محملة ببضعة مدافع ، كان تستطيع ضرب المدينة من الماء ، وتسند محاولات الجنود الذين يقاتلون في البر . فدخلت البوارج المياه في اواسط جرمنال(٢٩) سنة ١٧٧٥، ووصلت مقـابل البصرة في نفس الوقت الذي وصلت فيـه العساكر .

وكان للسلطان في البصرة قائد (قبودان باشا) يقـود اسطولا صغيرا مكونا من خمسين زورقا (٣٠) او قوارب صغيرة حربية على هـذا الضابط ان يحمي بها التجارة ، ويمنع ظهور اية قرصنة في الخليج وشط العرب ودجلة والفرات . غير ان هذا الاسطول كان في حالة يرثى لها ، فلم يكن باستطاعته مقاومة القواعد المدفعية . لذا تمكن صادق خان من الاستيلاء عليه وتدميره ، قبـل ان يتمكن الباشا القائد من القيـام بابسط محاولة لاستخدامه او التمكن من انقاذه، وقد كان الامر سهلا لو انه استطاع ادخاله الى القناة الداخلية التي تخترق جزءا من المدينة ، منطلقة من النهر في اعالي المناوي .

وعـلى الرغـم من شراسـة الفـرس ومـا كان لهـم من مـدافع ذات حجم كبير ، وشخصان اوربيان لتسييرها ، فان الحصار دام طويلا، وذلك بسبب استعدادات المتسلم الجيدة ، وخاصة بسبب سخف منجمي الجيش (الفارسي) ، فقـد كانـوا يستفسـرون منـهم في كل عما اذا كان المدفع قد اصاب الهدف ، فيجيبونهم بانهم يقرأون في السماء بان ساعة الهجوم العام لم تحن بعد ، بينما كان العثمانيون يصلحون اسوارهم خلال ذلك ، ويتخذون التدابير لصد الفرس الذين لم يكونوا ليجرأوا على على التقدم .

---

(٢٩) انه الشهر السابع ، يبدأ في ٢١ ـ ٢٢ آذار وينتهي في ١٩ ـ ٢٠ نيسان .

(٣٠) القواعد الحربية والزوارق والبوارج والمدافع وردت لدى اوليفييه هكذا : taknès, galvettes, canons

وعند وصول اولى انبـــاء هجمات كريم ، تسلم باشوات الموصـــل ووان وديار بكر وحلب ودمشق الامر بالسير الى بغداد بالقوات التي لديهم. وكان يفترض بانهـــم سينضمون الى عمر ويعملون معـــه بانسجام لرفع الحصار عن البصرة ، غير ان تعليماتهم كانت تدعو الى ارضاء ملك فارس لذا نراهم عند وصولهم الى بغداد ، يقطعون رأس الباشا ، ثم يعودون الى ولاياتهم دون القيام باية محاولة لانقاذ البصرة .

وعندما علم كريم بموت عمر ، بدا وكأنه قد رضي ، فاقتنع بسحب قواته من الاراضي العثمانية . لكن جيش صادق لم يتخذ اي اجراء لتنفيـــذ الامر واستمر الحصار ، بل زاد من تصعيد حدته .

لم يكن الباب العالي قد احس بان اجهازه على عمر والتضحية بباشا من المرتبة الاولى وذي مسلك غير ملوم ، انما يشجع وجهـــة نظر كريم ، ويقدم له الذرائع للسيطرة كما كان يتمنى على ضفاف دجلة والفرات ، من هيت فبغداد وحتى الخليج . لذا فان الباب العالي قد اخطأ في حساباته ، مع ما في ذلك من خسارة للبصرة ، اذ لم يعد ثمة مجال لتجنيـد جيش يسير للذود عن تلك المدينة .

وكانت قد انقضت ثلاثة عشر شهرا ولم تصل الى المتسلم اية مساعدة أو خبر من قبل باشا بغداد ، فاستنزفت المؤن وشح العتاد وخيم شبح الجوع قاسيا على المدينة . وابدى مجلس المتسلم المنعقد مرات عديدة بان صمودا اطول لن يضيف شيئا الى مجد المدينة ، بل سيؤدي الى هلاك عدد كبير جدا

دخـــل صادق خان المدينة في اواسط ايار ١٧٧٦ ، وقبض على المتسلم وموظفيه الكبار ، وارسلهم الى ملك فارس ، وفرض ضريبة باهظة على السكان . واستعادت التجارة مجراها الاعتيادي حالا ، وساد المدينة الهدوء ، فلم يتأخر الانكليزمن العودة اليها ، واستعادة مشاريعهم التجارية .

ظلت البصرة تحت سيطرة الفرس الى ان مات كريم سنة ١٧٧٩ ، فانسحب منها صادق الذي كان يمني النفس بان يخلف أخاه ، وقد عاد الى بلاد فارس ، فارسل حسن باشا والي بغداد يومذاك ، متسلماً تولىّ ادارتها فورا ، وذلك باسم السلطان .

وبعد موت كريم وجلاء الفرس عن البصرة اطلق سراح سليمان ، وسمح له بالعودة الى تركيا . وكان مسلكه الحسن قد جعل انظار الباب العالي تلتفت اليه ، فقد حظي في البصرة بتقدير ممتاز ، كما انه اتصف بالذكاء والاستقامة ، وذاع أمره في بغداد وفي الولاية كلها . بينما كان حسن(٣١) لا يرضي الكبار ولا الشعب ، كما انه لم يكن يرضي الباب العالي . وكان يظلم البدو ، ويضيق على الاكراد . اما سليمان فكان يسايرهم جميعا ، لذلك نال رضاهم ، وبما انه كان قد وقع بالاسر بسبب اخلاصه ، فقد كان حقا الشخص الذي يناسب الباب العالي اكثر من غيره ، لذلك تسلم الطوغات الثلاثة (٣٢) ، وعيّن واليا على بغداد سنة ١٧٨٠ .

---

(٣١) حسن اغا (ثم باشا) كان كهية سليمان باشا أبي ليلة ، ثم أصبح حاكماً في ماردين وعين والياً على شهرزور والموصل ثم عين والياً على بغداد في ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م) فبقي فيها سنتين في حكم مضطرب ، وتخلى أثناءها الفرس عن البصرة لوفاة كريم زند . ولكنه اضطر الى الفرار من بغداد الى الموصل بسبب الاضطرابات التي حدثت ، ونقل الى ديار بكر حيث توفي .

(انظر أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث والموصل في العهد العثماني) .

(٣٢) أي انه أصبح باشا بطوغات ثلاثة (trois queues) أي برتبة وزير .

سليمان باشا واحمد اغا :

وسليمان شان اسلافه لم يتسلم منصبه الا بعد اتخاذه كل وسيلة للبقاء في هذا المنصب ، لكنه تحاشى ان يثقل الشعب بالضرائب او يستبد ، كما يفعل معظم الباشوات الاخرين ، بل على العكس من ذلك طبق سياسة التخفيف عن الطبقة البائسة ، ومنع موظفيه الرئيسيين من ارتكاب المظالم او ممارسة الاستبداد ، ولم يتحمل أن يظلم الاعراب ؟ في الرافدين ، كما انه شجع التجارة وعمل على حمايتها بسائر الوسائل المتيسرة له ، دون ان يفرض اي رسم جديد ، فسهر على أمن القوافل وقدمّ القروض بدون فوائد لتجار لحق بهم مكروه ، او لمن كانوا ينوون القيام بمشاريع مفيدة . لذلك خشيه أفراد العصابات ، فانه قاومهم دوما بنجاح ، ومنذ اللحظات الاولى لارتكابهم اعمالا لصوصية أو محاولتهم التهرب من الضرائب الخاضعين لها . فنال بحنكته هذه تقدير جميع رجال الحرب ، لان الهدوء الذي أحلّه في بغداد ، والعدالة التي سادت فيها ، جعلت الناس يتعلقون بشخصه ، ويباركون حكمه . ولم يكن للباب العالي اي مأخذ عليه ، بل كان راضيا عن سلوكه ، فقد كان يبعث بالواردات المرسومة على الباشوية في اوقاتها المعتادة . كما انه اقام في الاستانه عاملا يخبره بكل ما يحاك حوله ، ولم يهمل قط تقديم هدايا سنوية معتبرة لمختلف أعضاء الديوان لكي يدعموه في منصبه الذي يتقلده .

برهن هذا الباشا المحنك ، بكثير من الحذق ، وفي كل الظروف على شجاعة كبيرة ، كما اظهر في جميع مواقفه قوة وفاعلية ، اذ اهتم بدقائق شؤون ادارته ، فكان يستمع بنفسه الى شكاوى البؤساء ، وكان يهمه الاطلاع حتى على القضايا المرفوعة الى محكمة العدل .

ومع ذلك فان سليمان هذا الذي لم كان قد بلغ من العمر ستاً وستين سنة ، انتهى بان امسى شبه باشا ، او كأنه دمية تلبي ما يريده الآخرون ، اذ لم يعد يتكلم ، أو يعمل الا بواسطة وبايعاز من مملوكه احمد . بل ماذا اقول ؟ لقد كان هذا الاخير يعفيه حتى من المشاركة في ابرز امور الادارة .

استبداد احمد اغا(٣٣) :

كان احمد قد ولد في بغداد من ابوين فقيرين ، لكنهما شريفان . كان ابوه سائس سليمان يوم كان هذا متسلما في البصرة . أجهد نفسه اوضع ابنه في حاشية سيده . ولم يكن احمد قاصرا في الحذق والذكاء ، بل كان خفيف الروح ، مرح المزاج ، جميل الصورة ، لذا أعجب به المتسلم وقبله . فمكث في بغداد طيلة المدة التي كان فيها سيده المتسلم اسيراً ، وعاد الى خدمته بعد اطلاق سراحه . فلما عين سليمان باشا واليا على بغداد ، اهتم بتثقيفه ، وكان يبقيه دوما قريبا منه . وبفضل سلاسة روحه ، وسرعته الكبيرة في العمل ، تمكن احمد بخضوعه التام وتجرده التام عن رغباته الذاتية ، من كسب الحظوة عند سيده فأعزه كولده . وينبغي ان تبقى النعمة دوما التزاما للطرف الثاني . ولما كان الباشا راضيا جدا عن عمله ، لم يتردد عن القيام بشيء اعظم ، اذ بعد ان جعله يتدرج في جميع مواضع الشرف والمناصب المريحة ، قرر ان يرفعه الى درجة شريفة هي درجة كهية ، واوفد تتريا الى القسطنطينية فطلب له من الباب العالي لقب باشا من الرتبة الثانية (٣٤) فجاءت الموافقة من االسلطان .

---

(٣٣) احمد اغا (ثم باشا) كان من موظفي سليمان اغا (ثم باشا) متسلم البصرة واسر معه في ايران ، ثم عاد معه ، وعندما عين سليمان والياً على بغداد سنة ١٧٨٠ م جعله (مهردار) ثم كتخدا ، ومنح رتبة الميرميران (باشا) . وكان له نفوذ كبير ، وحدثت له منازعات واصطدامات مع سليمان الشاوي رئيس عشيرة العبيد ، ثم اغتاله (الخزنه دار) علي اغا سنة ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) ، ويروي مؤلف دوحة الوزراء ان ذلك كان بأمر سليمان باشا بينما يذكر سليمان فائق انها لم تكن بعلم الوالي وموافقته .
(دوحة الوزراء ، تاريخ بغداد الكوله‌مند ، العراق بين احتلالين ج ٦ ، وأربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) .

(٣٤) أي ذو طوغين ، وهو ميرميران . والكهية ، الكتخذا ، أكبر منصب في الولاية بعد الوالي .

وكان من المفروض ان احمد اغا قد اشبع رغائبه كلها ، مؤقتا على الاقل ، لانه بعمر ست وثلاثين سنة وصل الى احد المواقع الرئيسة في الامبراطورية (العثمانية) ، وغدا صاحب ثروة معتبرة ، ومتمرسا في فن الادارة الصعب . وضمن بفضل امواله رضى الشعب وارتياح رجال الحرب بان يخلف يوما المحسن اليه ، فهلا يكون سعيدا بحظه هذا ، وقانعا بمستقبل مشرق مرسوم امامه بوضوح ؟

ولكن ...هل من حدود لطموح الانسان ؟ وهل تتوقف النزوات عن تعذيب من لا يعرف ان يسيطر عليها مبكرا ؟ ...

لقد نسي احمد ما لسليمان من افضال ونعم عليه ، بل ما له هو ذاته من واجبات تجاه نفسه ، لم يعتبر نفسه الا القائم مقام الباشا ، بحيث استحوذ تدريجياً على السلطة كلها ، واهمل إخبار الباشا بتفاصيل القضايا الادارية ، واخذ يصدر الاوامر باسم سيده حتى على غير علم منه . وفرض بان لاتمنح اية مساعدة مالية ، او اي فضل ، الا بطلب يرفع اليه ، كما امر بعدم انزال اي عقاب الا بأمره ، واية وظيفة انما تعطى او تباع للذي يحميه هو نفسه .

وبكلمة ، فان الباشا انخفض الى درجة الصفر ، بينما شوهد الكهية وكانه أقوى منه بكثير ، بحيث انه لم يعد في وسع اي كان في بغداد ان يتوجه الى سليمان مباشرة في اية قضية دون اعلام احمد بذلك مسبقا ، وبدون اخذ موافقته .

وقادت هذه الحالة نشوء عاطفة لا دخل للتفكير فيها ، والى قيام ثقة لا حدود لها ، الامر الذي جعل الشعب والحامية يتشكون احيانا من الوضع ، لانهم لم يكونوا يرون في الكهية الطيب والعذوبة واللطف الذي كان لسيده ، فقد كان سليمان عادلا كريما متجردا ، بينما لم يكن احمد يحامي

سوى اصحابه ، وسلك كل سبيل للغنى . لقد حصل سليمان على منصبه بمهارته وقابلياته ، اما احمد فان الصدف هي التي لعبت كثيرا في حصوله على نعمته أكثرتلك من ذكائه . كان سليمان رجل حرب ، اما احمد فلم يكن كذلك ، او على الاقل فانه لم يصادف خطرا حقيقيا في حياته ، وفي بلد لا يحكم فيه المرء الا من اجل الحملات العسكرية ، اذا صح القول ، بحيث ان الاشد مهارة هو من يشن حملات اكثر ، فيستحق عندئذ ان يكسب اكثر من التقدير الاعتيادي .

واشتد تذمر الناس عندما علموا بان الكهية قد عرض على الباشا ان يطلب له من الباب العالي ثلاثة اطراغ . وعندما عرفوا بانه كان يحثه حتى على التنازل له عن مقاليد الحكم ، وعلى اعتزاله في قصر منعزل ، والعيش عيش الدراويش . وكان احمد يبرر طلبه بحجة انحراف صحة سليمان ، وتقدمه في السن ، وحاجته الى حياة هانئة خالية من كل هم .

ولم تكن هذه العروض غير المناسبة لتزعج الباشا ، ولا لتقلل من مشاعر التقدير والعاطفة التي كان يكنها لمن اصبح يستحقها منذ مدة قصيرة فحسب ، لذلك كان الباشا يكتفي باخبار الكهية بانه قد اتخذ اجراءات تجعله يخلفه بعد موته ، وهذا ما يكفيه .

شفاء سليمان من مرضه :

ثم مرض الباشا فجأة ، ولم يعرف سبب مرضه ، واصاب المرض قواه العقلية قبل كل شيء ، اذ كانت تصيبه اغماءة يعقبها وجع برأسه فتنتابه السوداء ، ويعجز عن القيام بالعمل ، فابتعد عن جميع انواع الملاذ ، وكره كل الامور التي كان يحبها سابقا ، وسرعان ما تعطلت المعدة عن اداء وظيفتها ، وآذاه الالم كثيرا ، واعتراه نحول مستفحل .

وظن الاشخاص الذين اهتموا بصحته بان التمرين وهواء الريف والابتعاد عن جو العمل ستساعد على استعادة صحته اليه ، اكثر مما فعل الطبيبان الفارسيان مع كل الادوية التي قدماها له . وكنا يومذاك في الموسم الذي ينتقل فيه الباشا مع قسم من حرسه الى اراضي الاكراد لجباية الضرائب ، وكان على الباشا ان يجبر نفسه على ذلك . فلحق به الكهية ، وموظفوه الرئيسون . غير أن ركوب الخيل ، والهواء المتوفر ، واللهو لم تفلح كلها في تحسين صحة الوالي التي يتمناها الحرس والشعب . وبعد غياب عشرين يوما ، عاد سليمان الى قصره مريضا ، كما كان في السابق .

كنا قد وصلنا بغداد منذ اربعة ايام ، وكنا شهدنا اهتمام التجار واليهود والارمن بالباشا ، ولاحظنا الكاثوليك يقدمون االنذور لسلامة حياة الباشا ، وألفينا الاتراك والبدو الذين كانوا يرتادون بيت مسؤول العلاقات التجارية (الفرنسية) وميتم الكرمليين (٣٥) ، قلقين جدا . ومما زاد في ارتباك جميع السكان واستغاثتهم انه لدى عودة الباشا ، اشيع في كل مكان بان الطبيبين اللذين كانا مقيمين عنده أعلنا بصراحة دنو أجله قريبا ، وحتى المنجم عند استشارته اكثر من مرة ، زعم انه يقرأ في النجوم تأييدا لهذا المصير المحتوم .

كل الشك في اننا كنا حقا مستعجلين لتهيئة مايلزم للسفر الى بلاد العجم ، فاننا رغم كوننا غرباء ، وقد وصلنا حديثا الى البلد ، كنا نرى بوضوح ان ثمة عاصفة تشتد ، وستسوقفنا مدة طويلة في هذه المدينة . لم يشك احد بان موت الباشا سيأتي الى الساحة بعدة احزاب ،وستنشأ فوضى تامةفي المنطقة كلها حتى ينتصر احد الاحزاب نهائيا على سائر الاحزاب الاخرى ، وحتى ينال أحدهم فرمان التولية من الباب

---

(٣٥) في محلة السنك ، بين الخلاني وشارع الرشيد .

العالي ، كان الكبار يتناحرون ، واليبنجرية يقرضون اسلحتهم لقاء ترفيعهم في المناصب،وقد استعد البدو والاكراد واليزيديون لسلب القوافل ، والمدينة مهددة ، والتجارة متوقفة .

لكنهم كانوا يتوقعون فوز حزب الكهية ، لان الديوان كان ميالاً اليه . فان موت الباشا المحتوم سيجعله سيد الحرس ، كما ان امواله تضمن له الينجرية ، وكان – حسبما قيل – ذا علاقات جيدة مع الاكراد والبدو .

كان علينا رغم ذلك كله ان نسلم الى الباشا رسالة الوزير(الصدر الاعظم) ورسالة المواطن (الفرنسي) فيرنيناك (٣٦) مبعوث الجمهورية الفرنسية في الاستانة التي كتبها في صالحنا . ولذلك انضممنا الى المواطن روسو الذي كان يرى أن نسلمها نحن بانفسنا الى الكهية ، لكي نحصل على موافقة على سفرنا ، وتزويدنا برسائل موجهة الى بلاط فارس . حين علم الكهية بمخططنا من القنصل ومترجم النيابةالفرنسية(٣٧)اعلمنا انه يستقبلنا بفرح. فذهبنا اليه في الساعة المحددة مع المواطن روسو فاستقبلنا بكل احترام كما توقع فعلا وكيل العلاقات التجاريةواشخاص آخرون فرنسيون . وبعد عبارات المجاملة الاعتيادية سألنا الكهية عدة أسئلة حول سفرنا الى فارس ، ثم ارسل فرماننا ورسائلنا الى الباشا

---

(٣٦) كان الفرنسيون ينادون بعضهم بـ (مواطن) في عهد الجمهورية الفرنسية الاولى . وقد ورد اسم هذا المواطن الفرنسي : Vérninac

(٣٧) روسو M.Rousseau دبلوماسي فرنسي ، قال عنه الرحالة الانكليزي جاكسون الذي زار العراق سنة ١٧٩٧ انه ينتسب الى عائلة الاديب الفرنسي المعروف جان جاك روسو ، وقد تولى منصب القائم بالاعمال الفرنسي في بغداد وذلك في الفترة ١٧٥٩ – ١٨٠١ ، ووضع كتابا مهما سماه (وصف باشوية بغداد) وطبعه بباريس سنة ١٨٠٩ . انظر رحلة جاكسون الى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي ، بغداد ١٩٦٢ .

بواسطة ديوان افندي (٣٨) دون ان يفض الرسالة . ولم يتأخر الباشا من ارسال ديوان افندي طالباً منا ان نزوره . فلقـد كان فرماننا والرسائل التي نحملها تذكر بانني طبيب ، وهذا ما دفع الباشا ان يحرص كثيرا على رؤيتي لاستشارتي بحالته . وقد اضاف الكهية حينئذ مطلبه الى المطلب السابق ، الامر الذي اتاح لي ان اعود اليه لكي اعلمه بما توصلت اليه بشان مرض الباشا .

شاهدته في حال تدعو الى القلق ، فقد كانت الحمى شديدة جدا ، واللسان يابساً ، اسود ، ومشقق ، والبطن فيها امساك ، وكانت أزمة حادة قد اصابت شعوره بحيث ان الطبيبين والمنجم لم يتورعا عن الانباء بدنو أجله ، الامر الذي زاد من مرضه ، وكانت الادوية التي يتناولها تعجل انحلاله ، اذ انها كانت مكونة من معجون الافيون المركب فيما قيل لنا من : افيون وبادزهر والمحار وعصير رمان وليمون حلو (٣٩) . وكانوا يعطونه كوجبة اكل شيئا من الرز والزبد ، ويسقونه الماء الصافي ، والعنبر والمسك المعطّرين بالانبيق (٤٠) .

سألنا الباشا بكل اهتمام عما ننصحه به ، وطلب منا ان نقصده مرارا فنعاينه قدر استطاعتنا ، وألح خاصة ان نكتب له على الفور الادوية التي نرى انها افضل للتخفيف عنـه . فذكرنا للباشا باننا مستعجلون في الذهاب الى حيث وجهة سـفرنا . فقال لنا : اذا رأيتم التعجل في السـفر ، فان فرمانكم سيكون جاهزا خلال يومين ، لكنكم في فترة الانتظار هذه يمكنكم اسداء النصائح لي ، فهي السماء التي ارسلتكم الى هذه المدينة ، لانها لا تشاء موتي .

---

(٣٨) وردت في الاصل divan - eféndi وهو مصطلح عثماني يعني رئيس الديوان .

(٣٩) أسماء هذه العقاقير في الاصل :
opium, bézoard, perles, jus de grenade, limons doux.

(٤٠) وردت هكذا : sorbets aromatisés, ambre, musc

كنا نود ان نسرع في مغادرة بغداد والتوجه نحو بلاد فارس ،لأن ذلك افضل من قيامنا بعلاج غير مضمون ، وافضل من المكوث على تل محفوف بالخطر . ولكن كيف نقوى على ترك رجل بامكاننا انقاذه ؟ وكيف نغضّ الطرف عن دموع كل الذين هم حواليه ؟ .

كان برفقتنا رجل فرنسي اسمه اوتري (٤١) يسكن بغداد منذ زمن بعيد ، وكان يمتهن الطب ، كما كان يمارس التجارة . وكان قد رافقنا الى الكهية وبصفة مترجم . فعرضنا على الباشا ان يضمه الينا بسبب صعوبة الحصول على ما قد نحتاج اليه ، سيما ونحن لا نجيد اللغة العربية . فوافق الباشا على ذلك بكل طيبة خاطر . كما اننا اقترحنا عليه ان يستدعي الطبيبين اللذين عالجاه حتى الان ، لكنه لم يكن يريد ان يسمع شيئا عنهما ، اذ فقد كل ثقته بهما بعد ان قطعا الأمل من شفائه . لقد كان طبيعيا اعطاء الاولوية للذين يطيبون خاطره اكثر ممن يقطعون الأمل بشفائه . وقبل تركنا المريض ، اخذنا منه وعدا بان لايأخذ أدوية عدا التي نصفها له ، فوعد ، وبرّ بوعده ، وعليه ان لا يتناول اية وجبة طعام الا التي كانت نساؤه يعددنها له داخل بيت الحريم .

تركنا الباشا في حالة امل بأن وضعه ليس خطيرا جدا ، وانه بفضل ادويتنا سيستعيد عافيته . لقد كان هذا املنا ، لكننا استعملنا الفطنة لدى رؤيتنا الكهية من جديد ، فلم نتلفظ بشيء ايجابي بل اكتفينا بالقول ان المريض في حالة الخطر الشديد ، ولكن لا ينبغي أن نقطع الأمل من الشفاء .

رأينا الباشا صباح اليوم التالي ، فكانت صحته افضل بكثير ، والامل بالشفاء الذي كنا قد عللنا النفس به قد أسبغ عليه بلسما شافيا ، ولعل انقطاعه

---

(٤١) ورد اسمه بالاصل الفرنسي هكذا : Outrey

عن تناول المخــدرات التي كان يأخــذها حتى يومذاك ، كان كافيــا لاراحة جسمه ، وكذلك الاكل الاخف والاكثر ملاءمة لحالته ، والشراب المسهل ، وبعض الادوية التي كنا نستبدلها بحسب الحالة ، فترطب الفم ، كل ذلك جعل انتفاخ البطن يختفي ، وتسكن الحمى ، فاصبح نومه أهنأ ، واستعاد قواه وشهيته ، فتمكنا حينذاك من التصريح بان شفاء الباشا بات عاجلا ، وفعلا فانه خلال عشرة ايام ركب الفرس واظهر نفسه للشعب الذي كان يطالب برؤيتـه .

بعد يومين من ظهوره الاول للناس ، ذهبنا اليه صباحا كعادتنا يرافقنا المواطن اوترى ، فلقيناه مع الكهية وديوان افندي (رئيس الديوان) . لقد كانا بعيدين عنه كثيرا ، وفي وضع احترام كبير ، اي راكعين (٤٢) ، وما ان جلسنا ، انا وبروكيير على قرميد كانوا قد وضعوه لنا الى جواره . حتى أشار الى الكهية والى ديوان افندي (رئيس الديوان) ان يتقدما ، فتقدما حالا لكنهما اتخذا نفس الوضعية السابقة .

لقد رأينا الباشا في احسن حال ممكن . كان قد نام جيدا ، ونبضه ممتاز وقواه مستعادة ، وشهيته مبكرة جدا . حدثنا عن صحته بارتياح ، وقال لنا ممتدحا بثناء كبير ، ووعد بانه لن ينسى انه مدين لنا بحياته . وقداضاف الكهية كيلا الى المديح الذي كاله لنا ، وشهد لنا بطريقة عميقة ومستقيمة كم ان الجمهور ، وهو بنوع خاص ، مدينون لنا بسبب شفاء سيــدهم السريع . ودار الحديث حول مواضيع أخرى أقل أهمية .

عند خروجنا من حضرة الباشا . تركنا المواطن اوترى ذاهبــاً الى بيت

---

(٤٢) يصف اوليفييه وضع الركوع فيقول : الجلوس على العقبين ، واليدان على الفخذين ، تغطيهما أكمام عريضة من القماش ، يدعوه اوليفييــه : béniche . وهذا الجلوس ، هو الركوع أو السجود كما يسميه اوليفييه .

الحريم ، فقد كان عليه ان يوصي بالطعام لمريضه ، كما كان يفعل كل يوم ، وبقينا نحن ننتظر في منزل المواطن اوتري لكي ننعم ببضع ساعات بطيب مناخ منزله الواقع على دجلة ، وذلك طيلة الصباح . وارسلنا جيادنا مع خادمنا الى المواطن روسو ، على امل ان نمضي نحن فيما بعد سيرا على الاقدام .

مقتل احمد اغا :

لم تكن قد انقضت ست دقائق على وصولنا الى منزل السيد اوتري ، حين رأيناه يصل منفعلا ، وببالغ الصعوبة استطاع ان يتلفظ بان الكهية قد قتل بأمر من الباشا . فاشتد تعجبنا ، لاننا كنا مقتنعين ، كسائر الجمهور ، بان ثمة علاقة حميمة قائمة بينهما ، وقد تركناهما معا في جو تفاهم كبير ، ورغم ذلك فان الكهية قد قطع رأسه بأمر المحسن اليه وتحت ناظريه . وما أذهلنا خاصة هو قول أوتري بعدم ظهور أية اشارة انفعال أو تأثر على الباشا .

بعد أن استعاد المواطن أوترى هدوءه ، وكان حاضراً موت الكهية ، اعلمنا بتفاصيل ماحدث . عند عودته من دار الحريم واجتيازه الفناء الكبير الذي يقع فيه ديوان الباشا لاحظ في أسفل الدرج المفتوح الذي يؤدي الى الديوان جماعة رجال مسلحين جلبت انتباهه ، وعندما اقترب تملكه الرعب اذ شاهد الخازندار (٤٣) خارجاً من وسط الغرفة وبيده خنجر ، وميز بكل وضوح الكهية وهو ممدد ميتاً فوق الارض مضرجاً بدمائه . ورأى في الوقت عينه تلك الجماعة التي كانت نظرة واحدة منه تخيفهم سابقاً ، يمتهنون الان جسده ويعرونه ، اذ لم يتركوا عليه سوى القميص واللباس ، كما كانوا يسحبونه من رجليه حتى الفناء الاول للقصر حيث بقي معروضاً قسماً من النهار . .

(٤٣) Khasnadar مسؤول الخزينة او مدير المالية . وهو علي اغا .

وقد حاول المواطن أوترى ان يعرف السبب الذي أوجب هذا الحادث ، الا انهم لم يجيبوه الا بتكهنات . قيل له بأن الخازندار أصاب الكهية من الخلف بأول طعنة في أسفل الدرج ، وان الربيب عندما احس بأنه قد طعن ، رفع يديه نحو الباشا وهتف : « امان ، امان افندي ، أي رحمة ، رحمة سيدي . . . » (٤٤) .

فرأى المواطن اوتري انه من الأفضل ان ينسحب فوراً ويلحق بنا. وفتحت أبواب السراي التي لم تكن لتفتح ، على ماأظن ، لو انه بلغها قبل دقائق اربع . ومنذ خروج المواطن أوتري ظلت الأبواب مشرعة ، ودخل الشعب متجمهراً ، طيلة النهار ، الى الفناء الاولي الذي في القصر ، لينظر الى ذلك المنظر الشنيع .

انتشــر خبر هذه الحادثة في المدينة كلهــا حال وقوعها ، مع شيء من التباين ، إذ أنه أشيع موت الباشا ايضاً . لذلك كان المواطن روسو الذي بلغه النبأ على هذه الصــورة قبــل وصول خادمنا قلقاً جــداً على مصيرنا ، إذ كان يظن بأننا مانزال في الســراي ، فارتبك كثيراً وأسرع بارسال حارسه ، وامره بأن يقودنا اليــه ان كان ذلك ممكنا ، والا فالعودة سراعاً لاخباره بما يحدث . ولكن سرعان ما خف قلقــه حين علم بأننــا عند المواطن اوتري . لكنه لم يكن قد عرف بعد ما حدث ، نظراً لسماعه من بعضهم بأن الباشا قد مات ، ومن آخرين انه الكهية وحده ، فرجانا ان نذهب اليه ، فنحن هناك ، حسب ظنه ، مهما كان الحدث ، في مأمن أكبر مما في أي مكان آخر .

وعند ذهابنا الى منزل المواطن روسو ، شاهدنا الدكاكين مغلقة ، وخلنا

---

(٤٤) وردت هكذا : Aman ! aman ! éfendi ! . واوليفييه دقيق في وصف هذا الحادث وتفاصيله .

انـــا نلاحظ سجسا كبيراً . كما صادفنا في أماكن مختلفة أناســاً مسلحين وهم يســيرون بســرعة غير معتــادة في بلاد الـدولة العثمانيــة . غير ان هذه الجلبة وهذا السجس لم يدوما طويلا ، اذ انه تنفيذاً للاوامر المعطاة من قبل سليمان ، ركب حرس الاغا الجياد وقطعوا الشوارع الرئيسة ، وأعلنوا في كل مكان بأن الباشا في صحة جيدة ، وأنه لم يحدث أي شيء في القصر ماعدا اعدام الكهية بطريقة عادلة وناجعة ، وان الباشا يأمــر بالاعــدام كل من لا يفتح كل دكانه وينصرف الى اعماله . وانتشرت عدة قطعات من الينيجرية للغرض عينه في جميع أحياء المدينة .

وعاد حالا كل شيء الى نظامه المعهود ، ولم يعد هذا الحدث سوى حادثة اعدام عادية استحقها الكهية الربيب بسبب سلوكه . ومع ذلك فقد كان الناس يستنفذون التكهنات حول اسباب موته ، فكانوا يرون بأن طبع الكهية الربيب هو السبب ، لكنهم كانوا يجهلون ماالذي دعا الباشا في الظروف الحالية الى ان يعامل بتلك القسوة رجلا طاب له خلال ثلاثين سنة ان يغدق عليه افضاله .

وقد علمنا حقيقة الامر في ذلك اليوم من خلال ضباط الحامية المتقدمين .

قبل الحادث بأيام ، كان الباشا قد تسلم من الباب العالي فرمان تثبيته لمـدة سنة أخرى ، كمــا هي العادة في الدولة العثمــانية كلهــا . وقــد كان التترى الذي اتاه به يحمل رزمة لم يكن له ان يسلمها الا بيـد الباشا نفسه . لقد كانت مرسلة من قبل رجل الاعمال الذي قد جعله الباشا في العاصمة . كانت تحتوي الرزمة هذه على الرسائل التي كان الكهية يكتبها الى الباب العالي يطلب فيها ان يحل محـل المحسن اليه ، ولدعم طلبه كان يضفي على تلك الرسائل قيمة كبيرة الى الخدمات التي كان يقدمها منذ زمن طويل الى الباب العالي ، ويتحدث عن مواهبه بكبرياء ، فكان يقول انه بفضل ادارته الجيدة والمعقولة تمكن من زيادة واردات الباشوية بشكل ملحوظ ، وانه يتمكن بالتالي ان يجعل مقدار الضريبة الاعتيادية اعلى بكثير

مما هي عليه ، كما انه كان يقدم مؤقتاً مبالغ محترمة ، ثم يسترسل مطولا في وصف عدم أهلية سليمان منذ اصابته بمرض نفساني سينتهي به ، حسب رأي الاطباء ، الى القبر .

عندما قرأ الباشا هذه الرسائل قرر فوراً معاقبة ذاك الذي رعاه بالموت ، وقد كان له الحق في ذلك بصفته وزيراً ، وكان الكهية مستحقاً هذا العقاب لانه قام بمحاولة خيانيـــة من أبشع الانواع ، ولكن بما ان كل شيء تقريباً بيد الكهية ، لم يكن تنفيذ الامر سهلا . ولكان الامر أهون لو شعر الباشا بأبسط محاولة دسيسة تحاك حوله ، لذلك كان من الضروري اللجوء الى خدعة ، إذ إنه اغتيال خائن ، لم يكن هيناً سوقه الى منصة الاعدام . لذا كلف (الباشا) الخازندار أو امين صندوقه .

وكان قد وعده باعطائه ابنته ، كما وعده بالطوغين اللذين يحملهما من يراد معاقبته (٤٥) ، بأجراء اعدام لاتقره التقاليد الاوربية ، بينما كان يسمح بذلك الاستبداد والعادات التي في تركيا (الدولة العثمانية) . ولكي يكون أشد تأكداً من نجاح المهمة ، أشرك حرس الباشا فيها ، فهم من الأشد اخلاصاً لسيدهم .

وهكذا هلك الانسان الأشد طمعاً ونكراناً للجميل ، وقد عثر لديه على أكثر من مليون سكة (٤٦) اراد ان يستخدمها أداة للغدر .

وفي اليوم التالي ذلك الحادث كنا في السراي ، فألفينا الباشا هادئاً كل الهدوء وفي صحة جيدة ، فاعلمناه أننا في عشية سفرنا ، فعرض علينا حينئذ انه مستعد لانفاق كنوزه من اجلنا ، وقال لنا مرة ثانية : اني مدين لكم بحياتي ، ولست اقوى البتة على عمل الكثير للتعبير عن عرفاني لكم بالجميل .

---

(٤٥) أي الكهية المذكور ، فقد كان ذا طوغين أي ميرميران .

(٤٦) عملة ذهبية غير ثابتة القيمة ، استعملت في ايطاليا والشرق ، واسمها بالايطالية zecchino وبالفرنسية sequin اما بالعربية فهي السكة ، وكتبها اوليفييه : sekkah .

فاجبناه بأن تكفينا المعاملة التي نحظى بها من قبل حكومتنا ، وانئا قد نلنا التعويض بالرضى الذي تمكنا من اشاعته ، وذلك باسهامنا في حفظ حياة شخص مهم جداً لكل الناس الطيبين . واستلمنا في اليوم التالي جوادين ، وشـالين من الكشمير ، والفي قـرش كان من عـدم اللياقة رفضها . غير ان ما قدرناه أكثر من الهدايا هي تلك الرسائل التي كتبها الباشا الى خان كرمنشاه ، والى الوزراء وموظفي ملك فارس الرئيسين ، فانهـا رسائل كان من المستحيل ان نكمل مهمتنا بدونها .

ولكن ، قبل ان نترك بغداد ونسير باتجاه فارس ، ليسمح لنا ان نلقي نظـرة على بلاد ما بين النهرين ، فنـلاحظ ما فيهـا من تنوّع ، ثم نصـف اطراف بغـداد التي لم نشـاهدها جيداً الا لدى عودتنـا من فارس،لكننا ندرج وصفها هنا لكي لانبتر ماينبغي ان نقوله عن هذه الرقعة المهمة ، ثم ننهي بموجز عن التجارة الحالية لبغداد والبصرة مع داخل الامبراطورية العثمانية وجزيرة العرب وبلاد فارس والهند .

★ ★ ★

الفصـــل السادس

نظرة خاطفة بشأن بلاد ما بين النهرين ـ تقسيمها الجغرافي ـ مناخها ـ منتوجاتها ـ تاريخها الطبيعي .

بلاد مابين النهرين(١) :

عند القاء نظرة على ضفاف دجلة والفرات ، وعلى الارض الواقعـــة بين هذين النهرين ، من مكان منبعيهما الى التقائهمـا في القـــرنة ، ومصبهما في الخليج ، نلاحـــظ أن ثمة القليل من البلدان في الكرة الارضـــية تستحق اكثر منهـــا جلب انتباه الجغرافي والمـــؤرخ والفيلسوف ورجـــل الدولة . وهل توجد بلاد تفوقها في كثرة المدن الشهيرة او في كثرة ماذكر فيها من حروب ، ام في تعاقب الاقوام بشـــكل اكبر ؟ فالاشـــوريون ، والميديون ، والبابليـــون ، والارمن (٢) ، والفـــرس ، والاغريق والفرثيون ، والرومان ، والعرب (٣) ، والصليبيون ، والاتراك . كلهم

---

(١) يقصد اوليفييه بمصطلح (بلاد مابين النهرين) كما أسلفنا ، تلك البلاد التي عرفت بهذا الاسم لدى الجغرافيين والمؤرخين القدامى ، وبخاصة اليونان والرومان والسريان ، كما ذكرها أيضا المؤرخون العرب ، وكثيرا ما ميزوا بلاد مابين النهرين العليا عن السفلى . واسمها باللغات الاجنبية : Mesopotamia وبالفرنسية Mésopotamie ، وبالتسمية الاخيرة وردت لدى اوليفييه .

(٢) يركز اوليفييه على الارمن في رحلته كلها ، ويهمل أقواماً اخرى ليسوا بأقل أهمية .

(٣) يورد اوليفييه هنا ذكر (العرب) وفقا للتسميات التاريخية المتعـارف عليها قديما .

تتابعوا على هذه المناطق الغنية الخصيبة ، واجدبوها او أغنوها ، وعملوا على ازدهار الفنون او قلصوا التجارة ، او جلبوا اليها كل تجارة الشرق او سدوا عليها كل القنوات .

لكننا لن نسترسل في بحوث ليست موضوع اهتمامنا ، فلن نتناول هذه الرقعة الا من حيث الموقع الطبيعي والجغرافي والمناخي ، والتاريخي الطبيعي ، وما نراه يستحق فعلا ان نركز اهتمامنا عليه ولو للحظات .

ان بلاد ما بين النهرين ، او هذه الاراضي المنبسطة ، تمتد ما بين الرافدين (دجلة والفرات) من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، على طول مائتي فرسخ ، فيها تنوع كبير ، اما العرض فأقل امتدادا من الطول ، ويبدو انه يمكن تقسيمها الى اربع مناطق متميزة بوضوح ، سواء من حيث ارتفاع سطح الارض ، أو طبيعة الاراضي ، او المنتوجات الزراعية والمناخ .

المنطقة الاولى :

تمتد المنطقة الاولى ، او الأكثر شمالية ، من منابع الفرات ودجلة ، وتقع على ٣٩ درجة طولا والى ٣٧ و ٢٠ دقيقة تقريبا ، حيث تقع مدينة سميساط على الفرات ، وسيفيريك تحت اقدام جبل طوروس وماردين على جبل مازيوس (٤) ، والجزيرة على دجلة (٥) .

---

(٤) وردت في الاصل الفرنسي : Masius - Severek - Sémisat

(٥) المقصود جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة على نهر دجلة الاوسط ، أسسها الحسن بن عمر بن الخطاب ، التعالبي ، سنة ١٩٦١م .

كانت هذه المنطقة تشكل سابقا جزءا من ارمينيا الكبرى . وكانت تسمى سوفينا (٦) .والمدينة الوحيدة التي يمكننا ان نجدها اليوم ، اضافة الى ما ذكرنا ، هي دياربكر ، وهي مقر باشا او وال من المرتبة الاولى .

هذا القسم من بلاد ما بين النهرين مرتفع جبلي وخصب جدا . تكثر فيه الينابيع . شتاؤه بارد تسقط فيه ثلوج ، وتكثر الامطار من شهر فندمير وحتى اواخر فلوريال (٧) . وقمم اعالي الجبال وحدها مغطاة بالثلوج طيلة ايام السنة . الصيف جاف لطيف في المرتفعات بينما هو حار في السهول والوديان .

تزدهر في هذه المنطقة مراع رائعة ، وحقول فيها حبوب وثمار بكميات كبيرة ، وتزرع فيها الكروم واشجار التوت . تصدر الحرير والكثير من العفص والصمغ وشعر الماعز والصوف والعسل والشمع والقليل من القطن . وتشاهد على معظم الجبال غابات السنديان والصنوبر والسرو والقبقب والمران والكستناء والبطم . ويصنع من حب السمسم زيت للطعام ، كما يستخرج من حبوب الخروع زيت للوقود .

وفيها عدة مناجم قصدير غنية توازي تقريباً غنى المناجم التي في اطراف ارضروم وطربزون وفيها ايضاً عدد من مناجم الزرنيخ والكبريت (٨)

---

(٦) Sophena

(٧) فندمير هو الشهر الاول (٢٢ أيلول ـ ٢١ تشرين الثاني) ، وفلوريال الثامن (٢٠ ـ ٢١ نيسان لغاية ١٩ ـ ٣٠ أيار) .

(٨) هو خليط من الزرنيخ والكبريت ، وهو بالفرنسية : orpin, orpiment

ويقال ايضا انه يوجد بالقرب من كيبان وارجانا مناجم فضة ورصاص وذهب ايضـــا ، وانهم يستثمرون ذلك ويبعثون بمـــا يستخرجونه الى القسطنطينية . وفيها أيضاً عدد من البراكين الخامدة .

ان مدن وضواحي وقرى هذه المنطقة الاولى مأهولة باتراك وارمن واكراد يعملون في الزراعة والتجارة ، ويصنعون بعض الاقمشة المراكشية ، كما يحوكون بعض الاقمشة الصوفية والقطنيةو يستثمرون المناجم ،ويصنعون بعض الادوات النحاسية . غير ان الاكراد ليسوا عادة من المزارعين ، تخلو قراهم في قسم كبير من السنة ، لانهم يتنقلون شتاء مع نسائهم واطفالهم وقطعانهم الى الاماكن الأحسن اعتدالا من بلاد ما بين النهرين وكردستان ، حيث تتوفر مراع خصيبة. بينما يقصدون صيفا جبال ارمينيا وآذربيجان وفارس ، حيث يُبقي ذوبان الثلوج وبرودة المناخ في هذا الفصل على الخضرة .

دين الاكراد الاسلام ... ولهم عادات ورثوها عن آبائهم ... اختلاطهم بالاتراك قليل ، ولا يسمحون ، على قدر الامكان ، ان يتغلغل الاتراك في جبالهم ، ويمنعونهم خاصة من الاقامة في قراهم . ولا يترددون حين تسنح الفرصة عن مخالفة الرسوم التي يفرضها عليهم البـاب العالي . ان هذا الانعـزال ، وهذا الحذر ، وهذا الحقد الذي يكنون لمن يدعون باسيادهم ، جعلت الاكراد ، على غرار اجدادهم الكردو يحافظـون على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وشيءمن الحرية يبدو انهميعتدون بها كثيراً .

الاكراد أضخم جسماً وأقوى بنية من العرب . وسحنتهم أشد بياضاً ، وتكوينهم البدني أكمل . للنساء ، كما بدا لنا ، قامة فارعة ، ومحيا شديد البياض مشوب بلون صارخ ، عيونهن سوداء أو زرقاء ، وانفهن بارز ،

ورأسهن بيضوي ، والصدر كبير ومنتصب ، لايتحجبن عند خروجهن من بيوتهن أو من خيامهن ، ويتحركن في بيوتهن بدون تكلف .

للاكراد في باشـويه ديار بكر ثمانية سناجق أو قطعات عسـكرية ، لكل سنجق بك أو رئيس قاطع ، تجتمع كلها وتسير بامرة باشا ديار بكر . وهذه السناجق هي : سكمان ، كليب ، ميحراني ، ترجيل ، اتاك ، بيتريك ، جيا باكشور ، شيرملك (٩) .

واسلحة الاكراد هي الحراب كالعرب ، ولهم احياناً رمح طويل ، ويمتلكون دوماً رمحـاً أو خنجراً ، يستخدمون ترسـاً طوله قدم ونصف ، وعرضه قدم أو خمس عشرة بوصة . ومن لاتمكنه ثروته شراء حصان ، يتسلح بهراوة وخنجر ، ويستعمل جميعهم التروس (١٠) .

استفسرنا من اشخاص واسعي الثقافة في القسطنطينية وتجاراً ممن تجولوا في سائر انحاء كردستان وأرمينيا العليا ، وآخرين من ماردين والموصل وبغداد ، ممن لهم علاقة تجارية مباشرة مع الاكراد ، فأجمعوا ان عدد الاكراد في باشوية بغداد ، والموصل ، وديار بكر ، ووان ، وارضروم ، وقارص يبلغ نحو مليون نسمة ولم نستطع بهذه الطريقة تقدير عدد من يسكن منهم بين همذان وكرمنشاه أو في سلطانية وتبريز .

لاشك في ان هولاء الاكراد هم أحفاد الكردو الذين يتحدث عنهم

---

(٩) وردت هكذا في الاصل :
Sagman, Kulib, Mihrany, Tergil, Atak, Chiapakchour, Chermek.

(١٠) اسماء هذه الاسلحة كما وردت بالفرنسية :
Lance - Sabre - Yatagan - Bouclier - Massue.

كزينيفون عند انسحاب العشرة الاف(١١) . فان تشابه الاسم وتطابق العادات لايدعان أي شك في ذلك .

المنطقة الثانيـــة :

تمتد المنطقة الثانية بين درجة ٣٧ والدقيقة ٢٠ تقريباً الى درجة ٣٥ . وتشمل مدن بيرتا وأورفا ورأس العين ونصيبين والموصل وجبل سنجار ومدن ضواحي رأس العين ، وكل حوض نهري الخابور والحاولي ، وحتى اطراف قرقيسيا . انهـــا بلاد مابين النهرين الاصـــلية حسب تعريف القدامى ، وكانوا يقسمونها الى ولايتين الرها (اوسرهوني) الى الغرب ، ومقدونية الى الشرق (١٢) .

ان هذا القسم من بلاد ما بيـن النهريـن اقل ارتفاعا من القسم الاخر ، فان جلـــه يـقـــع في سهـــل ، لولا بعض الجبـــال الصغيـرة النـــادرة في اطراف اورفا ورأس العيـن ، وكذلك جبـال سنجـار التي تكـــاد تكون معزولة . اما القسم الذي قطعناه من بيرتا (بيرجيك) الى الموصل فقد لاحظنا في كل مكان مؤشرات براكين خامدة . وبفضل المعلومات المقدمة لنا بوسعنا ان نفترض بان سنجار ايضا كانت بـركانا في عصور اكثر قدما .

هذه المنطقة اخصب جـــداً ، واغنى واوفر انتاجاً من المنطقة الاولى ، لكن الزراعـــة فيهـــا اقـــل بكثير . مناخهـــا طيب جـــدا في الشتاء ، ويـكون الانجماد فيهـــا قليلا ، وفي الجـــزء الاول منهـــا القريـب من

---

(١١) اشارة الى انسحاب الجنود العشرة آلاف من اليونانيين الذين اكتسحوا بلاد كردستان ، وقد شارك فيه المؤرخ كزينيفون (٤٣٠ — ٣٥٤ ق.م) وذكره في تاريخه ، فيسمي الاكراد (كاردوكي) . انظر : التراث الكردي في مؤلفات الايطاليين لميريلا غاليتي ، ترجمتنا ، مستلة من المجلد الثامن من مجلة المجمع العلمي العراقي ، الهيئة الكردية ، ١٩٨١ ، ص ٢٢٧ . وقد قام يعقوب افرام منصور بترجمة (حملة العشرة آلاف) او الحملة على فارس للمؤرخ الاغريقي زينوفون ، أو كتاب الأناباسيس ، الموصل ١٩٨٥ .

ويبدي اوليفييه هنا رأيا في أصـــل الاكراد ، أهملناه لانه يعترف شخصيا بعدم تمكنه من الموضوع .

(١٢) وردت هكذا : Osroène , Mygdonie

المنطقة الاولى . اما الحرارة في الصيف فتكون مرتفعة جدا وتستمر حتى منتصف الخريف ، حيث يكثر المطر في اواخر الشتاء ومطلع الربيع ، ويقل في الخريف . صيفها شديد الجفاف ، والارض تجف سريعا .

لو كانت هذه البلاد اكثر سقيا ، سواء بفضل الامطار او بوسائل الري ، لما كان لها ان تتنازل عن نفسها لأي بلد آخر في الارض بسبب وفرة المنتوجات وتنوعها . وبالفعل فان الامطار حين تستمر مدة اطول في الربيع ، يرتفع الشعير والحنطة الى علو كبير ، وينتجان ثلاثين او اربعين لكل حبة مزروعة في الارض ، اما اليوم فالمراعي وفيرة بشكل كبير جدا ، والقطعان كثيرة . ويزرع الاهالي حبوبا وبقولا من سائر الاصناف وقليلا من الرز والكثير من السمسم ، ومقادير كبيرة جدا من القطن . وتنمو فيها الكروم والزيتون والتوت بشكل جيد ، لكنها لا تكثر فيها بكميات كبيرة . يستطيبها النحل بشكل خاص ، فيعطي عسلا من نوعية ممتازة . ويمتاز فيها البرتقال والليمون والحمضيات ويعطي الخوخ والمشمش ، واللوز ، والتين ، والرمان ، والاجاص ، والزعرور ، والكمثرى ثمارا يانعة . وبوسعنا ان نذكر عددا كبيرا من منتوجات اخرى ، لكنها اقل اهمية ، لذا لن نتوقف عندها .

في ظل حكم يشجع الزراعة والتجارة ، ويكون للناس ضمان أمن كل فرد بما في ذلك ملكيتهم الخاصة ، بوسع هذا القسم من بلاد ما بين النهرين ان يغدو بسرعة اكثر مأهولا وغنيا جدا ، لانه لا توجد منطقة اخرى في الارض تتمتع بمناخ اكثر صحيا وتربة أشد خصوبة وانتاجا. غير ان هذه البلاد ، كما قلنا سابقا ، معرضة للنهب من قبل عصابات أكراد من جهة ، ومن قبل عصابات بدوية من جهة اخرى ، لذا فرى السكان الذين كانوا غفيرين في السابق قد اختفوا تماما في اماكن كثيرة ، وبخاصة حين لم يكن السكان بكثرة لكي يتمكنوا من الحفاظ على انفسهم ضد الاقوام

المتنقلين والمتحاربين ، فتركوا حقولهم ومنازلهم وبحثوا في اماكن اخرى عن طمأنينة لم يكونوا ينعمون بها كثيرا في اماكنهم الاصلية .

المنطقة الثالثة :

موقعها :

تمتد المنطقة الثالثة حتى ٣٣ درجة و ٤٠ دقيقة ، اعني انها تنتهي شمالي بغداد ببضعة فراسخ .

كان القدامى يعتبرونها بلاد العرب ، بسبب نوعية الاراضي التي هي عينها اراضي شمال شرقي جزيرة العرب .

ان اراضي هذا القسم من بلاد ما بين النهرين سهلية كلها ، وغير صالحة لاية زراعة ، الا في الاودية التي يشقها دجلة والفرات ، فتشكل مزرعة كثيفة من الليمون . والا فلا يرى في جميع مواقع هذه الصحراء المترامية الا اراضٍ صفراء وبيضاء ، مشبعة بالملوحة ، بل وباملاح البحر . ويظهر الكلس في كل مكان ، على عمق قدم او قدمين . والقار ليس نادرا ، اذ نجده يسيل في اماكن مختلفة من سطح الارض .

مناخها ومواردها :

تجمد الدنيا قليلا في الشتاء ، والمطر شحيح . اما صيفها فجاف جدا ، وحار بنوع مفرط . ومنذ منتصف الربيع تيبس كل النباتات بسبب حرارة الشمس ، فنحن لم نر العديد من غرسات كبيرة الحجم او شجيرات ، كالحرض ، والقلي ، والشوك الاحمر التي تحتفظ حتى منتصف الصيف بنضارة خضرتها (١٣) . ويشاهد كميات كبيرة ايضا من الشيح ذي الرائحة القوية ، والسنطيات الصغيرة (١٤) .

---

(١٣) جاءت هكذا : Kalis, salsolas, pallasias

(١٤) سجلها اوليفييه هكذا absinthe très - odorante, un petit mémosa

وبوسع النخيل الذي يزرع هنا على ضفاف الانهار ان ينضج ثمره .

وابان حملة كورش رأت العساكر ، على حد تقرير كزينيفون ، حميرا وحشية ونعاما ، الامر الذي يدل على ان هذا القسم من بلاد ما بين النهرين كان ضئيل السكن يومذاك ، وما يزال النعام كثيراً حتى اليوم ، اما الحمار الوحشي فيقال بانه نادر جدا ، وقد لا يظهر البتة . لقد لجأ الى الجبال ، الى الاماكن غير المأهولة من بلاد فارس حيث يُرى احيانا ، كما انه من الممكن رؤيته في عمق جزيرة العرب .

سكانها :

سكان هذا القسم من بلاد مابين النهرين ينحصرون ضمن قريتين أو ثلاث واقعة على دجلة ، وعلى بعض قبائل قليلة أصلها من جزيرة العرب يقطعون هذه السهول شتاءً فيجدون مرعى لقطعانهم ، ان لم يكن غزيراً ، فانه لذيذ جداً ، بينما يدنون صيفاً من الانهر وذلك في الارجاء المرتفعة من المنطقة الثانية . وليس من سكن على الضفة اليسرى من الفرات ، اعتباراً من قرقيسية ، كما لانجد على الضفة اليمنى سوى هيت وعانة (١٥) .

المنطقة الرابعة موقعها :

وأخيراً المنطقة الرابعة ، وتبدأ بسبعة أو ثمانية فراسخ الى الشمال الغربي من بغداد ، وحتى بضعة فراسخ جنوب هيت ، وتنتهي بالتقاء النهرين في ٣٠ درجة و ٥٠ دقيقة عرضاً ، وهي ارض رسوبية ، سهلية كليا ، ومن أخصب مايكون فيما لو سقيت . وعلينا ان نضيف اليها الاراضي الواقعة الى شمال شط العرب ويمينه ، من القرنة وحتى الخليج ، وكلها

---

(١٥) مدينتان عراقيتان معروفتان ، يكتبهما اوليفييه هكذا : Hit , Anath

حصيلة ترسبات المياه ، ولا تختلف الا قليلاً عن اراضي الصعيد في مصر .

من المحتمل ان يقع سور سميراميس مابين المنطقتين الرابعة والثالثة ، اذ أنه يفصل الاراضي المزروعة عن غيرها ، ويحميها من هجمات البدو (١٦) .

مناخها :

ان هذا القسم من بلاد مابين النهرين ، والذي كان يدعى بابل ، يشبه كثيراً الدلتا في مصر ، من حيث المناخ ، وطبيعة الاراضي ، وتنوع المنتوجات. الا أنه ، كما قلنا سابقاً ، أشد برودة شتاءً ، إذ تهب الرياح خلال بضعة أيام من الشمال والشمال الشرقي ، كما أنه أشد حرارة صيفاً بسبب ابتعاده أكثر من الدلتا عن البحر الابيض المتوسط من حيث تأتي الريح التي تبعث البرودة . والاراضي أقل خصباً ، لانها لاتنال طمى الانهر بمقدار الدلتا الكبير ، لذلك ينبغي سقيها لكي تنتج ، كما يجب حفظها بكل عناية من الفيضانات التي هي فتاكة هنا لانها فجائية بشكل غريب وغير قياسية . وهذا مااعتادت عليه الشعوب التي كانت سابقاً سائدة في هذه الأرجاء ، لاننا نرى في كل مكان بقايا قنوات قديمة . كما نصادف ايضاً ، في عدة اماكن ، كتلا ترابية تمتد مسافات شاسعة في خط مستقيم ، وتحيط بأراضٍ مستوية بشكل تام .

الفيضانات والقنوات :

ويظن بأن معظم الاراضي كانت منضدة كلوحة الشطرنج ، فان لكل ملكية مربعة كانت ام مثلثة ، حافات مرتفعة ، سواء لحفظها من الفيضانات ،

---

(١٦) المقصود بذلك اسوار بابل وسميراميس او شميرام ملكة آشور وبابل الاسطورية التي انشأت الجنائن المعلقة وفاقت الملك نينوس (ومنه نينوى) بشجاعتها ومجدها . يكتب اوليفييه اسمها هكذا : Sémiramis
راجع بشأن هذا الموضوع : د. مؤيد سعيد بسيم ، أين هي الجنائن المعلقة ، مجلة سومر ٣٧ (١٩٨١) ، جـ ١ ـ ٢ ، ص ٥٦ ـ ٦١ .

أو لسهولة ادخال ماء السقي اليها دون الحاق ضرر بالمزروعات القريبة .

ليس لدجلة والفرات ، كما هو معلوم ، فيضانات قياسية وثابتة كما للنيل . فان الامطار التي تسقط على حدود فارس وتركيا ، وعلى المناطق الأقل ارتفاعاً في كردستان وأرمينيا والقسم الاعلى من بلاد مابين النهرين تختلط حالا بالمياه الناجمة عن ذوبان الثلوج ، فيستقبل النهران عندئذ كمية مياه ليس بوسعهما احتواءها ، فتتعرض آنذاك الاماكن الأشد انخفاضاً للفيضان ، بينما لايفيض هذان الرافدان متى تكون مياه الامطار قليلة ، وذوبان الثلوج بطيئاً ومتعاقباً .

وكذلك في الخريف والشتاء . فمتى كانت الامطار غزيرة بصورة فجائية في المنطقتين الاولى والثانية من بلاد مابين النهرين ، وفي كردستان السفلى ، وعلى حدود فارس ، فان الفرات ودجلة ينتشران على اراضي المنطقة الرابعة ويسببان فيها تلفاً ذا مقدار كبير أو قليل .

لاتمطر أبداً ، في هذا القسم من بلاد مابين النهرين ، من شهر فلوريال وحتى برومبير (١٧) ، ونادراً جداً خلال أشهر السنة الاخرى ، الامر الذي لايتيح الا زراعة الاراضي المسقية بمياه الانهار . غير ان سكان هذه الاماكن ، وهم ، لاشك أشد حساً وتجارة من المصريين ، قد تعرضوا أقل بكثير من المصريين الى مجاعات ، لأنهم لم يعتمدوا البتة على الفيضانات لزراعة حقولهم ، بل حاولوا ان يتدبروا امرهم ، لذا نراهم قد توصلوا الى سقيها كلما يرون الحاجة الى ذلك .

وثمة مجال للدهشة . فان المصريين بوسائلهم كلها والبلد الذي يشغلونه ، كانت اراضيهم مقسومة الى قناتين فقط ، فكانوا يسفحون مياه النيل الى الاراضي حين يمكنهم الامر بواسطة وسائل تقنية ، والا فيتركونها كما

---

(١٧) يبدأ شهر فلوريال في ٢٠ ـــ ٢١ نيسان ، وينتهي في ١٩ ـــ ٢٠ أيار . ويبدأ شهر برومير في ٢٢ ـــ ٢١ تشرين الثاني .

هي في حالة الفيضان الشديد ، كما كانوا قادرين على تسهيل امر انسياب المياه متى ارتفعت مياه النهر كثيراً ، ومع ذلك فقد تعرضوا للجوع في الحالتين المتطرفتين لفيضان النهر . ونحن اذ نفكر في هذا الامر ، ينبغي ان نخلص في تفكيرنا الى رأي ليس في صالح معارفهم بشأن الري والزراعة ، ولا بشأن حكومتهم التي لم تعرف ابداً ان تنير الشعب وتوجهه نحو مصلحته ، او تتخذ الحيطة ضد الجوع بشراء حبوب من البلدان القريبة .

لقد كان البابليون معرضين للفيضانات عينها ، كالمصريين تماماً . أجل ، ان رياح الجنوب أقل ضرراً في بلاد العرب منها في مصر ، لانه ليس عليها ان تقطع مسافة ارض واسعة ومحرقة كما في افريقيا ، لكنها مع ذلك تضر بشدة سائر النباتات ، بمعنى انها تعجل على نضجها ، وتجعل الارض تجف بشكل ملحوظ ، وتؤثر فيهـا بعين المقدار التي تؤثر به فينا حين تجعل الهواء المناخي اقل صلاحاً للتنفس .

الجـــراد :

ونتيجة لهذه الرياح نرى قدوم جحافل جراد (١٨) من عمق جزيرة العرب والارجاء الاكثر جنوباً من فارس ، تسبب في هذه المناطق تلفاً مزعجاً آنياً ، يشبه مايسببه البرد القاسي في اوربا .وقد شهدنا ذلك مرتين .

ويصعب وصف الأثر الذي يتركه في النفس منظر جو مليء بأكمله ، ومن جميع الجهات ، وعلى علو شاهق ، بكميات غفيرة من هذه الحشرات ذات الطيران الهادىء والمتناسق ، اما ضجيجها فأشبه بسقوط المطر . فتظلم السماء ، ويضعف ضياء الشمس بشكل ملحوظ . وفي ظرف لحظات تكون

---

(١٨) الجـراد الذي يتحـدث عنـه اوليفييه هـو sauterelles وسيدلي بعد قليل بمعلومات مفيدة جدا حول طبيعته وحدة هجماته في هذه الارجاء .

سطوح البيوت والشوارع والحقول مغطاة بهذه الحشرات . لقد تمكنت خلال يومين تقريباً من التهام جميع اوراق النباتات . ولحسن الحظ انها لاتعيش الا قليلاً ، ويبدو انهما لا تهاجر الا بسبب التكاثر والموت . وفعلاً فان كل التي وجدناها في الغد ، كانت أزواجاً ازواجاً . اما في الأيام التالية فقد كانت الحقول بأسرها مكسوة بجثثها (١٩) .

ليست هذه الحشرة جرادة ، انما هي جندب (٢٠) ، وقد أسميناها جرادة للتوفيق مع التسمية الدارجة . انها تختلف عن سائر الانواع الموصوفة حتى الآن كحشرات متنقلة . جسمها كله اصفر جميل ، واجنحتها غمدية منقطة ببقع وأشرطة غامقة . والاجنحة شرايين صفراء وغامقة ، كما انها شفافة . ولها لون اصفر خفيف في قاعدتها وعلى الطرف الخارجي الذي يضيع دون ان نشعر به ونحن نوجه النظر نحو وسط الجناح . الساقان الخلفيتان صفراوان كبقية الجسم ، غير ان نهاية صلبها أسود جميل . للجراد (٢١) خط في الوسط أقل ارتفاعاً مما في الجندب المهاجر ، وثلاثة خطوط متقاطعة عميقة ومستقلة عن الخط المنقط ، القائم قريباً من الطرف الداخلي . اليدان صفراوان سمراوان.ونلقى بروزاً حاداً شديد الوضوح فيما بين قاعدة الاطراف الاولى . يبلغ هذا الجندب عادة بوصتين ونصفا أو بوصتين

---

(١٩) يضع اوليفييه المقطع التالي باكمله في ذيل الصفحة كهامش ، وقد فضلنا أدراجه في المتن بالنظر لاهميته العلمية .

(٢٠) يذكر رحالتنا وصفها باللاتينية هكذا :
Acridium peregrinum, thorace linea elevata, segmentis tribus, corpore flavo, alis hyalinis, basi margineque exteriori flavescentibus.

(٢١) يستخدم اوليفييه لفظة لم نعثر لها عن أثر في المعجمات التي تحت أيدينا ، هي : corcelet

وثلاثة ارباع من الرأس حتى نهاية الاجنحة . وهو احياناً احمر فاتح وشاحب ، بدلا من اصفر . لقد وجدت منه في مصر وبلاد العرب ومابين النهرين وفارس .

الزرزور (السمرمر) :

إثر هذا الجراد يشاهد دوما وصول الزرزور (٢٢) المعروف لدى علماء الطبيعة باسم ميرلا — روزا merle - rose (٢٣) . انه يعيش شتاء في هندستان ، وفي اعمـــاق افريقيا ، وجزيرة العرب . ويقصد صيفاً بلاد فارس وارمينيا ومابين النهرين وكل آسيا الصغرى تقريباً . ونادراً مايظهر في اليونان وجزر الارخبيل ، حيث يكون من أجمل الانواع .

الرأس ، والرقبة ، وريش الاجنحة والذيل بلون أسود جميل ، ذي انعكاسات خضراء وارجوانية . والصدر ، والبطن ، والظهر ، والزملك وردية جميلة المنقار ، والرجلان صفراوان . . الذكر وحده مزين بكشة سوداء محمولة في الخلف .

يبدو بأن الزرزور يتعقب الجراد في رحلته ، لا ليتغذى عليه وحسب ، وانما لكي يقضي عليه ايضاً ، لانه يبيد منه أكثر مما يأكل ، كما انه يهاجم كل الحشرات تقريباً ، لذا يلقى هذا الطائر في الشرق كل الاحترام بسبب مايقدمه من فائدة ، لذلك لايسمح احد لنفسه ان يقتله او ان يؤذيه في حضرة المسلم . وتسرد بهذا الصدد قصص لاعد لها تكاد تكون خرافية بأجمعها .

---

(٢٢) يسـميه sammarmar, sammarmag ويسـمى في الموصـل وغيرها بالسـمرمر .

(٢٣) يحيلنا الرحالة الى مراجع هي :
Buffon, pl. enlum. 251 ; Turdus roseus. Linn. Syst. nat. Latham ind. ornithol. Turdus seleucis. Forsk. Descript. anim.

الانتاج الطبيعي ، الحيواني :

لعله من المفيد هنا ان نقدم وصفاً عاجلاً للانتاج الطبيعي ، لعالم الحيوان والنبات خاصة ، لمناطق بلاد مابين النهرين الاربعة . لكننا سنحيل الامر الى كتاب خاص نفكر بوضعه ، ونكتفي هنا مؤقتاً بكلمة عن اسد جزيرة العرب ، الذي يختلف في اعتبارات شتى عن اسد افريقيا ، كما نشير الى نمس بغداد ، ونتعرف على حرذونين وجدا في المنطقتين الأخيرتين(٢٤) .

لعل الاسد الذي يعيش في بلاد العرب وفارس ، جوار شط العرب ،من الخليج حتى اطراف الحلة وبغداد ، من فصيلة الاسد الذي تكلم عنه ارسطو وبليناس (٢٥) واعتبراه نوعاً مختلفاً عن النوع المنتشر في اعماق افريقيا . فأن ارسطو يخبرنا في كتابه تاريخ الحيوان ، بنوعين من الاسود : الاول أكثر استدارة والذؤابة أشد تجعداً،وهو أقل شراسة ،اما الآخر فذو جسم اطول وذؤابة جميلة واشد شجاعة (٢٦) .

ليس لاسد جزيرة العرب شجاعة النوع الآخر ، ولا هيئته ، ولا جماله . وحين يهم باصطياد فريسته ، يلجأ الى الحيلة أكثر من القوة ، فينبسط في

---

(٢٤) وردت هكذا : Le lion d'Arabie, L'ichneumon de Bagdad, Lézards

(٢٥) نسب (كتاب الحيوان) للفيلسوف اليوناني الشهير ارسطو ، وقد ورد الوصف في الكتاب التاسع ، الفصل ٤٤ من الطبعة اللاتينية . أما بليناس أو بلينوس الكبير (٢٣ ــ ٧٩ م) فمؤرخ وسياسي ومحارب روماني ونباتي ، اشترك في عدة حملات عسكرية ، وتوفي مشتعلا ببركان فيزوفيو ، وترك موسوعة ضخمة في التاريخ الطبيعي .

(٢٦) الفصل ٤٤ من الكتاب التاسع ، من كتاب الحيوان المنسوب لارسطو : Hist. Anim. , 9 , 44 وجاء في موسوعة بليناس ، التاريخ الطبيعي ، الكتاب ٨ ، الفصل ١٦ ، ص ١٨١ من الطبعة اللاتينية ، وقد أورد اوليفييه النص اللاتيني :

Leonum duo genera, compactile et breve crispioribus jubis. Hos pavidiores esse qudm longo simplicique villo, eos contemptores vulnerum. Plin. Hist. nat. lib. 8, cap. 16, p. 181.

جداول تحيط بدجلة والفرات ، ويهاجم كل الحيوانات التي تأتي لتبرد غليلها فيهما ، لكنه لايجرؤ على مهاجمة الخنزير البري الذي ينتشر هنا بكثرة ، ويهرب حالما يلحظ رجلاً أو امرأة أو طفلاً . واذا ما أمسك بخروف فانه يهرب بفريسته ، ويتركه لينجـــو بنفســه اذا ماجرى بدوي وراءه . واذا ما حاول بعض الفرسان اصطياده ، الامر الذي يحدث له احياناً ، فانه لايدافع البتة الا اذا جرح ، بحيث لايجد أي أمل في الخلاص ، فانه يغدو في هذه الحالة مستعداً لمهاجمة الانســـان وتمزيقه ارباً أرباً بمخالبه ، لأن قوته أشد من شراسته . وقـــد كاد احمـــد باشا ، والي بغـــداد من سنة ١٧٢٤ ولغاية ١٧٤٧ ، ان يتقطع ارباً ارباً بعد ان انكسرت رمحه في مغامرة صيد ، لو لم يهرع مملوكه سليمان الذي خلفه في الباشوية الى انقاذه على عجل .

لقد رأينا في زريبة باشوية بغداد خمسة اسود من هذه الفصيلة ، قـد جلبت منذ خمس سنوات ،اذ اصطيدت وهي صغيرة بعد في اطراف الموصل، وكانت ثلاثة ذكـــور وأنثيين ، الاولى أضخم من الأخرى ، وجميعهـــا شبيهة بالنوع الذي في افريقيا،مع الفارق بكونها اصغر حجما ، وليس لها ذوائب . وقد أكدوا لنا بأنها لم يكن لهـــا ذوائب البتة ، وكذلك ســـائر الاسود في هذه الارجاء . لقد أسفنا كثيراً لاننا لم نسأل الباشا يومها عن اسدين ، ذكراً وأنثى ، لكي نقارنهما عن كثب بالنوع الافريقي ، وحتى الوصول الى يقين ، فان اسد جزيرة العرب ينبغي ان يعتبر نوعاً مختلفاً عن هذا الآخر ، او انه نوع أدنى منه .

الانتاج الطبيعي النباتي :

ثمة في بساتين بغـــداد نوع من النموس ، اكبر من السنجاب ، شبيه بالنمس المصري ، الا انه اصغر بخمس او ست مرات ، ولكنه أكثر رقة ، واجمل ، وله لون الطف ، ويأتلف بنوع اسهل . يسمونه في البلد بفارة التمر ، او جرذ النخيل ، ليس لانه يعيش فوق اشجار النخيل او يتغذى

من ثمرها ، بل ربما لانه يكثر في البساتين المزروعة بالنخيل (٢٧) .

لقد احتفظت بثلاثة خلال اربعة او خمسة اشهر ، وكنا نطعمها كما في مصر ، اللحم والسمك والبيض . ان النموس تصبح أهلية كالقطط تقريباً ، لكنها اكثر حدةً منه ، اذ تنفعل بسهولة أكبر . توضع على اليدين والفخذين ، وتسمح بأن يمسك بهـا ، لكنها لدى ابداء أية حـركة لاتروقهـا ، وإزاء أي إكراه يقـوم به ماسكها ، تعضه بأسنانها ، وتشفعها بعواء هـو صرختها الغاضبة الاعتيادية ، وهي تغمغم حين تأكل كالنموس المصرية ، ومثلها ذات حساسية شديدة بإزاء البرد . تختفي شتاء في أسرّتنا ، و تحت افرشة دواويننا . ونراها مختلفة نوعاً ما عن الموجودة في الهنـد ، وعن سـائر الانواع التي يرد وصفها في الكتب . ولقد فقدنا الثلاثة التي كنا قد هيأناها قبل رحيلنا بقليل .

ووجدنا في هذه البلاد عدداً من العظايا (٢٨) ، بعضـها أطـول وأسمك من ذراع رجل . تتخذ لها في الحقول جحوراً شبيهة بجحور الثعالب . لقد كنا حصلنا على اثنتين ، ولكننا فقدناهما . وكنا أوفر حظاً بالنسبة للنماذج التي وضعناها في خوص النخيل ، إذ انها حفظت بشكل جيد . النوع الاول منها نادر جداً ، لم نشـاهد مثله الا على شجيرات في ضـواحي بغداد . انه اسمر اصفر ، يشوبه شيء من اللون الغامق ، حراشفه صغيرة وغير قاسية فوق الرأس ، ومعينية على الجسم ، ولحراشف الظهر والذنب خط مرتفع يمتد على شكل زاوية حادة ، وينتهي ببروز واضح جداً في العنق . اما حراشف

(٢٧) وردت بالفرنسية هكذا :
Magouste, ichneumon d'Egypte, rat palmiste

(٢٨) lézards وتعرف بالحرباء .

البطن فملساء (٢٩) . تتغذى العظاية على الحشرات ، وقد بدت لنا ذات خفة كبيرة جداً ، إذ انها ترجع الى فصيلة الحراذين(٣٠) .

اما النوع الآخر فمنتشـــر في بلاد فارس وشـــمال جزيرة العرب . ويقوم باتخاذ حجره في الارض ، ويركض الى سطحها بخفة كبيرة ابان حر النهار القاسي . لكننا نجده صباحاً في حالة استرخاء لايسمح له بأن ينقذ حياته . وهذه العظاية من فصيلة النوع الاول .

انهـــا سمـــراء فاتحة . مطعمة بالاسمر الاغبـــر ، والرأس والظهر مكسوان بحراشف ذات حجم مباين . بعضها أكبر وأعلى ، شبيهة بالثآليل الصغيرة . ولحراشف الذنب خط مرتفع في الوسط، وحراشف البطن بسيطة ومعينية تنتهي ببروز خفيف. لسان هذين الصنفين من العظايا ضخم، قصير ، ومستدير (٣١) .



(٢٩) وردت الفقرة الاخيرة في هامش فأدرجناها في المتن ، وقـد أسـبقه اوليفييه بوصف علمي هو :

Agama agilis, squammis dorsalibus carinatis, ventralibus simplicibus. Tab. 29, fig. 2.

(٣٠) agame

(٣١) وقد أورد رحالتنا هذه الفقرة ايضا في هامش ، واسبقها كذلك بوصف علمي باللاتنية هو :

Agama ruderata, grisea, fusco maculata, squammis dorsalibus inaequalibus quibusdam verrucosis. Tab. 29, fig. 3.

الفصل السابع

وصف اطراف بغداد ـ عقرقوف ـ طاق المدائن ـ بابل ـ الحلة ـ مشهد الحسين ـ الكوفة ـ مشهد علي ـ عرب وهابيون .

وصف اطراف بغداد :

ان بغداد ، ككل المدن الكبيرة في الامبراطورية العثمانية ، محاطة باراض ليست مزروعة . وقليلا ما نرى بضع حدائق في جزئيها العلوي والسفلي ، وهي تسقى بصعوبة من مياه دجلة . وقد يكون الامر أسهل فيما لو مدت لها ترعة من ديالى ، فانه نهر كبير يصب في دجلة على بعد ثلاثة فراسخ اسفل المدينة ، اذ يمكن ، بقليل من المصاريف ، ايصال قسم من هذه المياه حتى حافة الاسوار ، كما كان قد جرى ذلك قبلا ، ويستطاع عندئذ اخصاب الارض الواقعة شرقي النهر ، فهي أرض رسوبية لا تتطلب كتفاً ولا ماء لكي تغطيها اغنى المحاصيل .

ان اراضي غرب بلاد ما بين النهرين غير مزروعة برمتها ، تغمرها كلها تقريبا أهوار وحلية ، ينمو فيها الخيزران والقصب ، ويبدو ان الشعب لم يتعرف البتة على الموارد الحقيقية التي تسعد الناس ، فيعيش في عوز على قاع خصبة وفي رقعة هي أوفر انتاجا من الهند التي على منتوجاتها ان تقطع مسافات لكي تبلغ مصيرها .

يبدو من هذا كله انه ليس لنا ما نقوله بشأن أطراف بغداد من حيث وجهة نظر ذات فائدة او اعجاب . فليس فيها ثمة منازل ، ولا مجال للنزهة ، او أماكن للترويح عن النفس والانس ، وليس ثمة مواقع طيبة او ذات طابع خاص ، فهي صحارى ، وقبور ، وصمت ، وامور رتيبة . هذا هو ما يرى ، وهو ما يلاحظ حول مدينة بغداد .

لقد قلنا كلمة بشأن الضاحيتين اللتين في الشمال والشمال الغربي من بغداد بالقرب من دجلة ، وهما موضعان للعبادة (١) ، وعلينا ان نتحدث الان عن الاطلال والاثار ، فان هذه الامبراطورية تقدم لنا اليوم في كل مكان ما هو مثار دهش وفائدة .

آثار عقرقوف :

على بعد اربعة فراسخ غربي بغداد نشاهد أثرا قديما ، يعرفه الكثيرون باسم برج نمرود او برج بابل ، بينما يسميه الناس عقرقوف (٢) وهو كتلة صلدة ، مربعة ، مشيدة بالطابوق . خربوا منها موضعين في الواجهة لكي يتم الدخول اليها للتعرف على الهدف من بنيانها ، او للبحث عن كنوز يظن البدو انها مدفونة في سائر الابنية القديمة .

يختلف طراز هذا الاثر المعماري كثيرا عما يشاهد في أي مكان آخر ، فليس من الغرابة ان نتطرق الى بعض التفاصيل بشأنه . فاللبن المستعمل فيه غير مشوي بالنار ، بل مجفف ومعرّض الى الشمس لا غير ، وهو تقريبا بحجم ثلاث عشرة بوصة لكل لبنة ذات شكل مربع ، وبسمك بوصتين ونصف . يرصف مسطحا ، الواحدة فوق الاخرى ، ويبنى بالطين عينه المصنوع منه . وبوسعنا ان نعد ثمانية ولغاية عشرة خطوط تشكل طبقة ذات قدمين او قدمين ونصف سمكا . لقد وضع فوق هذا اللبن اربع

---

(١) يقصد الاعظمية والكاظمية ، وقد تحدث عنهما مفصلا في الفصل الخامس .

(٢) أو عكركوف ، ويكتبها اوليفيه : Agerkouf
ويقول خطأ : برج نمبرود (نمرود) Tour de Nemgrod ، وهو يريد برج بابل Tour de Babel ويخطىء في اطلاق هذه التسمية على آثار عقرقوف ، وقد وقع في هذا الخطأ العديد من الرحالة الاجانب .

او خمس بوصات من التراب الخشن ، ثم طبقة ذات بوصتين او ثلاث مكونة من ثلاثة خطوط من القش او من القصب المتقاطع ، ويوضع التراب الخشن دومـا فوق اللبن ، ويرتفع هكـذا متكاملا وفق النظام المذكور عينه حتى قمة البرج . الامـر الوحيد الذي لاحظناه هـو ان طبقات اللبن ليست متساوية دائما . اذ نرى منها ما يكاد يبلغ القدمين سمكا ، بينما يبلغ غيرها الثلاثة تقريبا . وقد جعلت بمسافات متقاربة الواحدة من الاخرى فتحات مربعة ، يقال انها استعملت للتدفئة ، وربما ايضا لتسهيل يبوسة هذه الكتلة اذ اننا نشاهد بوضوح انها غائرة الى الداخل بحدة .

وتبدو طبقات القش البارزة اليوم خارج اللبن من بعيد وكأنها محفوظة بشكل جيد ، وقد صمدت في وجه الزمن اكثر بكثير مما لو كانت من أشد انواع الخشب صلابة . وقد غدت بلون الحناء ، رمادية اكثر في الاقسام المعرضة للهواء . ويمكن سحبها ، كما فعلنا في جدران طيسفون ، كما يمكن التعرف على انها تعود الى عين النبات الذي يظن انه غزير على ضفاف الرافدين وفي الاهوار التي يشكلانها (٣) .

ان ما يحمل الظن على الاعتقاد بان هذا الاثر لم يكن قط أعلى مما يشاهد اليوم عليه ، هو انه منته بطبقة ارضية يفترض انها كانت تشكل سطحا في اعلاه ، ومع ذلك فليس من شك في ان الرياح والامطار قد شوهت القسم الاعلى ، لان اجزاء الواجهة التي لم تلمسها يد انسان كانت مشوهة قليلا ، ولكانت اكثر تشويها لو لم تحفظها طبقات القش .

---

(٣) ويضيف رحالتنا في هامش بأن هذا النبات ضرب من النجيليات التي يسميها ليني
Linné, Uniola bippinata, Spec. pl. ; Retzius : Poa cynosuroides

بوسعنا ان نتكهن ايضا بان هـــذه الكتلة المشوهة حتى وسطهـــا تقريبا لم تكتشف فيها اية حفرة ، لا في واجهتها الجنوبية ، ولا في الغربية . فان طبقات اللبن والتراب الخشن والقش مرتبة كما في الخارج ، كما اننا نرى الفتحات المربعة التي تحدثنا عنها أعلاه ، والواجهة الشمالية في الثلثين من ارتفاعها أشبه بباب ، يبدو بوضوح انه قد فتح حين شاؤوا جس هذا الاثر ، لان الحواجز الجدرانية ليست مقطعة بشكل قياسي ، وليس ثمة اية طابوقة كاملة .

وعلى بعـــد مائة متر منـــه ، باتجاه الوسط ، نجد تلا ترابيا ارتفاعه بضعة أقدام يتيح مشاهدة بضعة حيطان ضخمة مبنية بالطابوق المشوي . لقد خلناها آثار قصر او معبد . كما اننا لاحظنا تلولا اخرى عديدة اصغر حجما ، تبدو كذلك وكأنها بقية بنايات اخرى ، بحيث يمكن القول ان عقرقوف موقع مدينة أثرية .

ولكن لاي استعمال كان هذا الاثر ؟

لا يصح اعتباره قصرا ، ولا معبدا ، ولا قلعة . ولعله يصح ان يكون موقعا للمشاهدة ، اي برج مراقبة . ولو كانت على احدى الواجهات آثار سلم يصعد بواسطته الى القمة ، ولو شاهدنا آثار بابل ، لتأكد الظن بان هذا السلم قد استخدم داخلا . وبالفعل ، فان هذا الاثر مشيد على ارض مستوية، على بعـــد ستـــة فراسخ من الفرات ، واربعـــة من دجلـــة ، وخمسة او ستة من سمير اميس (٤) ، وهو بعلو مائة قدم ونيف ، ولو انه لم يبق منه سوى سبعين ، لذا فبوسعه ان يكون موضعا صالحا لتنبيه البابليين لدى دنو أعدائهم ، وبوسعه بفضل ارتفاعه ان يسهل للانسان ان يمد نظره بعيدا ، وان يرسل بفضل اشارات خاصة مايشاهده على بعد مسافة بعيدة .

ومع ذلك ، فاننا لوفكرنا انه من العبث ان نبني بتكاليف باهظة كتلة

---

(٤) أي بابل ، نسبة الى الملكة الاسطورية سمير أميس .

ضخمة كهذه لكي نحصل على المشاهدة ليس الا ، فاننا نحمل على الظن عند ذاك على انه ، على غرار المصريين ، كان سكان بابل يرفعون هذا الأثر لذكرى أحد ملوكهم ، او يخصصونه لكي يضم رفاته . وبدل ان يعطوه شكل هرم لايصمد في وجه الرياح والامطار بسبب المواد المستخدمة ، نراهم يعطونه شكلاً مربعاً . وبوسعنا الظن والحالة هذه ان التل والارتفاع اللذين تحدثنا عنهما ليسا سوى معبد وبيوت كهنة شيدت حول الأثر ، كما نشاهد مثل ذلك حول الاهرام .

طاق المدائن :

اذا ما سافرنا الان من بغداد ، واتبعنا الضفة اليسرى نزولا ، فاننا سنعبر بعد مسيرة ثلاث ساعات ديالى ، وهو نهر كبير بقدر نهر المارن (٥). وبعد مسيرة ساعتين ونصف ايضا ، نصل اطلال طيسفون ، حيث نلاحظ أثراً ضخماً ، يسمى طاق كسرى ، او ايوان كسرى (٦) نجد وصفه في جريدة العلماء (٧) ، وشكله في رحلة ايف (٨) .

ان هذا الأثر المشيد من طابوق مشوى هو على بعد ربع فرسخ من دجلة . والى الشرق منه واجهة مدينة اخرى ، بحيث ان طيسفون لم تكن في البدء سوى ضاحية لها ، فهي ساليق (سلوقية) التي كان ازدهارها في زمن اليونان ذا شأن كبير بحيث انه آذى بابل ، اذ غدت سلوقية المدينة الاولى في المنطقة ، ومقر الملوك . لقد كانت على بعد ثمانية عشر فرسخاً الى الشمال والشمال

(٥) نهر المارن La Marne في فرنسا .

(٦) هو طاق أو ايوان المدائن . Tak - Kesré, Aiouan - Kosréi

(٧) ورد ذكر الرحالة بوشامب سابقا ، وانظر بحثه :
Journal des Savans, Décembre 1790, p. 797, Mémoires sur les Antiquités babyloniennes, par M. Beauchamp.

(٨) Voyages de Ives

الشرقي من بابل . ولم نقم بزيارة هذه الاطلال لاننا لم نتمكن من عبور النهر بسبب عدم توفر قارب، غير ان عرباً كثيرين يعرفون هذه الاماكن جيداً قالوا لنا انهم مايزالون يلاحظون فيها آثار مدينة عظيمة . ففي سلوقية ، كما في طيسفون اطلال كثيرة ، وانقاض كثيرة ، ومازالت الاسوار بادية للعيان بوضوح ، وهي مشيدة باللبن المجفف في الشمس . ويسمي العرب هذين المرتفعين المدائن او المدينتين .

بابل :

وعلينا الآن ان نلقي نظرة خاطفة على بابل التي كانت يوماً أولى مدن العالم ، أو اقله الاعظم شهرة . ان بابل هذه ، رهبة الاسرائيليين ، ونائبة الصوريين، أمست فريسة للفرس واليونان . والارض التي تقوم عليها بابل، والواقعة على بعد عشرين فرسخاً من بغداد ، لاتقدم لاول وهلة أي أثر لمدينة ، بل ينبغي ان نطوف فيها بأسرها لكي نلاحظ بعض التلول والمرتفعات ، ولكي نرى بأنه قد تم تحريك الارض في كل مكان تقريباً ، فقد اهتم البدو منذ اثني عشر قرناً تقريباً بنبش اراضيها لاستخراج الطابوق الذي بنوا به اقساماً كبيرة من الكوفة ، وبغداد ، ومشهد علي (كرم الله وجهه) ، ومشهد الحسين (رض) ، والحلة ، وكل المدن تقريباً الواقعة في تلك الجهات (٩) . غير ان ما ساهم أكثر من الحفر في محو جميع آثار بابل تقريباً ، هو تشييدها بالاصل على أرض مستوية ترابية ، خالية من الحجارة تماماً ، وفي منطقة كان الخشب فيها نادراً دائماً بحيث ان السكان لجأوا دائماً الى الترسبات

(٩) وردت هذه الاسماء هكذا :
Cufa, Mesched - Ali, Meschéd - Hossein, Hellé
وهي وفقاً لتسلسلها : الكوفة ، النجف الاشرف ، كربلاء ، الحلة .

التي يتركها الرافدان ، فصنعوا منها لبناً جعلوه متيناً بفضل الشمس ، وربطوه بالقصب الذي كان متوفراً بين ايديهم . وللسبب عينه استخدموا طابوقاً مشوياً ، والقار بدلاً من الكلس (الجير) لتشييد ابنيتهم . ونحن نحس بأن بناية مشيدة باللبن غير المشوي لاتترك في حالة هدمها سوى آثار بسيطة جداً ، إذ سرعان ماتختلط الانقاض بالارض المحيطة بها .

ومع ذلك ، ورغم الزمن والناس ، ورغم قلة متانة المواد المستخدمة ، فاننا ما زلنا نكتشف بنايات عظيمة جداً يهدمها الناس حتى الاسس . انها من طابوق مشوٍ . غير ان ما يجلب الانتباه كثيراً هو بقايا هيكل بعل الذي أمرت سميراميس ببنائه (١٠) . انه تل كبير المساحة ، فوق سطحه طبقة ترابية ، يستخرج منه البدو طابوقاً ضخماً مشوياً ، كل طابوقة ملصقة بالاخرى بالقار عينه الذي تحدثنا عنه ، وبين كل طبقة من الطابوق طبقة دقيقة من القصب والقار .

لقد اكتشف في هذا التل الذي يبدو شكله مربعاً ، ومجموع قطره بأكمله الف ومائة او الف ومائتا خطوة عادية ، فتحات مختلفة ، لم تكن نظيفة بما يكفي لكي نتعقبها في امتدادها كله فنتعرف على الغرض من استعمالها .

ويقع هذا التل على بعد فرسخ واحد شمالي الحلة ، وربع فرسخ من الضفة الشرقية للفرات .

وقد كان معبد بعل ، حسب هيرودوتس مربعاً (١١) ، ويمتد غلوتين في كل اتجاه ، وفي الوسط برج سميك مساحته غلوة ، وعلى هذا البرج يرتفع برج آخر ، وفوقهما برج ثالث ، وهكذا على التوالي ، حتى الثامن .

---

(١٠) انه معبد بعل والمقصود به مردوخ ، ويكتبه رحالتنا هكذا : Bélus وقد ورد ذكر سميراميس أو شميرام .

(١١) هيرودوتس Hérodote مؤرخ ورحالة يوناني من القرن الخامس ق.م ، ويلقب بأبي التاريخ .

فيحملنا الاعتقاد ، وفق تقرير هيرودوتس هذا ، بان هذا المعبد ، وارتفاع ابراجه المدهش ، ولدا قصة بلبلة الالسن (١٢) التي لايخفى معناها على الذين يقدرون قيمة الامور .

ثمة مابين التل والنهر انقاض كثيرة ، وأسس متعددة لجدران قديمة . وهنا توجد عادة قطع الطابوق الكبيرة التي نقشت عليها حروف مجهولة (١٣) . لقد حملت واحدة منها مختلفة كل الاختلاف عن مثيلاتها ، لاتتجاوز البوصتين عرضاً . انها محدبة من جهة ، ومسطحة من الجهة الاخرى ، وأضخم سمك لها بوصة واحدة . نجد فيها سبعة خطوط حروف ، وفراغاً بين الخطين الثالث والرابع . وتبدو هذه الحروف وكأنها قد حفرت بكل عناية ، وأكثر بكثير مما على قطع الطابوق الاخرى .

وثمة خرائب غربي الفرات ، إذ توجد قطع طابوق تحتوي على احرف حاولنا عبثاً ان نشخص فيها آثار قصر ملوك . ولم نتمكن كذلك من تتبع سور المدينة ، ولا اكتشافه في أي موضع منها ، وقد كان حسب هيرودوتس مكونا من خمسين بوصة سمكاً ومائة باب نحاس أحمر صلد .

الحلة :

تقع الحلة في القسم الاكثر جنوباً من خرائب بابل ، على الضفة اليمنى من الفرات . وهي مدينة ذات ألف او ألف ومائتي نسمة ، مشيدة منذ ثلاثة او اربعة قرون لاستخدامها كمستودع للبضائع التي تصل بغداد . والتي تصعد الفرات اكثر مما تصعد دجلة ، لان مياه الاول أقل سرعة من مياه الثاني ، وقد أصبحت الحلة لهذا السبب مدينة مهمة جدا ، فهي تصل جميع بلاد ما

---

(١٢) اشارة الى الرواية الواردة في الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة .

(١٣) لم يكن العلماء قد توصلوا بعد الى حل رموز الكتابة المسمارية .

بين النهرين بواسطة جسر قوارب . ولباشا بغداد فيها مسؤول كمارك وسنجق بك (١٤) ، ويشغل الاخير القصر الواقع على حافة النهر .

مساحتها كبيرة لانها تشمل العديد من البساتين المزروعة بالنخيل و الليمون والحمضيات والرمان . وهي محاطة بسور يحيطه باشا بغداد بكل عناية . طرقها ضيقة وغير مبلطة البتة . وبيوتها منخفضة ومشيدة بطابوق عتيق مخلوط بالطين . وقد يكسون الحائط احيانا ، سواء في الخارج كما في الداخل بطبقة خفيفة من الجص لكي تبدو اكثر نظافة ومستحبة للنظر . وتقع هذه المدينة بحسب نيبور على الدرجة ٣٢ والدقيقة ٨٢ والثانية ٣٠ من بابل .

بور سيبا :

على بعد فرسخين الى الجنوب والجنوب الغربي من دجلة ، توجد اطلال كبيرة الاهمية لم يسمحوا لنا ان نذهب لرؤيتها خوفاً من البدو. يقول السيد بوشامب في مذكرته المذكورة آنفا (١٥) أنها اشبه بـ.بل من طابوق وتراب ما زال قائما منها صالة كبيرة ، وبرج مربع ضخم ، يدعى هذا المكان بروس ويعتقد انه بورسيبا القديمة (١٦) . اي المدينة التي يذكرها يوسيفوس ، وسترابون ، وبطليموس (١٧) . بينما يسمي نيبور هذا الموقع نمبرود — بيرس .

---

(١٤) Sandjak-bey آمرية قاطع عسكري ، بالتركية ، وهو برتبة (بك) .

(١٥) انظر الهامش ٧ .

(١٦) من المواقع الاثرية في العراق القديم ، سجلها اوليفييه هكذا : Brousse, Bursippa, Borsita الصحيح : بورسيبا .

(١٧) الاول يوسيفوس فلافيوس (٣٧ — ١٠٠) مؤرخ يهودي ، كان شاهد عيان خراب اورشليم سنة ٧٠ ، كتب الحرب اليهودية ، والعاديات اليهودية . والثاني سترابون (٥٨ ق.م — ٢٥ م) جغرافي يوناني ، له كتاب الجغرافيا ، فيه معلومات نفيسة عن بلاد العرب . والثالث بطليموس من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافية ، اشهر مؤلفاته المجسطي وآثار البلاد ، وهو من القرن الثاني الميلادي .

الكوفة :

وعلى بعد تسعة فراسخ جنوب الحلة ، كانت تقوم سابقا مدينة عربية تسمى الكوفة (١٨) ، لم يبق منها سوى بعض اطلال .

لقد كانت واقعة على قناة مستمدة من الفرات ، في أرض خصبة ومزدهرة وهذه القناة هي اليوم بدون ماء ، ويسميها البدوكرى سعده (١٩) . انها البالاكوبا (٢٠) التي يقول اريان (٢١) بانها تتصل بهور كبير حتى الفرات ، وذلك على الضفة اليمنى من هذا النهر ، جنوب بابل .

لقد جعل الخلفاء (الراشدون) الثلاثة الاوائل ، كما هو معلوم ، مقر اقامتهم في المدينة (المنورة) ، بينما جعلها علي (رضي) في الكوفة في أواخر سني حياته ، وكذلك الحسن (رضي) خلفه . اما الامويون الذين أتوا بعده فقد استقروا في الشام او في مدينة أخرى من مدن سوريا . وبويع أول الخلفاء العباسيين في الكوفة ، وترك المنصور ، وهو الخليفة الثاني هذه المدينة ، للاسباب التي ذكرناها اعلاه ، وأرسى أسس بغداد . ولا ندري في أية حقبة خربت الكوفة ، ومن المحتمل أن ذلك لم يحدث الا بعد استيلاء التتار على بغداد ، إذ يأتي ذكر الكوفة في عهد العباسيين مراراً .

مشهد الامام علي (النجف الأشرف) :

ويشاهد على بعد فرسخين الى الغرب والجنوب الغربي من اطلال الكوفة ، مشهد علي (رضي) ، او مشهد الامام علي ، وهي مدينة

---

(١٨) يكتبها : Kufa, Koufali

(١٩) Dsjarri - Zaadé

(٢٠) Palla copa

(٢١) Flavius Arrien مؤرخ يوناني من القرن الثاني ، له تاريخ الاسكندر الكبير .

كبيرة جداً ، قد تكونت حول المسجد الذي يفترض بأن هذا الخليفة مدفون فيه ، وقد شيد اكراماً له بعد زمن طويل من وفاته .

مشهد علي يسكنه عرب وغيرهم،لذا كان نصف السكان سنيّين يتبعون تعاليم الائمة الاربعة من أئمة المسلمين الأولين ، والنصف الآخر شيعيا ، أي من شيعة علي . ومن ضمن الاولين بعض الاتراك المتمسكين بسيادة الدولة .

يأتي سنويا للحج الى مشهد علي من العجم بعدد يقدر بخمسة الاف او ستة آلاف ، يمرون جميعهم تقريباً ببغداد ، ويتقاضى باشا هذه المدينة عن كل حاج أربعة قروش كضريبة ، وهي واسطة يضمن بها الحماية التي يحتاجونها .

مشهد الحسين (كربلاء) :

ليس مشهد علي المدينة الوحيدة التي يقصدها الزوار للحج ، إذ أنهم يقصدون أيضاً مشهد الحسين او الامام حسين (رضي) ، حيث يوجد قبر الحسين بن علي الذي قتل مع عدد كبير من أقاربه وأصحابه في واقعة كربلاء . ومعلوم أن الحسين ، بعد وفاة معاوية ، قصد الكوفة مع مائة وخمسين شخصاً وسائر آل بيته حيث كان ينتظره انصاره ، غير ان يزيد بن معاوية قد أرسل ضده ستة آلاف شخص قابلوه ، فاستشهد الحسين وسلاحه بيده ، لأنه حارب حتى الرمق الأخير ضد هذا العدد الغفير من المناوئين .وأقيم له ضريح قريب من ميدان المعركة ، وعلى هذا الضريح شُيد فيما بعد مسجد وتكونت حوله مدينة .

ان مشهد الحسين أقل شأناً من مشهد علي ، ويقع على بعد ستة او سبعة فراسخ الى الشمال الغربي من الحلة ، في موقع ممتاز جداً . تستمد مياهها من

الفرات بواسطة قناة، الامر الذي يسهل لسكان ان يزرعوا الكثير من النخيل حول مدينتهم .

عرب وهابيون :

إبان تجوالنا ، تحدثوا كثيراً عن الوهابيين (٢٢) . إنهم قبيلة عربية تشغل مساحة أكثر من مائة فرسخ الى الغرب من البصرة والخليج ، تجعل باشا بغداد يخشى إمام مسقط وشريف مكة ، إذ بوسعها بسهولة ان تجمع مائة الف فارس .

للوهابيين ، عـدا دارهم الرئيسة المسماة نجـد ، وهي المقر الاعتيادي لسكنى شيخهم ، بعض الارياف الواقعة في الاماكن الأشد خصوبة . بيد ان غالبيتهم رحّل ، ولا مسكن لهم عـدا خيامهم . وهـم يربون الجياد ، والحمير، والجمال ، والغنم التي يرسـلونها مع زبدها وجبنها وصوفها الى بغداد والبصرة . ويزرعون في أكثر من مكان الحنطة والشعير ، كما انهم يزرعون النخيل ايضاً ، ويأتي بعضهم لزراعة الرز في أراض يغمرها الفرات وشط العرب .



(٢٢) أورد الرحالة كلاماً عن الوهابيين بعيداً عن الحقائق فآثرنا حذفه لما فيه من أخطاء بالغة .

الفصل الثامن

منتوجات أطراف بغداد ــ مواد غذائية ــ وقود ــ حرف الاهالي ــ تجارة تركيا مع الهند وفارس عبر بغداد والبصرة والخليج .
المنتوجات ــ المواد الغذائية

المنتوجات الزراعية :

تقتصر منتوجات أطراف بغداد والبصرة بشكل رئيس على التمر والرز ، والشعير ، والحنطة ، وسائر انواع الحبوب . والحمضيات بأصنافها متوفرة فيها بكثرة ، لكنهم لايزرعون البرتقال ولو أن نجاحه من المحتمل عندهم ، الا أنهم يعوضون عنه بالليمون الحلو الذي ليس له طعم البرتقال ورائحته . والمشمش في هذه الارجاء من نوع ممتاز ، اما الاجاص فمن نوعية متوسطة . الاعناب رديئة ، وكذلك التين فهو ليس بجيد . وهذه كلها تنجح زراعتها على الشواطىءالاقرب الموجودة الى الشمال الشرقي من بغداد ، على مسافة عشرة أو إثني عشر فرسخاً من دجلة .

ان تمور البصرة أعلى نوعية من تمور مصر وبلاد المغرب (١) ، كما أن فيها كذلك تنوعاً اعظم . لقد قلنا في غير مكان انه لتكديس هذه الثمرة وحفظها وتسهيل امر نقلها ، يستخرج بطريقة العصر عصير له طعم التمر العسلي (٢) ، كما انهم يستخرجون من التمر العادي والرخيص عرَقاً أقل جودة من عرق العنب . والتمر في هذه البلاد غذاء الشعب الاعتيادي ، ورخيص جداً ، إذ لاتسوى اللبرة الواحدة فلساً ، ولا تبلغ النوعية المرغوبة

---

(١) ذكرها اوليفييه باسم البربر Barbarie

(٢) والمعروف في الاوساط الشعبية بالدبس او الحلو .

جداً اكثر من فلسين او ثلاثة (٣) .

يجود التوت الابيض والتوت الاسود هذا المناخ الحار واليابس ، وبوسع دودة القز أن تتكاثر فيه لو اهتموا بالامر . لقد رأينا بعض غرسات الخروب والعناب ، النبق جميل جداً هنا ، وينتشر بكثرة في الباحات والحدائق ، وثمره مفضل جداً في بغداد (٤) .

ورغم ان هذا المناخ يصلح لنمو عدد كبير من البقـول ، فاننا نظن أن اشجار البلدان الأشد حرارة لا تنجح فيه جيداً ، كما في مصر ، مع أنه أشد حرارة في الصيف ، لكنه أشد برودة في الشتاء . لذلك فان الحناء مثلاً غير موجودة على الاطلاق في هذه المناطق ، وكذلك الموز ، وقصب السكر ، فانهما لن ينجحا الا اذا تمت زراعتهما في أقصـى الجنوب أي في اطراف الخليج حيث لا يشعر بوجود البرد على الاطلاق (٥) .

الى الشرق من دجلة وشط العرب يزرعون بنجاح ، القطن ، والسمسم ، والتبغ ، وفوة الصباغين (النّيل) . وقد عرفت منذ زمن قليل زراعة النيلة في اطراف شوشتر (٦) .

منتوجات حيوانية ومواد غذائية :

إن ذبح الثيران غير منتشر عنـد الشرقيين لانها أقل جودة مما في اوربا ،

---

(٣) livre اللبرة ، مقياس انكليزي للوزن ، استخدم في عدة بلدان ومقداره حوالي نصف كيلو . والفلس sous عملة نقدية متداولة تغيرت قيمتها عبر الازمنة والامكنة . انظر الملحق الثاني في آخر الرحلة .

(٤) وردت أسماء هذه النباتات هكذا :
Mûrier blanc, mûrier, ver-à-soie, caroubier, jujubier, napca.

(٥) سنذكر تباعا أسماء النباتات وغيرها من مواد أو محاصيل وموارد ، دون أية مقدمة ، تسهيلا للامر : وكعادتنا نكتب الاسماء كلها في المفرد :
Henné, bananier, canne à sucre.

(٦) Coton, sésame, tabac, garance, indigo - Schuster
وشوستر أو تستر مدينة في الاحواز .

وذلك لانهم يفضلـــون الحفاظ عليهـــا لاستخدامها في الاعمـــال الزراعية ، وتحريك الآلآت الاسقائية . ويربى في بلاد بابل الثور العادي ، والجاموس ، والبقر الوحشي . لكن هذه الحيوانات قليلة الانتشار ، والأخير اندر بكثير من بقية الحيوانات . وهم لايأكلون الجمل ايضاً ، مع ان لحمه مفضل لديهم ، إذ نلقى البدو ينحرون في الاعياد الكبيرة او بمناسبة حدث خارق فقط جملاً صغيراً لأكله (٧) . لا نلقى لدى القصاب سوى الخروف ذي الذيل الطويل (٨) ، فهو متوفر ولـذيذ جداً . وحين كنا في بغـــداد كانت قيمة الحقة الواحدة خمس بارات(٩) . أي أقل من فلسين للبيرة(١٠) . ويشـــترى من البـــدو والاكراد ، واليزيديين . كما يباع الحمل بالسعر عينه ، ويأكل الناس منه مدة سبعة او ثمانية أشهر (١١) .

والخنزير البري (١٢) ، منتشر كثيراً في هذه الربوع ، فهو طيلة السنة على ضفاف دجلة والفرات ، كما انه منتشر في سائر بلاد مابين النهرين ، ويقطن ايضاً الجبال التي تفصل بلاد فارس عن تركيا . لحمه طري جداً ، ولكنه لا يوجد البتة في المجازر والاسواق ، ولا يجسر الارمن على الأكل منه

---

(٧) Boeuf, buffle, bison, chameau

(٨) اي الليـــة .

(٩) البارة para عملة نقدية كانت متداولة أيام العثمانيين ، والحقة ocque مقياس وزن ورد ذكره راجع الملحق الثاني من هذه الرحلة .

(١٠) انظر الهامش ٣ .

(١١) اذ يخزنونه اما بكبسه مملحا في آنية خزفية كبيرة ، أو بتجفيفه قدودا وتعريضه للهواء . ويستعمل اوليفييه كلمة mouton للخروف و agneau للحمل .

(١٢) sanglier

إلا نادراً ، وفي خفية . لقد حمل الينا البدو عدة مرات خنازير كبيرة الحجم ، وكنا ندفع لهم قرشين او ثلاثة .

والطيور منتشرة في بغداد ، وبخاصة في القرى الواقعة شرقي دجلة . وعندهم الدجاجة ، او فرخ الدجاج الكبير الحـ.ـم ، بستة بارات ، والحمام ببارة او ببارتين ، ولا يدفع بالدراج أكثر من بارتين ، والدراج نوع من الحجول ، أكبر قليلاً مما يوجد عندنا في اوربا (١٣) ، وهذا الطير الأخير واسع الانتشار شرقي دجلة ، من الموصل وحتى بغداد ، لكنه نادر في الاسواق . حتى الارانب (١٤) ، مع انها كثيرة الانتشار في البراري في جميع انحاء كردستان . وتأتي ندرة هذه الحيوانات من ان المسلمين لا يأكلون عادة أية طريدة صيد . ونجد لديهم شتاءً البط البري (١٥) بكميات كبيرة ، يصطادونه بواسطة الباز (١٦) الذي يربى لمثل هذا الغرض . والغزلان (١٧) ايضاً التي تصطاد بواسطة الباز لايأكلها ايضاً سوى الفقراء ، مع اعتراف الجميع بجودة لحمانها .

يتناول العرب والاتراك عادة شيئاً يسيراً جداً من الاسماك ، مع ان النهرين والخليج تزودهم بكمية وفيرة ، فهي مكتظة بالاسماك طيلة أيام السنة . فثمة بعض المسلمين في هذه البلاد يصعدون التشكيك بحيث لا يأكلون منتوج أي حيوان ماخلا الضان والدجاج .

والبقول ، كالحمص ، والباقلاء ، والفاصوليا ، والخضروات كاللفت ،

---

(١٣) poulet, pigeon, francolin وقد ورد هامش بشأن الدراج أدرجناه في المتن ، واسمه العلمي :
Tetrao francolinus espèce de perdrix

(١٤) lièvre

(١٥) oie sauvage

(١٦) faucon وتسمى طريقة الصيد بالباز (البيزرة) .

(١٧) gazelle

واللهانة ، والحميض ، موجودة بكثرة كبيرة التنوع (١٨) . ونلقى في هذه البلاد كل ماذكرناه في مصر . كما نجد فيها سائر انواع البطيخ والرقي والقرع والباذنجان (١٩) .

رأينا في الربيع ضربا من الكمأة (٢٠) يختلف تماماً عما نلقاه في اوربا من حيث الطعم والشكل واللون ، فهي تميل في باطنها الى الاسمر ، ولونها الخارجي غامق ، ونوعيتها أقل جودة ، وأخف رائحة ، لكنها أقل عسراً للهضم . ويكثر تناول هذا الغذاء كثيراً خلال شهرين او ثلاثة ، ولا اظنهم يعرفون طريقة لحفظ هذه الكمأة لبقية السنة ، كما في اوربا ، . انهم يستخرجونها من جميع براري بلاد مابين النهرين وشمال جزيرة العرب .

والناس يعرفون الكستناء بندرة في بغداد ، وهي تأتيهم من بلاد الماديين وكردستان ، ويأتيهم كذلك الجوز ، وفواكه أخرى من اوربا ، كما يأتيهم من هذه البلاد البلوط الحلو ، لقد ذقناه فالفيناه أقل جودة بكثير من أردأ انواع الكستناء عندنا ، لذا فانهم يتركونه لطبقة الشعب الفقيرة (٢١) .

الوقـــود :

الخشب أندر في بغـداد مما في مصر ، وما يسـتعمل للنجارة يأتي من كردستان وحدود فارس ، وهو من خشب البلوط والساج والجوز والصنوبر (٢٢) وكلها اشجار تنمو في هذه الجبال . وهم يستخدمون أحياناً التوت والنبق (٢٣) كما ويوقدون في المدافىء الطرفاء والصفصاف (٢٤) يقطعونها

---

(١٨) pois, fève, haricot, herbages, navet, choux, oseille

(١٩) melon, concombre, pastèque, courge, melongène

(٢٠) truffe

(٢١) châtaigne, glans doux

(٢٢) chêne, platane, noyer, sapin

(٢٣) mûrier, napca

(٢٤) tamaris, saule

من على ضفاف الانهر التي تصب في دجلة أو في الاراضي التيتغمرها مياه الرافدين دوماً . كما انهم يوقدون الحضض والحساسة (٢٥) يجلبونها من البراري ولكنهم يلجـأون عادة الى روث الحيـوانات الاهلية ، يصنعون منه قوالب بفضل العشب المسحوق او التبن ، وقد يطلونها بالقار احياناً .

ويندر ان يحتاجوا الى تدفئة انفسهم ، وحين يحسون بالبرد حقاً ، يلجأون الى المنقل (٢٦) ، يضعون فيه فحماً مصنوعاً من الطرفاء ، يوقدونه في الفناء ثم يأتون به الى وسط الغرفة .

يستضيء الاغنياء منهـم بالشمع والشحم والزيت ، بينما لا يستخدم الفقراء سوى القار الذي يسيل في اطراف كركوك (٢٧) .

الصناعة والحرف :

تصنع في بغداد أقمشة حريرية وقطنية مقلّمة ، وأقمشة من حرير خشن او من مشاقة الحرير الآتية من كيلان (٢٨) ، فيصنع منها الاعراب قمصاناً . كما يصنعون أقمشة قطنية لينّة وخشنة جداً . يطبعون عليها اشكالاً قليلة اللمعان ، تخصص لاستعمال النساء والاطفال والفقراء . كما يحوكون ايضاً أقمشة غالية من قطن مطبوع للافرشة والاغطية وغيرها . ويصدرون بعضها الى سائر انحاء كردستان .

غير ان مايشغل العدد الاكثر من العاملين هي المربعات الطويلة والحرير المخملي ، والاقمشة المقلمة والمؤطرة التي يصنع منها مخدات وتفرش بها

---

(٢٥) braussailles de liciet d'acacie: lycium et mimosa

(٢٦) يسجله اوليفييه بلفظه العربي mangal ويحيلنا الى الجزء الاول من رحلته ص ٢٣١ حيث يصفه بشيء من التوسع ، وهو معروف في أوساطنا الشعبية .

(٢٧) cire, graisse, huile, bitume

(٢٨) Guilan

الارائك والدواوين . يمر منها الكثير عبر الموصل ، وديار بكر ، وحلب ، والشام . كما يصنعون ايضاً أقمشة مراكشية لتصريفها في المدينة (٢٩) .

ويشتغل الناس قليلاً في صياغة الذهب والفضة . ويصنعون بشكل ممتاز بعض الادوات المنزلية الجلدية لاستعمال الاهالي .

التجـــارة :

لايمتاز بلد آخر ، بعد مصر ، بموقع حسن كهذا البلد ، اذ انه يصلح كمستودع تجاري عظيم ، فهو يربط اوربا بالهند الشرقية وسوريا وبابل . ولئن كانت مصر متصلة بالمحيط الهندي عبر البحر الاحمر ، فان البلدين الآخرين (سوريا والعراق) ينتهيان بالخليج الذي يقع أكثر شرقاً باتجاه البحر المذكور ، ممـــا يعطيه ميزات أفضل . وتشكل مصر ، من البحر الاول حتى الآخر ، مسافة محصورة جداً بالنسبة لوجود نهر كبير وقنوات تقطع البلد في أقسام كثيرة . بينما يقطع بلاد بابل نهران ، ورغم ذلك تظل المنطقة غير قابلة للملاحة إذ ان ثمة مسافة كبيرة يجب اجتيازها للوصول الى البحر المتوسط. ولا توجد أية وسيلة أخرى لقطعها سوى القوافل .

ومع ذلك ، ورغم هذه المسافة التي على البضائع ان تقطعها لكي تصل من الخليج الى بابل بواسطة النهر (٣٠) ، ومن بابل الى موانىء سوريا عن طريق البر ، فان تجارة الهند مع اوربا قد اتخذت دوماً هذه الطريق حتى اكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح .

وحين كانت مصر ، أيام حكم خلفاء الاسكندر (٣١) ، تغطي بوارجها

---

(٢٩) يقصد بغـداد .

(٣٠) المقصود هنا الخليج العربي الذي تقع عليه البصرة ، أما بابل فتعني بغداد لدى اوليفييه .

(٣١) أو البطالسة وقد حكموا من سنة ٣٠٩ وحتى ٣٠ ق.م .

البحر المتوسط وخليج عدن (٣٢) ، عرفت توسعاً في تجارتها البحرية التي كانت تمضي سابقاً عبر الخليج وبابل وتدمر وصور (٣٣) ، فكان لابد ان تتناقص ضرورة ، علماً بأن اتصالات البحر المتوسط مع الهند كانت أقصر عبر خليج عدن ، فالمواصلات أقل كلفة ، والحوادث أقل خطورة ، فانحط مجد صور القديم سراعاً ، بينما صمدت تدمر ، بل وصلت بفضل العلاقات التي قامت بين الفرثيين والرومان الى درجة التضخم والرفاه ، الامر الذي يدل على انها اصبحت المستودع الوحيد لتجارة اتسعت رقعتها كثيراً . ومن المحتمل أن تدمر كانت تلعب حتى الوقت الحاضر دوراً ذا فوائد جليلة ترشحها له مكانتها لو لم يخربها الرومان ، ولو لم يتغير الشرق فيما بعد على يد العرب ، ثم الصليبيين والاتراك .

تقع تدمر على بعد اربعة أيام من مسيرة القوافل من الفرات ، وتسعة او عشرة أيام من بابل ، وخمسة من الشام ، وثلاثة او اربعة من حمص ونهر العاصي (٣٤) وهي بمثابة المدينة الثانية التي في سوريا ، إذ كانت آخر مدينة فيها ماء حلو غزير وارض منتجة ، فكان لها ان تغدو بفضل موقعها هذا مستودع التجارة لصور وسوريا كلها وبلاد اليونان وجميع موانىء البحر المتوسط وفارس الجنوبية وبلاد العرب ، لان تجارة كهذه لم تكن لتتم بعين النجاح عن طريق خليج عدن قبل انشاء ميناء الاسكندرية ، وقبل افتتاح القناة التي تربط النيل بالبحر الابيض ، وقبل تكوين اسطول بحري ، وقبل ان يتلاشى

---

(٣٢) وردت أصلا : الخليج العربي ، والمقصود خليج عدن ، لان اوليفييه يسمي الخليج الاول بالفارسي خطأً .

(٣٣) Babylone, Palmyre, Tyr الاولى عاصمة البابليين الشهيرة ، والثانية في بادية الشام وملكتها زنوبيا ، والثالثة في جنوب لبنان ، وقد اشتهرت هي وصيدا كمرفأين مهمين للفينيقيين في العصور الخوالي .

(٣٤) ان اسم نهر العاصي قديما Oronte وبهذه التسمية ورد لدى رحالتنا . والمدينة الشهيرة Emesse مدينة قديمة اشتهرت بمعبد الشمس .

في هذا البلد الاعتقاد الخاطيء السائد الذي ينظر الى الانسان الذي ينذر ذاته لمهنة البحارة نظرة امتهان وإذلال .

وعندما انحصر القسم الاكبر من تجارة الشرق في مصر ، سلّمت صور وصيدا وأراد (٣٥) سيادة البحر للاسكندرية ، وظلت تدمر ، رغم ذلك كله ، مزدهرة جداً ، لان عدداً كبيراً من المدن المترفة كانت وما تزال قائمة في سوريا وما بين النهرين وارمينيا وبابل وفارس ، وهذه بحاجة الى مستودع عام للتجارة التي كانت تقوم بينها ، وللتجارة المستمرة بين البحـــر المتوسط والخليج .

ولدى نقل العرب مقر امبراطوريتهم الى بغداد ، اتخذت تجارة الهند في قسمها الاكبر ، طريقهـــا الاولى ، لكن تدمـــر فقـــدت منزلتها ، وخلفتها حلب والشام ، و استمرت التجارة عبر الخليج ، أكثر مما عبر مصر ، إذ كان من الافضل للمسلمين اتخاذ الطريق المذكورة .

وحين لم يعد اباطرة الشرق مسيطرين على مصر وسوريا وما بين النهرين ، غدت المنتوجات تصل من الهند الى القسطنطنية عبر طريق لم تكن لترفع من قيمتها بشكل ملحوظ ، إذ كانت تصعد نهر الهند حتى اتوك (٣٦) ، ثم تنقل من هناك على ظهور الجمال الى كابول ، ثـم الى بلخ ، حتى تصـــل اوكسس (٣٧) ، ثم تنحدر في هـــذا النهر حتى بحر الخزر (٣٨) تمخر

---

(٣٥) Sidon, Aradus صيدا مرفأ في جنوب لبنان ، أسسها الفينيقيون ، ومملكة اراد أو أرواد ، قديمة ، في موقع اللاذقية .

(٣٦) Indus, Atock

(٣٧) Caboul عاصمة افغانستان ، Balch القصبة السياسية لولاية خراسان والمركز الثقافي الديني لطخارســتان . و Oxus الاسم القديم لنهر امور داريا Amordarieh الذي كان يصب في بحر قزوين ، أو بحر الخزر كما يسميه العرب .

(٣٨) يستعمل اوليفييه التسمية الثانية ايضا لبحر الخزر وهي : Mar Caspienne

نهر الفولغا (٣٩) ، وتصعد نهر الفولغا عدة أيام ، ثم تنتقل ارضاً حتى تانائيس (٤٠) وتنحدر حتى جسر قزوين (٤١)فتصل من هناك الى القسطنطينية . بينما كانت الطريق التي تسلكها القوافل اعتيادياً هي طريق مولتاس،وقندهار، وهراة ، واستراباد (٤٢) حيث تحمل البضائع الى الفولغا ، فيقطع بعضها شمال فارس وتصل البحر الاسود عبر جيورجيا (٤٣) ، او كانت تمضي من فارس الى ارمينيا ، وتبحر الى سينوب او طرابزون (٤٤) لكي تصل من هناك الى القسطنطينية .

ان اكتشاف طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، واستيطان الاوربيين في اميركا الجنوبية ، عملا على ضرورة قيام ثورة كبيرة في عالم التجارة ، لان ذلك فتح خط مرورمباشر بين اوربا والشرق ، كما حمل معظم منتوجات الهند الى مستعمرات اوربا الامريكية ، فلم يكن هذا الاكتشاف نتيجة للروح القلقة المضطربة التي أبداها البرتغاليون في اواخر القرن الخامس عشر وحسب ، انما جاء نتيجة للحاجة الماسة الى العقاقير والتوابل وسائر بضاعة الهند ، التي لم يعد في الامكان الحصول عليها الا بأسعار باهظة ، لان البدو كانوا يسلبون القوافل بسهولة ، والاتراك كانوا يحملونها ضرائب كثيرة ، لان البندقية التي بواسطتها كانت تتم تجارة الشرق بأسرها ، ارادت مضاعفة امتيازاتها ، غير ان هذا الاكتشاف الذي استعاد طريق التجارة الهندية الاوربية ، لم يمنع المسلمين اطلاقاً من مواصلة استيراد جميع منتوجات الشرق التي واصلوا الانتفاع بها عبر مصر ، بل

---

(٣٩) Volga نهر روسي ، واطول انهار اوربا .

(٤٠) Tanais الاسم القديم لدون Don

(٤١) Pont - Euxin

(٤٢) Astérabat, Moultan, Candahar, Hérat

(٤٣) Géorgie بلاد جيورجيا في الاتحاد السوفييتي في الوقت الحاضر .

(٤٤) Sinope, Trébizonde مدينة في تركيا تقع على البحر الاسود .

وعبر الخليج بشكل خاص .

بوسع التجارة التي يقوم بها الاتراك في أيامنا عبر الطريق الأخيرة المذكورة اعلاه أن تكون ذات أهمية أكبر لو لم يكن الخليج معرضاً للقرصنة بصورة اعتيادية ، ولو رفعت الرسوم التي يطالب بها بدو الفرات ، ولو كانت الضرائب التي يجبيها باشا بغداد معتدلة ، ولو كانت المخاطر التي تتعرض له غالباً القوافل التي تقصد حلب والشام غير موجودة . فان البصرة أقرب الى المحيط الهندي من السويس ، والخليج أقل اتساعاً، وأقرب الى الشرق من خليج عدن ، لذا فان ذلك يسمح للسفن بالمضي من البصرة الى صراة وبومباي والملبار وحتى البنغال (٤٥) بشكل اسـرع من طريق السويس (٤٦) ، والعودة ايضاً اسرع ، لان الرياح أشد تقلباً ، كما أن لهذا الخليج موانىء أكثر من خليج عدن .

ورغم جميع الامتيازات هذه فاننا نعتقد بأن الطريق السالكة الى الهند التي ينبغي تفضيلها ، هي الطريق عبر مصر ، لانها أقصر بالنسبة للبضائع ، وأقل غلاءً ، إذ ليس في مصر سوى صحراء مترامية الاطراف طولها اربعةوعشرون فرسخاً ، بينما ثمة مائتا فرسخ تقريباً من بابل الى البحر المتوسط ينبغي قطعها . ولا تتجاوز المسافة بين القاهرة والبحر اربعين فرسخاً عبر نهر النيل ، بينما ثمة مائة بين الحلة وبغداد عبر الخليج .

ومن المؤمل ان تستتب في هذين البلدين (٤٧) حكومة نظامية ، حينذاك لن يتوانيا عن تصعيد النشاط والتجارة ، فيحقق كل منهما من موقعه امتيازات غير متوفرة للاخر .

---

(٤٥) صراة Surate ميناء هندي ، Bombay المدينة المشهورة في الهند ، Malabar مقاطعة هندية وولاية تسمّى كيرالا ، والبنغال Bengale بنغلاديش .

(٤٦) Suez مدينة في مصر ، ولم تكن قناة السويس قد انشئت بعد .

(٤٧) يقصد العراق ومصر .

ولن يهمل بسبب ذلك طريق رأس الرجاء الصالح ، لان التجارة لن تكتفي البتة ، ولن يتوفر ابداً مايكفي من وسائل لتجنب احتكارات الدول والتخلص من قراصنة البحر واللصوص والضرائب والرسوم الكمركية .

ان جميع البضائع التي تأتي اليوم عبر الخليج تحمل كلها تقريباً من البصرة الى الحلة ، حيث تضطر الى الذهاب عن طريق البر الى بغداد ، وهي انما تتخذ هذه الطريق لأن صعود الفرات اسهل من ركوب دجلة .

الرسوم والضرائب :

اما الرسوم التي تدفع في البصرة فهي سبعة ونصف بالمائة (من البضاعة الحقيقية) بالنسبة للمواطنين ايا كانت ديانتهم ، وثلاثة بالمائة للاوربيين (٤٨) . وليس ثمة تفتيش ورسوم أخرى وذلك من هذه المدينة وحتى الوصول الى بغداد ، بينما تدفع البضائع التي تصعد الفرات الضريبة سبع مرات .

تستوفى الضريبة الاولى لدى الخروج من البصرة ، وهي خمسة قروش عن كل رزمة ، والثانية ثلاثة قروش ، وتدفع في الحلة ، وتكون الضرائب الاخرى أقل من ذلك . ولا يدفع الاوربيون سوى نصف المبلغ . بينما تتجنب القوارب التي تصعد دجلة خمس دفعات ضرائب ، إذ لاتدفع سوى ضريبة واحدة في البصرة ، وأخرى في القرنة . لكنها لا تسلك هذه الطريق الا اذا كانت المياه عالية ، والا فانها تدخل الفرات في القرنة ، ثم تمخر بعد عشرين فرسخاً في قناة اسمها الحي (٤٩) توصلها الى دجلة .

ولدى دخول البضائع بغداد، فان بضائع المواطنين، من أية جهة كان قدومها ، تدفع ثمانية ونصفاً بالمائة اذا كانت بضائع وزن ، وخمسة بالمائة

---

(٤٨) اشارة مهمة تجدر ملاحظتها .

(٤٩) Hay ويشرحها بمعنى الحية . والحي قضاء في محافظة واسط ، قرب مدينة الكوت .

اذا كانت من البضائع النفيسة (٥٠). وتؤخذ الرسوم وفقاً للاسعار المتداولة. وتسمى بضائع وزن: المعادن، القهوة، التبغ، الفلفل، السكر، وكل مايوزن. بينما تسمى بضائع نفيسة الاقمشة أياً كانت انواعها وأثمانها.

ويدفع الاوربيون ثلاثة بالمائة عن شتى انواع البضائع.

ولدى مغادرة بغداد لن يدفع بعد أي شيء، ولا يجري أي تفتيش آخر.

وليس على البضائع التي تمضي الى البصرة، عبر دجلة والفرات، أية ضريبة تسدد. غير أن البدو يطالبون ببعض الاكراميات. اما في البصرة فيدفع عنها سبعة ونصف بالمائة، كالبضائع الوافدة من الخليج تماماً. ويدفع عنها خمسة بالمائة لدى خروجها من هناك للذهاب الى فارس او مسقط او الهند. ولا يدفع الاوربيون غير ثلاثة بالمائة.

وتدفع القوافل من حلب الى البصرة، عبر الصحراء، عين المبالغ اعلاه. وتمضي قوافل الشام الى بغداد في أغلب الاحايين وتفعل كذلك منذ زمن قوافل حلب ايضاً. ولا توجد اية حقوق تدفعها القوافل عبر الصحراء، الا ان رؤساء القوافل يقدمون بعض الاكراميات الى رؤساء العشائر العرب الذين يمرون بهم في طريقهم.

التصدير :

ليست اوربا وحدها ملزمة بتسديد أثمان المنتوجات الغالية والوفيرة التي تستوردها من الهند، وذلك بذهبها ومعادنها الاخرى، بل ان تركيا ايضاً مضطرة على ان تصب في القناة عينها كل ما تحصل عليه من اوربا. فأنه بالنقود الذهبية، المتداولة في البندقية وهولندا وهنغاريا، وبالنقود الذهبية

---

(٥٠) يستخدم اوليفييه مصطلحين لتمييز البضائع، وهما بالفرنسية:
marchandises de poids - marchandises précieuses

التركية القديمة والقروش القديمة (٥١) ، تشترى كل البضائع الوافدة من الخليج . ويُقدَّر مايُتداول عبر هذه الطريق بعشرة ملايين قرش تركي ونيف . ولكان هذا المبلغ أكثر وأعلى لو لم تكن تركيا تزود الهند بعض أغراض ذات قيمة ، كما سنرى أدناه .

وتقدر بخمسة ملايين قرش الفضة التي تذهب الى بلاد فارس ، وبمليون قرش بضائع اوربا التي يقتنيها الاتراك،وتدفع بقيمتها البضائع التي تستورد من فارس او من الهند .

ويمر الى الهند عن طريق فارس الكثير من النحاس المستخرج على شكل قوالب من مناجم آسيـا الصغرى ، وكذلك كمية كبيرة من النحاس القديم المحمول من سوريا وبلاد ما بين النهرين والاناضول وكردستان (٥٢) .

والعفص ايضاً مادة مهمة ، يمضي الكثير منه الى الهند . ويصل من آسيا الصغرى كذلك قليل من الافيون والصمغ والكثيراء . وتصدر بغداد وكركوك والموصل بضع حزم فوة الصباغين المسماة فوا (النّيل) (٥٣) .

ويصدر الكثير من التمور الى كرمنشاه وهمذان وشمال بلاد فارس . كما يصدر اليها قليل من الرز ، وذلك بحراً من البصرة الى مسقط ، وصراة ، وخليج قمبيز ، وكذلك التمور ، والرز ، وأحياناً الجبن والشعير (٥٤) .

ان أقـلام الكتـابة التي يستعملهـا الفـرس والاتراك هي من قصب ينمو على ضفاف الانهر ، الى يمين شط العرب ، ويصدر منها كمية كبيرة الى الهند ايضاً .

---

(٥١) يستخدم رحالتنا العملة القديمة (السكة sequin) وقد ورد ذكرها ، كما يستعمل القروش Piastres انظر الملحق الثاني من هذه الرحلة .

(٥٢) argent, cuivre

(٥٣) noix de galle, opium, gomme adragant, garance, foua

(٥٤) وردت اسماء هذه المواقع هكذا :
Karmanche, Amadan, Mascate, Surate, golfe de Cambaye

والجياد المروضة من قبل العشائر العربية القاطنة الى الغرب من البصرة وبغداد ذات قيمة كبيرة وشأن رفيع في الهند ، ويصدر منها سنوياً عدد كبير الى صراة وكجرات (٥٥) .

البضائع الاوربية :

تستهلك في تركيا (الدولة العثمانية) الاقمشة السانتينية والمخملية ، والموشاة بالذهب والفضة التي تأتي من ليون ، والانسجة اللماعة وغيرها (٥٦) . يصل منها عادة الى بغداد ، ثم تنتشر في بلاد فارس وحتى قندهار .

وتمضي أقمشة فرنسا الجوخية (٥٧) الى فارس وحتى قندهار . أما الانواع المرغوبة كثيراً فهي اللندنية من الدرجة الثانية التي تقوم بصنعها معامل لانكدوك (٥٨) .

حين كان الاوربيون مستقرين في الخليج وأصفهان ، كانوا يستهلكون كمية كبيرة من الاقمشة الجوخية ، ومن منتوجات أخرى مصنوعة في اوربا . وكان الاوربيون في ايام كريم خان ما يزالون يبيعون في البصرة وبوشهر (٥٩) أقمشة جوخية بقيمة مليون ، كانت مخصصة لبلاد فارس ، اما في الوقت الحاضر فانهم لايبيعون بهذا المقدار . واليك السبب .

كانت الحكومة الانكليزية قبلا تلزم شركة الهند الشرقية ان تشتري سنوياً من معامل انكلترا كمية معينة من الجوخ تبيعها بخسارة في بندرعباس (٦٠) . لكنها بعد ان خسرت هذا المكتب التجاري ، استمرت في ايصال اقمشتها

---

(٥٥) Guzurate كجرات مدينة في الهند .

(٥٦) satins, velours, étoffes en or et en argent de Lyon, moires

(٥٧) Condrins

(٥٨) Fabriques de Languedoc ولعلها لانجستر .

(٥٩) Bouscher

(٦٠) Bender - Abassi

الى البصرة وبوشهر . وطبيعي أن الاقمشة الانكليزية حين كانت تباع بخسارة ، لم يكن لاقمشة الدول الاخرى ان تنافسها ولـكن منذ ان اصبحت الشركة حرة في اختيار بضاعتها ، ارتفع سعر الاقمشة كثيراً في البصرة وموانيء الخليج ، واصبح في الامكان عند ذاك بيع أقمشة الفرنسيين بمقدار أكبر .

لاريب في ان الفرنسيين الذين لهم أقمشة أقل غلاء، مع ان نوعيتها مفضلة كثيراً في هذه الارجاء ، لايتمكنون ان يعملوا في يوم من الايام على ازدهار هذا الفرع من التجارة كما ينبغي ، إذ يجب ان يكون لهم مواضع في البصرة ، وأن تكون بواخر التصـدير الفرنسية مشحـونة بالأقمشـة والنحاسيات وأقمشة ليون وغيرها ، وتتجه نحو مسقط ، والبصرة ، وموانيء فارس ، ثم تعود محملة بمأكولات البصرة الى مسقط ، او بالنحاس الى صراة ، او انها تمضي بحمولتها حتى اوربا . وبوسعها كذلك ان تحمل المأكولات او القطران المعدني او قار هيت الى جزيرة فرنسا (٦١) .

وتباع ضفائر ليون (٦٢) في الامبراطورية العثمانية حيث تستهلك ، ولا يصل منها الا القليل جداً الى بلاد فارس ، وجل استهلاكها في بغداد . ولقد حاولوا في القسطنطينية تقليـد الانواع الاعتيادية الا انهـم لم يتوصلوا الى صنعها جميلة من حيث الشكل ، ولا بيعها بسعر زهيد كالاصلية .

والابر كذلك من الادوات التي يصل منها الكثير الى فارس (٦٣) . والاعتيادية أشد طلباً لانها أرخص .

وليست الساعات وسائر الادوات النحاسية والحديدية ذات رواج سريع ، لذلك يصل القليل منها فقط (٦٤) .

---

(٦١) Ile - de - France مقاطعة فرنسية قديمة ، عاصمتها باريس .

(٦٢) galons de Lyon

(٦٣) aiguilles

(٦٤) montres, objets de quincaillerie

ويأتي الى بغداد براً ، لكي يحمل الى بلاد فارس ، وأحياناً الى الهند ، الحديد على شكل قضبان ، والقصدير ، والمسامير ، والفولاذ ، والزنجفر (أوكسيد الرصاص) ، والاسفيداج (كربونات الرصاص) ، وخيوط النحاس ، وخيوط القصدير ، والامواس الدقيقة من النحاس الاصفر والابيض من نورمبرغ ، المسماة لاميتا (٦٥) .

وترسل زجاجيات البندقية (٦٦) عبر هذه الطريق الى الهند وفارس .

ويشترى في تركيا الكثير من زجاج بوهيميا ، كالقناني ، والصحون ، والنرجيلات ، واواني الشرب ، وأوعية المربى ، والمذهبة منها ، ويصل الكثير من هذه كلها الى فارس وبغداد والبصرة (٦٧) .

وتصل احياناً الى الهند كمية يسيرة من دودة القز (٦٨) ، تجلب من مرسيليا عبر حلب . كما يصل بالطريق عينها شيء من العقيق المشغول (٦٩) ، يذهب الاجمل منه الى الهند بينما يحمل الأقل جمالا الى فارس ، ويشتري البدو ما هو متآكل او من نوعية احط .

والشيح (٧٠) الشفاف ذو اللون الاصفر الجميل مطلوب في فارس وجزيرة العرب والهند ، وهو مادة تجارية مهمة جداً في بغداد ، ويستهلك الغليظ منه في تركيا بأسرها ولا سيما لصنع الغليون (٧١) ، بينما لايصل منه الا القليل الى الهند وفارس .

---

(٦٥) fer en barre, acier, clous, étain, minium, céruse, fil d'archal, laiton en feuilles ou en fil, lames, lametta

(٦٦) verroterie de Venise

(٦٧) verres de Bohème, flacons, plats, narguils, vases

(٦٨) cochenille

(٦٩) corail

(٧٠) succin وهو الكهرمان .

(٧١) pipe

المواد المستوردة

السكر :

ان المفضل دوماً هو سكر امريكا لانه افضل من سكر الهند ، وذلك حين لايكون سعره مرتفعاً جداً . كما يأتي منه الكثير من باتافيا (٧٢) والبنغال لاستهلاك بغداد وجزيرة العرب ، ويمر منه شيء الى فارس .

القهوة :

يصل الى البصرة وبغداد في كل سنة خمسة بل ستة أحمال (٧٣) من القهوة ، تستهلك في بلاد مابين النهرين وكردستان وارمينيا ، ويصل شيء قليل منها الى فارس . ويحمل منها أحياناً الى حلب والشام .

التبغ :

يأتي تبغ فارس المسمى تومباك(٧٤) من اصفهان وشيراز الى بغداد ، حيث يحمل الى دمشق وحلب والقسطنطينيـــة . ويزرع مثله في اطراف بغـــداد بكميات كبيرة جداً . يذهب الى جميع انحاء تركيا . ويعتبر تومباك شيراز من الدرجة الاولى ، بينما تومباك اصفهان من الثانية ، ويأتي تومباك بغـــداد أقل من ذلك . ويقدر تصدير هذا الأخير بعشرة آلاف حمل ، وبسعر يبلغ خمسين قرشاً عن كل حمل ، الامر الذي يصبح مليون فرنك بعملتنا . وهذا التبغ قوى جداً ، فلا يستعمل إلا للنركيلة . دخانه حريف جـــداً ، إلا اذا خُفِّف باناء مليء بالماء يفصل الدخان عن انبوبة الغليون (النركيلة) . وليس التمباك حريفاً بهذا الشكل الا لان نبتة التبغ قد اكتسبت كل نضجها تقريباً ،

(٧٢) Batavia وهي جاكارتا الحالية في اندونيسيا .

(٧٣) fardes

(٧٤) tombak

ولانهم لا يتناولون الاوراق وحدها ، بل الاضلاع والساق والنبتة بأكملها . ان النوع الذي نزرعه في اوربا هو ما يزرع في الشرق بأسره .

النيلة :

منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة ، أمست نيلة اميركا نادرة جداً (٧٥) ، وغالية جداً في تركيا وفارس ، أكثر مما كانت عليه في السابق ، ازدادت زراعة هذه النبتة التي تنمو بشكل مذهل في لاهور ومولتان واطراف خليج قمبيز . والنيلة المصنوعة في هذه الاماكن هي تقريباً بنفس الجودة كالتي في سان دومنيكو (٧٦) . يحمل قسم من هـذه البضاعة الى صراة بينما يتخذ القسم الآخر طريق كابل وقندهار ، وهي منتشرة في كل من فارس وتركيا الآسيوية . مما يدعو الى الاعتقاد بأن هذ النوع من التجارة سيضمحل بالنسبة للاوربيين عما قريب ، ان النيلة التي تصنع شرقي نهر الهند تكفي للامبراطورية العثمانية وفارس . ولم يعد يصنع منها منذ مدة الا القليل في شوشتر الواقعة الى الشمال الشرقي من البصرة . وقد قلنا سابقاً انهم يصنعون الكثير منها في مصر .

عقاقير :

ان الكثيراء ، والامونياك ، والقنة المهجونة ، والحلتيت ، والجاوشير ، والمقل ، والراتينج تأتي من بلاد فارس ، وتحمل الى حلب والشام ، ثم تعبر الى اوربا (٧٧) .

المر ، والسولع ، والبخور تأتي من جنوب جزيرة العرب ، ومن القسم الشرقي من افريقيا ، وتمر أحياناً عبر بغداد لكي تصل الى حلب والشام (٧٨) .

---

(٧٥) indigo

(٧٦) Saint - Domingue اسم آخر لجزر هايتي .

(٧٧) adragant, ammaniac, galbanum, assa - fétida, sagapenum, apopanax, bdellium, sarcocolle

(٧٨) myrrhe, aloès, encens

ويأتي البنجوان ، وعود الندّ ، وخشب السولع (٧٩) من الهند فتصل بغداد لكي تنتشر في تركيا كلها ، إذ تستهلك القسطنطينية منها كمية كبيرة جداً . والنــوع الأخير خشب صمغي جــداً ، يعتقد انه ينتمي الى فصيلة شجرة تسمى اغلاجون (٨٠) ، قد صوره رامف في كتابه (٨١) .

السحلب :

يجلب من شمال فارس وشرقها نوعان من السحلب (٨٢) ، الاول صغير ، شفاف ، وملفوف بخيط قطني ، وهو مايرسل من حلب الى اوربا كلها ، ويعتقد بأنه اصول ذات بصلات السحلب المنقعي(٨٣). أما الآخر فأرخص ، وهــو أكبر من الاول ثلاث او اربــع مرات ، ولا يعرفه الاوربيون ، لكنه ينتمي كالآخر الى فصيلة السحلبيات . ويسمي كلاهما ، في بغداد واصفهان ، « سحلبية » (٨٤) .

الراوند :

يأتي الراوند (٨٥) من بلاد فارس ، فيصل بغداد ، ومنها الى حلب كما يصل الكثير منه الى سميرني (ازمير) عبر هراة ، ومشهد ، وقزوين وتبريز ، وارضروم ، وطوقات (٨٦) .

---

(٧٩) benjoin, bois d'aloès, bois d'aigle, kalembar

(٨٠) agalloche

(٨١) Rumph, Herbier d'Amboine, tom. II, p. 235, pl. 79 et 80
بينما يسمي Linné هذه الشجرة Excoecaria agallocha

(٨٢) Salep

(٨٣) Orchis morio

(٨٤) salebiéh

(٨٥) Rhubarbe

(٨٦) وردت أسماء هذه المواقع :
Smyrne, Hérat, Mesched, Casbin, Tauris, Erserum, Tocat

السنا :

ان نفس الشركات (٨٧) التي تحمل الى البصرة الموكا ، والقهوة ، تجلب ايضاً كمية وافرة من السنا (٨٨) ، فينتشر منه في القسم الشرقي من تركيا ، ويمر شيء منه الى فارس .

الاهليلج :

يستعمل الشرقيون هذه الثمار أكثر من الاوربيين ، فقد امتنع هؤلاء تقريباً عن تناول هذه الحشائش منذ ان اصبح لهم مواد مسهلة او قابضة أخرى لها ذات المفعول ،وهي أقل غلاء .

يصل الى بغداد الكثير من الاهليلج (٨٩) باقراص سكر (٩٠) ، وهي طيبة ومسهلة بشكل كبير .

دهن البطم :

في اعالي جبال كردستان والجبال التي تفصل بلاد فارس عن الامبراطورية العثمانية ، قمنا بجرح جذع شجرة البطم ، فبدا لنا السائل عينه الذي في سيو (٩١) ، فهو سائل مشرق ، ذو لون جميل قهرماني ، يستهلك في فارس وفي الأطراف الشرقية من تركيا . يحمله الاكراد بقنانٍ معمولة من ثلاثة او اربع طبقات من ضرب من الرق ، تحتوي على أكثر من كيل (٩٢) . لقد كان لي منها قنينتان ، ولكن ، لدى اجتيازي شمال جزيرة العرب أسالت

---

(٨٧) جاءت حرفيا بمعنى العمارات والابنية bâtiments وهو المصطلح القديم لما نسميها اليوم شركات .

(٨٨) séné وهو عقار مسهل .

(٨٩) myrobolans

(٩٠) وردت حرفيا : مصنوعة بالسكر .

(٩١) Scio

(٩٢) pinte ، والرق parchemin

الحرارة من خلال الغطاء الخشبي شيئاً من دهن البطم هذا (٩٣) . انه اشبه بالمصطكي (٩٤) . لدى تعريضها على فحم ملتهب ، تشيع رائحة ذكية جداً ، تقترب نوعاً ما من البخور .

ويستخرج من ضرب آخر من دهن البطم الذي ينمو في اعالي جبال فارسيستان ولورستان وكرمان(٩٥) ، نوع من المصطكى ، يختلف قليلا عن مصطكى سيو . تتناوله النساء في بعض انحاء فارس ، وتمضغنه لكي يعطي رائحة طيبة للنكهة ولحفظ الاسنان . لم نجد من هذا المصطكى الا في اصفهان (٩٦) .

تباع ثمرة البطم في بغداد كغذاء ، وهي تعود الى شجرتين او ثلاث مختلفة ، إذ انك ترى احداها مثلاً بقطر خمسة او ستة خطوط (٩٧) ، ولبها كبير الحجم ، بينما تشاهد ثمرة الشجرة التي تعطي دهن البطم الذي تحدثنا عنه وهي اصغر من المذكورة . تصل الثمار بحالة قذرة ، لكي يحفظوا اللب من الفساد (٩٨) .

التوابل :

الفلفل ، والقرفة ، والهال ، والقرقلة ، والكركم ، والخولنجان والزنجبيل ، وبسباسة الطيب (٩٩) ، تصل جميعها بكميات كبيرة من الهند

---

(٩٣) Térébentine

(٩٤) mastic

(٩٥) Farsistan, Laurestan, Kerman

(٩٦) Ispahan

(٩٧) مقياس الطول هنا بالخطوط lignes وهي ١/١٢ من البوصة . راجع الملحق الثاني .

(٩٨) اللوز amande

(٩٩) poivre, canelle, cardomome, zédoaire, galanga, gingembre,

وتمر بحلب ، والشام ، والقسطنطينية ، وتنتشر قليلاً في آسيا الصغرى . كما تجلب ايضاً كمية قليلة من الزنجبيل وبسباسة الطيب بأقراص سكر .

اللادن :

يختلف هذا القطران عن لادن اميركا ، ومصدره من عمق جزيرة العرب ومن القسم الشرقي من افريقيا . يسميه العرب « لادن » (١٠٠) ، ويظن بأنه يستخرج من البلسم (١٠١) .

المسك :

تأتي القوافل من قندهار والتبت وسمرقند حاملة الى بغداد كمية كبيرة من المسك (١٠٢) . ومعلوم بأن الحيوان الذي ينتج المسك يعيش في المناطق الشرقية من الارجاء التي ذكرناها الآن . ويستهلك الاتراك والفرس كميات كبيرة من المسك ، فهو الاساس لسائر عطورهم تقريباً ، كما انهم يستعملونه كمهيج (١٠٣) .

العنبر الاسمر :

تصل هذه المادة (١٠٤) الى بغداد من سواحل افريقيا الشرقية ، وان عربياً قد قام بأسفار كثيرة على هذه الضفاف ، أعطاني قطعة كبيرة جداً من العنبر وقال لي بأنها مستخرجة من براز سمك ضخم جداً يتغذى بالاسبيدج (١٠٥) . وقد قيل عين الشيء لكلوزيوس (١٠٦) كما كان هذا ايضاً رأي الاطباء

---

(١٠٠) muscade وكتب اوليفييه اللادن هكذا : Laden

(١٠١) balsamier أو amyris

(١٠٢) musc

(١٠٣) كمادة مثيرة أو مهيجة : aphrodisiaque

(١٠٤) العنبر الاسمر ambre gris

(١٠٥) sèches

(١٠٦) Clusius

العرب ، وهو ما يستخدمه علماء الطبيعة اليوم . ومعلوم بأنه يوجد في العنبر الكثير من محاجن الحبار (١٠٧) ، ومعلوم ايضاً بأن لكحول الحبار الاسود رائحة تقترب من رائحة العنبر والمسك . ويحتفظ الحبر الصيني (١٠٨) الذي يصنع من سواد الحبار بالرائحة عينها .

ويستعمل الشرقيون العنبر الاسمر كعطر ، كما انه يعتبر من الحبوب المهيجة ، كالمسك ، والبادزهر (١٠٩) .

شالات كشمير :

يصل الى بغداد سنوياً بواسطة قوافل فارس ، شالات من كشمير (١١٠) ، بقيمة مليون قرش ، تنتشر في تركيا (الدولة العثمانية) كلها . يصل منها الى القسطنطينية عادة بواسطة التتار الذين يرسلهم الباشا (١١١) . وتصدر فارس ايضاً شالات من كرمان ، الا انها ليست بنفس الجودة والدقة اللتين للاخرى . وتصنع شالات كشمير من ريش يتوسط شعر ماعز التبت والشالات الاخرى المصنوعة من شعر ماعز كرمان . وتبلغ قيمة الشالات الاولى مائة وخمسين او مائتي قرش في بغداد ، اما قيمة الشالات الاخرى فعشرون او خمسة وعشرون قرشاً .

حرير وأقمشة حريرية :

تصل الى البصرة وبغداد أقمشة كيلان الحريرية ، وحرير البنغال ، وحرير الصين . تمر كلها تقريباً بحلب والشام ، ويستهلك منها الكثير في بغداد . وأقمشة البنغال الحريرية هي الاجمل ، وتفضل أقمشة كيلان الحريرية على

---

(١٠٧) becs de sèches وانظر الهامش ١٠٥ .

(١٠٨) encre de la Chine

(١٠٩) bézord .

(١١٠) Schals de Cachemire

(١١١) اي سعاة البريد يومذاك .

أقمشة الصين الحريرية ، لان هذه أقل نعومة وأشد خشونة . وتزود اربيل وكركوك والقسم الجنوبي من كردستان كمية قليلة جداً من الحرير لبغداد لغرض اشتغالها في المعامل هناك .

وتحمل كمية كبيرة من أقمشة الحرير الخالص او من الحرير والقطن من صراة وكجرات، انها بسيطة او مرسومة على شكل ورود حريرية او زهيرات ذهبية وفضية . ويصل بعضها من البنغال ايضاً بسيطة ومرسومة وتمضي حتى جزيرة العرب .

وتنتشر في تركيا (الدولة العثمانية) بأسرها أقمشة الحرير والقطن البسيطة والمرسومة المصنوعة في الشام وحلب ، ولا يصل منها الى بغداد والبصرة الا ما يفي هاتين المدينتين وضواحيهما .

القطن والموصلين والاقمشة الخام :

ان أجود قطن وارق نوع هو القطن الاصلح لصناعة اجمل موصلين (١١٢). وهو مايزرع في مملكة بيرفويد جي قرب صراة (١١٣) .

يصل الكثير من الصوف الى البصرة ، ويحمل اليها ايضاً حوالي ثلاثة الآف حقة (١١٤) من خيوط قطنية تمر بالموصل والشام وحلب . وتباع الحقة عادة بعشرين قرشاً ، أي مايساوي مبلغ . . . ، ٢٠٠ ، ١ فرنك .

يزود دفيل ، وهو ميناء واقع في مصب نهر الهند (١١٥) البصرة وجميع

---

(١١٢) ذكرنا سابقا بأن مصطلح (الموزلين) الشائع هو نقل غير موفق للتسمية الاجنبية mousseline وتطلق على قماش موصلي الاصل ، تقلدته أكثر من مدينة . ونكتبه (موصلين) لان ذلك ينطبق ومنشأه الاصلي (مدينة الموصل) كل الانطباق .

(١١٣) Bervoidje, Surate

(١١٤) كانت الحقة هي الوزن الشائع في الشرق : ocque . انظر الملحق الثاني من هذه الرحلة .

(١١٥) Devil, Indus

مدن الخليج بقطن أخشن ، يستعمل لاقمشة القمصان ، وبخاصة لاقمشة الاشرعة . ويصنع العديد من أقمشة الاشرعة من هذا القطن في جزر البحرين (١١٦) وتصل من فارس ايضاً الى معامل بغداد والشام وحلب نوعية من القطن أجمل مما يقطف في أطراف دجلة .

ويصل من البنغال الكثير من الموصلين ، كما يصل قماش قطني أشد نحافة ، وكذلك أقمشة قطنيـــة مضغوطة ، بيضاء او مطبوعة ذات انواع مختلفة ، وأسعار متنوعة ، ترسل الى مدراس ، وتصنع في ديانوم الواقعة جنوب مازوليبتان (١١٧) . وتعرف في فرنسا تحت اسم (فارسيات) (١١٨) . لانها اتتنا في البداية عبر فارس . وتحمل هنديات سدراس ، ومدراس ، وبوند بجيري ايضاً بكميات كبيرة الى البصرة (١١٩) ، البيضاء منها لتركيا ، والمطبوعة لفارس .

وتصنع في صراة أقمشة بيضاء كبيرة الحجم ، بيضاء او حمراء ، وغالباً ماتكون زرقاء ، وتحمل الى البصرة لبيعها للبدو (١٢٠) .

اللؤلؤ :

يصطاد في الخليج ، من كران وحتى موسيندوم (١٢١) وحول جزر البحرين (١٢٢) كمية كبيرة من اللؤلؤ (١٢٣) ، حصيلتها السنوية الاعتيادية مليونا

---

(١١٦) يكتبها اوليفييه خطأ : Barrhein

(١١٧) أسماء هذه المواقع : Madras, Dianaum, Masulipatan

(١١٨) Perses

(١١٩) أسماء هذه المواقع : Sadras, Madras, Pondichery

(١٢٠) ترجمنا لفظة toiles تارة بالاقمشة الخام ، كما في العنوان ، بينما اكتفينا أكثر الاحايين بكلمة (أقمشة) .

(١٢١) وردت هكذا : Grain, Mussendom

(١٢٢) انظر الهامش ١١٦ .

(١٢٣) لفظة (اللؤلؤ) ترجمة للفرنسية : perles وصيد اللؤلؤ معروف في أقطار الخليج .

قرش ، أي حـــوالي اربعة ملايين فرنك . يقدر الاجمل والأكبر منه بثلاثة ارباع هذا المبلغ . يحمل الى الهند والصين ، بينما يأتي الباقي الى البصرة لكي ينتشر في تركيـــا ، ولا يكاد يصل شيء منه الى فارس . وتحمل من البنغال الى اوربا بعض المجوهرات ، الصغيرة والمستديرة .

البحرين وسكانها (١٢٤) :

ينتمي سكان جزر البحرين الى قبيلة عربية معروفة باسم بني خالد (١٢٥) ، تنتشر على الساحل الجنوبي ، والغربي قليلاً ، من الخليج ، يجاور هؤلاء الاعراب بلاد نجد الى الغرب (١٢٦) ، والقريبون منهم الى البحر مستوطنون بأجمعهم . يعيشون على صيد الاسماك ، وعلى زراعة الاراضي وثمار نخيلهم . ويصنع بعضهم عباءات تحمل الى البصرة . اما الذين هم على بعد من السواحل ، فيعيشون تحت الخيم ، ولهم بعض قطعان غنم ، كما يربون بعض الجمال التي يبيعونها في البصرة وبغداد . ويربون كذلك نوعاً جميلاً جداً من الحمير .

كان البرتغاليون قد استعمروا جزر البحرين فترة من الزمن . وعدد هذه الجزر خمس ، اثنتان منها كبيرتان،وثلاث صغيرة (١٢٧) . وحين اضطر هولاء على مغادرة الخليج ، عادت تلك الجزر الى عرب الساحل كالسابق ، حتى استولى عليها نادرشاه (١٢٨) وفرض عليها الاتاوة . واثر موت هذا العامل ، عادت من جديد الى ايدي العرب ، وصار لهـــا شيوخ مستغلون . وفي عام

---

(١٢٤) انه ذيل لما أورده اوليفييه في أعقاب حديثه عن اللؤلؤ وصيده ، وقـد فضلنا وضعه في باب خاص نظرا لاهمية المعلومات التي يفيد بها . وقد نوهنا بأن اوليفييه يكتب اسم البحرين بنوع خاطيء : Barrhein

(١٢٥) وردت هذه التسمية سابقا ، وقد سجلها اوليفييه : Beni - Khaled

(١٢٦) وردت التسمية بشكليها : Nedged, Neldjs,

(١٢٧) البحرين مجموعة جزر بالقرب من الشاطيء الغربي للخليج ، اكبرهـا المنامة والمحرق والنبي صالح والصترة وأم نسعان وجدة .

(١٢٨) ورد ذكره في الهامش ٥ من الفصل الخامس .

١٧٩٥ اتجه امام مسقط الى محمدخان عاهل ايران ، فسلمت له السيادة وتهدد العرب بأنه سيحاربهم اذا رفضوا الخضوع ، فاستسلم العرب بعد شيء من الصمود ، والزموا بدفع الجزية (الاتاوة) .

المناخ ردىء في هذه الجزر ، والحرارة في الصيف مرتفعة الى حد الافراط . يقدر بأربعين الف شخص من يعملون في صيد اللآلىء ، في شهور ميسيدور ، وتيرميدور ، وفركتيدور (١٢٩) ، ويعتاشون على هذا المحصول . وليس لهم مهنة اخرى ولا شغل آخر سوى ذلك ، لذا عليهم ان يعتاشوا بقية السنة بما يحصلون عليه خلال هذه الاشهر الثلاثة من عملهم ، لان هذه الجزر لاتنتج سوى بعض النخيل والقليل من القطن ، ولا تزرع فيها الحنطة عادة .

* * *

---

(١٢٩) Messidor الشهر العاشر من شهور الجمهورية الفرنسية ، شهر الحصاد ، يبدأ في ٢٠ حزيران وينتهي في ١٩ تموز ،
Thermidor الشهر الحادي عشر ، يبدأ في ٢٠ تموز وينتهي في ١٨ آب .
Fructidor الشهر الثاني عشر ، يبدأ في ١٨ ــ ١٩ آب وينتهي في ١٦ ــ ١٧ أيلول .

الفصل التاسع (١)

السفر من بغداد ـ موانيء للمدين ـ جبل زاغروس ـ الوصول الى كرمنشاه ـ وصف هذه المدينة ونصب طاق بستان .

السفر من بغـداد :

منذ تسلمنّا الرسائل التي كان قد وعدنا بها باشا بغداد ، شرعنا بالتعامل مع رؤساء قافلة كان عليهـا ان تقصد كرمنشاه ، احدى مدن بلاد فارس ، وهي اليوم محل اقامة خان (٢) .

لم نعتقد انه علينا انتظار علبة تحتوى على بعض مجوهرات مخصصة لكي تقدم (هدايا) الى وزراء ملك فارس ، وقد كان لا بد من التفاوض بشأنها . ان مبعوث الجمهورية (الفرنسية) فوق العادة لدى الباب العثماني ، حين أخبرنا بشأن هذه العلبة بواسطة ساع (تتري) قدِمَ من القسطنطينية الى بغداد في ظرف تسعة عشر يوماً ، ووصل عشية مغادرتنا ، ذكر لنا بأنه سيرسلها بواسطة امير هندي كان عليه ان يسافر هـو ايضاً الى فارس عما قريب .

كنا نخشى تأخر سفر الامير الهندي بضعة ايام ، بل اسابيع ، وكان من حقنـا ان نتصور بأن ساعياً (تترياً) يتمتع ببنيـة أفضل قوة تجعله ان

---

(١) ما يأتي هنا هو جزء من الفصل الاول من المجلد الثالث ، ترجمناه لانه يخص بغداد ، كما سندرج فصولا اخرى متعلقة بالعراق . وقد المحنا الى ذلك في المقدمة . وسنشير الى التوقف والحذف كلما اقتضى الامر . وحبا بعدم التطويل ، لم نعلق الا فيما ندر على المقاطع التي لا تتصل مباشرة بالعراق ، موضوع كتابنا .

(٢) المقصود بالخان هنا الوالي ، وقد جاء عند اوليفييه هكذا : khan

يقضي أقل وقت ممكن في الطريق ، الامر الذي لا يقوى عليه ذاك . وكان الموسم (الصيفي) في تقدم ، بحيث كانت الحرارة تغدو يوماً بعد يوم شديدة . كما اننا فهمنا من مسافرين وافدين من فارس بأن الملك على استعداد لترك العاصمة في حملة كانوا يظنونها ضد جيورجيا او خراسان ، فكان علينا والحالة هذه ان نعجل امر سفرنا لكي نجتمع بأسرع وقت مع وزراء الملك ، اذ انه – في فارس كما في تركيا – حين ينطلق الملك على رأس عسكره ويتغيب بعض الوقت عن عاصمته ، على الوزراء وموظفي البلاط بأجمعهم ان يتبعوه .

وقد وعدنا وكيل العلاقات التجارية (الفرنسي) (٣) بأنه سيستلم هذه العلبة ويوصلها الى (مدينة) قزوين مع اول قافلة قادمة . وقزوين لاتبعد سوى عشرين فرسخاً عن طهران حيث كان علينا الذهاب اليها . وبين هاتين المدينتين اتصالات مستمرة ، بحيث اننا لن نتأخر عن تسلّمها وربما قبل حاجتنا اليها ، هذا اذا مارسلت الينا فعلاً من القسطنطينية كما كنا نمني النفس بذلك .

كانت المهمة المعهودة الينا تقضي بأن يكون لنا ترجمان (٤) نزيه وذكي لذا عرضنا على شاب صقلي (٥) اسمه كارامان بأن يتبعنا . وقد كان السيد كارامان وكيل تاجر ايطالي يتعامل مع اصحاب وكالات في القسطنطينية قد افلسوا مؤخراً . وكان يتمتع في بغداد بسمعة طيبة جداً . كما كان يتقن الايطالية ، والتركية ، والعربية ، ويتكلم الفرنسية قليلاً . وتمكن منذ أمد قريب من تعلم الفارسية ، وبما انه سيبقى بدون عمل ، فقد اغتنم بتلهف الفرصة المتاحة له من قبلنا لرؤية فارس ، وتعلم اللغة بسرعة أكبر ، مع انفتاح المجال امامه لكي يغدو ترجماناً لاحد السفراء الاوربيين .

---

(٣) انه المواطن روسو ، انظر الهامش ٤٥ من الفصل الخامس .

(٤) وردت لدى اوليفييه هكذا : Dragman

(٥) اي من جزيرة صقلية بايطاليا ، وقد استعمل اوليفييه التسمية القديمة ، فقال انه : Ragusais

انطلقنا من المدينة (بغداد) في ايار ١٧٩٦ (٦) ، قبل مغيب الشمس بقليل . وكان علينا ان ننتظر على ضفة دجلة ريثما تجتمع القافلة بأسرها . وأخيراً تحركت القافلة في الساعة الثامنة . لقد كانت مؤلفة من تسعين خيالاً من الفرس جاءوا لزيارة ضريحي (الامامين) علي (رضي الله عنه) والحسين (رض) ، وحوالي ستين جواداً محملة برز وتمور وآلات حديدية ونحاسية اوربية وقروش تركية وأمتعة المسافرين .

لدى امتطائنا الجياد برد الهواء بفضل نسمة ريح كانت تأتينا من أعالي الجبال التي تفصل تركيا عن فارس . وقد كان النهار حاراً جداً ، اذ صعد محرار ريامور (٧) ، الى الثلاثين درجة ، بينما كانت ٢٨ و ٢٩ في الايام السابقة . وكان هبوب الريح قليلاً الى الجنوب في الأيام الثلاثة الاخيرة .

كانت لنا لحظات استراحة في الساعة العاشرة ، فرأينا الى الغرب من طريقنا تكوّن ضباب كان يرتفع عن الارض او يبقى فوق سطحها ، ثم ماعتم ان لفحتنا ريح شديدة الحرارة مدة من الزمن . كنا وسط الضباب في الساعة الحادية عشرة ، وقد شعرنا وكأنه مكون من غبار دقيق محرق ، كان الهواء يتحرك بلا انتظام من وقت الى آخر من جميع الجهات بريح لاهبة تكاد تخنقنا لو استمرت بضع دقائق . وكان يخيم على القافلة صمت رهيب . وخفضت الجياد سرعتها ، وبدا كأنها تعاني هي ايضاً مانعانيه .

أمضينا نحو خمس ساعات وسط هذا الضرب من الضباب ، وحين خرجنا منه لقينا انفسنا في أراضي مزروعة ومسقاة ، بينما كنا قد سرنا حتى

---

(٦) ورد هذا التاريخ خطأ لدى اوليفييه ، اذ سجل السنة ١٧٩٦ والصحيح ١٧٩٥ ، فان السنة ١٧٩٦ تاريخ العودة ثانية الى بغداد ، فوقع الرحالة في وهم غير متعمد ، ولعله خطأ مطبعي وتجدر الملاحظة الى ان اوليفييه أخذ يستعمل التقويم الميلادي العادي منذ المجلد الثالث من رحلته ، لا التقويم الجمهوري الفرنسي الذي كان يستعمله سابقاً .

(٧) محرار استعمل آنذاك وتدريجه من الصفر الى الثمانين درجة ، كما أسلفنا .

آنذاك في ارض غير مزروعة بل مهملة منذ زمن طويل .

وصلنا الساعة السابعة صباحاً الى ضفاف ديالى . كان النهر كبيراً وهادئاً كنهر السين في باريس في الفصل عينه . انه ديلاس بالنسبة للقدامى (٨) يستمد منبعه من جبل زاغروس على بضعة فراسخ من الجنوب الشرقي من شهرزور . عبرناه بواسطة قارب كبير من خشب السنديان ، مكسو تماماً بخليط من التراب والقار . لم يطلب اصحاب القارب سوى شيء زهيد ، الا ان سماسرة كانوا هناك طلبوا رسم ست عشرة بارة ، أي حوالي ستة عشر فلساً فرنسياً (٩) عن كل توصيلة . وكان باشا بغداد قد اضاف اسداء للمعروف الى الرسائل التي اعطانا اياها توصية (١٠) او أمراً الى كل من يهمه الامر يقضي باعفائنا بموجبه من جميع الحقوق والرسوم المفروضة في ولايته .

بعقوبة :

سرنا بمحاذاة النهر مدة ربع ساعة فوصلنا قرية صغيرة اسمها بعقوبة (١١) ، محاطة باشجار النخيل والليمون والرمان وأشجار مثمرة أخرى . اعتقد انها عينها ما اطلق عليهــا بيترو ديلا فالي(١٢) اسم بيهيروس ، وتافرنييه(١٣) بوروس ، واوتيه (١٤) بهريس (١٥) .

---

(٨) يكتبها اوليفييه هكذا : Delas

(٩) بشأن العملة والنقود انظر الملحق الثاني .

(١٠) يسميها اوليفييه (تسكره) ويكتبها : teskéreé كما في التركية والعاميــة .

(١١) وردت في الاصل الفرنسي هكذا : Bakouba

(١٢) رحالة ايطالي (١٥٨٦ ـ ١٦٥٢) قام برحلة طويلة الى الشــرق وترك مذكرات نفيسـة في اربعة مجلدات . انظر بحثنا بشأن رحلة ديلافاليه في العراق ، المنشور في (آفاق عربية) السنة ١٣ (١٩٨٨) ، العدد ٥، ص ١٤٥ ـ ١٤٩ .

(١٣) ورد ذكر تافرنييه في الهامش ٣٩ من الفصل الاول .

(١٤) م. اوتيه (اوتر) وكيل الحكومة الفرنسية ، قام بعدة جولات في الشرق وسجل مذكراته في مجلدين . ذكرياته من النصف الاول من القرن الثامن عشر .

(١٥) يكتب اوليفييه هذه الاسماء هكذا : Beherus, Bourous, Buhris ولعلها بهرز من أعمال محافظة ديالى .

استرحنا نهاراً في خان يقع وسط القرية ، وغادرناها في العشرين من ايار مع شروق الشمس . وبعد ساعتين ونصف من المسير ، اضطرتنا حرارة الشمس المرتفعة الى ان نخيم ، فاخترنا لذلك ضفاف جدول يستعمل لسقي الاراضي ، يأتي من النهر ، وقد كانت اطرافه مغطاة بالحضض والسنط والسوس وعدد كبير من نباتات أخرى ،وكمية كبيرة من حشرات تزهو اطراف بعضها على الاخرى ، وتحلق حول النباتات ، فيبدو البلد وكأنه مأهول ومزروع في ربوعه كلها . وكان حولنا جملة بساتين نخيل دلالة على تعدد القرى . وكانت الريح الى الجنوب طيلة النهار ، والحراوة أشد منها في الايام السابقة .

شهربان :

امتطينا الجياد حوالي الساعة العاشرة مساء ، وسرنا سبع ساعات ونصفاً حتى وصلنا شهربان (١٦) ، وهي قرية كبيرة ، لكن نصفها مهدوم . تقع على قناة يقال انها متأتية من ديالى . وفي هذه القرية رسم ثمان بارات للحمولة ، تحميلاً وتنزيلاً . لم نتوقف فيها . خيمنا على بعد مسافة فرسخ من هناك .

جلولاء وخانقين :

وفي اليوم عينه ، منذ الساعة الرابعة عصراً ، على الرغم من شدة الحر وقوته ، قطعنا فرسخاً ونصفاً ، ثم خيمنا حتى منتصف الليل على ضفة ترعة تسقي هذه القصبة وتخصبها .

الاراضي من بغداد وحتى هذه المنطقة مستوية ، وعميقة جداً ، ودون أي مزيج من حجارة او حصى . انها اراضٍ رسوبية شكّلها دجلة سابقاً ، فهي من أخصب الاراضي فيما لو سقيت .

نحن غير بعيدين عن مرتفع من الحصى اساسه من حجر المسن

(١٦) ورد اسم شهربان بالفرنسية : Chehraaban وهي قضاء المقدادية .

(الصوان) . وأمامنا ، الى اليمين قليلاً ، جبال تبدو لنا انها مغطاة بغابات .

في ٢٢ أيار ، وقبل بزوغ الشمس اجتزنا المرتفع الذي تحدثنا عنه قبل قليل . انه يابس وأجرد ، وعرضه أكثر من فرسخين . فألفينا انفسنا في سهل جميل مسقي ، ووصلنا بعد خمس ساعات من السير الى قزل – آباد (١٧) ، وهي قرية مفروض فيها رسم ثماني بارات . مضينا فخيمنا على بعد نصف فرسخ قرب بستان نخيل .

وفي ٢٣ منه ، بعد مسيرة ست ساعات توقفنا بعد خرناكي (١٨) ، وهي قرية لاحظنا فيها وجود النخيل . وتقع على نهر يسمى خسروي (١٩) ، يمضي فيصب في ديالى .وقد عبرناه بواسطة جسر جميل مشيد بالطابوق .

اجتزنا تلاً ثانياً من حجر المسن والحصى مابين قزل آباد وخرناكي . وقد بدا لنا القاع مرتفعاً بشكل ملحوظ منذ ان تركنا الاراضي الرسوبية .

قصر شيرين وسربيل :

في ٢ منه ، سرنا ست ساعات ونصفاً ، واجتزنا تلولاً من حجر المسن والحصى شبيهة بما سبق . ثم خيمنا قرب اطلال مدينة قديمة يسميها الاتراك والفرس قصري شيرين او قصر شيرين (٢٠) . وقد كان الى يميننا النهر الصغير خسروى الذي تكلمنا عنه اعلاه . انه يأتي من الجبال التي امامنا ، وضفافه مغطاة بالصفصاف والغار الوردي .

---

(١٧) يكتبها اوليفييه بهذا الشكل : Khesel - Abad ونظنها مدينة جلولاء الحالية أو مدينة قريبة منها ، كالسعدية وكانت تسمى (قزل رباط) ، لانها في طريق القوافل ، ومن أسماء جلولاء (قرهغان) وهو اسم تركي ويرجع الى الاسم الاكدي القديم (ققران) .

(١٨) نظن بأن اوليفييه يقصد مدينة خانقين ، وقد وردت كتابتها مشوهة لديه بهذا الشكل ، فكتبها : Kharnaki

(١٩) وقد ورد اسم هذا النهر لدى رحالتنا : خازر – سوى : Khaser - Soui

(٢٠) كتبها اوليفييه بالشكل التالي : Khaser - Chirin

مايرال المرء يشاهد في قصر شيرين بعض بقايا الاسوار ، وقلعة ضخمة الحجم يقال ان كسرى اوكسرى ابرويز شيدها مسكناً لخليلته شيرين .

وفي ٢٥ منه سرنا ست ساعات ونصفاً . الارض في ارتفاع . وقد قطعنا تلولاً كلسية ، وكان جبل صغير مغطى بأشجار السنديان (البلوط) . خيمنا على مقربةٍ من نهر خسرو (٢١) ، في سهل صغير المساحة ، لكنه مسقي ومزروع .

منذ مغادرتنا بغداد كنا نشاهد في كل مكان حصاد الشعير . اما الحنطة فقد نضجت تقريباً .

عبرنا في ٢٦ منه بالقرب من قرية سربيل (٢٢) ، ويبلغ الرسم المفروض فيها ثلاثين بارة على الحمولة . وقد الزمونا بدفعها رغم توصية الباشا (٢٣) .

---

(٢١) كتبه اوليفييه كما كتب الخازر ، وهو يختلف عن النهر السابق خسروى ، ورد اسمه في الرحلة هكذا : Khaser

(٢٢) يكتبها رحالتنا هكذا : Sarpil . وقد كانت قصر شيرين وسربيل زهاب تتبعان ولاية بغداد يومذاك .

(٢٣) يذكر اوليفييه ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ من هذا المجلد عينه (الفصل ٢١) بأن أهالي سربيل سيلزمونه ثانية على دفع الرسم في طريق العودة ، رغم انه كان قد كتب الى صديقه روسو في بغداد ، فتدخل الباشا وأرغم أهالي سربيل على اعادة المبلغ ، فتسلمه اوليفييه في بغداد ، ولكنهم لم يرعووا . فيعلق اوليفييه بأن عدم الخضوع وجشع الموظفين في تركيا ، لاسيما البعيدين منهم عن المركز ، أمر شائع ، اذ يتحاشون دوما الاوامر الصادرة من الاعلى حين تتعارض ومصالحهم . ويوضح بأن توصية (تسكرة) الباشا كانت تعفيه هو ومرافقيه وأمتعته من كل الرسوم . وكعادته في عدم التساهل في مواقف كهذه ، نراه يبرز لاهالي سربيل فرمان الباب العالي الذي يعفيه من الرسوم في الامبراطورية كلها ، الا ان اولئك الجشعين أجابوه بأن امتيازا كهذا لا يفيده الا في أطراف القسطنطينية وفي الموانىء ، فاضطر الى دفع احد عشر قرشا مع تهديدهم بأن عقابهم سيكون صارما . وسببت هذه الحادثة تأخر اوليفييه ومرافقه وترجمانه وخادمه عن اللحاق بالركب ، وتعرضوا لخطر الوقوع بين أيدي خمسة لصوص ، ولكنهم نجوا بفضل سلاحهم ومساعدة مرافقيهم .

شاهدنا على مقربة من القرية تلاً بركانيـاً وكلسياً فيه شق يمر منه الطريق وجدول لانظن انه كان موجوداً في سالف الايام . وقد رأينا بالقرب من هذا الشق اراضي فيها من الركم والانقاض مايشير الى انه كان في الموضع مدينة كبيرة . . .

(ثم يتحدث الرحالة عن جبل زاغروس وكرمنشاه والخ . كما يصف رحلته الى ايران وانصرافه الى المهمة السياسية التي جاء من اجلها ، حتى يعود ثانية الى العراق في طريق عودته الى بلاده . وقد أهملنا هذا القسم ، ونواصل الرحلة في فصولها الأخيرة) .



الفصل العاشر [1]

السفر من اصفهان ــ العودة الى بغداد عبر كنكاڤار وكرمنشاه ــ نساء ميكراباد ــ ضريبة سربيل ــ اكراد يهاجمون القافلة ــ وسائل عديدة للعودة الى بغداد وركوب الطريق ــ مغامر ينتحل اسم اخي ملك فارس .

(يتحدث الرحالة في بداية هذا الفصل عن سفره من اصفهان في طريق العودة الى بغداد عبر كرمنشاه ، فيقول :) .

سبب اختصار الرحلة :

حين تركنا طهران للذهاب الى اصفهان ، كانت خطتنا ان نقطع بلاد فارس بأسرها حتى المضي والابحار عبر أحد موانىء الخليج الى البصرة ، ثم صعود الفرات او دجلة حتى الحلة فبغداد .

كانت هذه الطريق ستكمل مشاهداتنا حول الارض والمناخ في فارس (والعراق) ،والتعرف على أخلاق السكان وعاداتهم ، والحصول على نباتات وحيوانات كنماذج تكون بمثابة حصيلة اغنى بكثير من التي حصلنا عليها في هذا البلد .

بيد أن توعك صحة زميلي(٢) أربكت مرة أخرى جميع مخططاتي . عشرون يوماً من الراحة في المدينة الافضل صحة من سائر مدن الامبراطورية (الفارسية) ، وفي الفصل الاكثر طيبة من جميع فصول السنة ، لم تكن كافية لكي يستعيد صحته ، ولـــكي تمنحه أي أمل في تحسن عاجل ، لذا

---

(١) هذا هو الفصل الحادي والعشرون من المجلد الثالث .

(٢) انه مرافقه وزميله بروكيير ، وقد ورد ذكره مرارا في الرحلة .

رتأينا انه يجب الاسراع في الابتعـاد عن مناخ قـد لايناسبه ، وان نتخـذ للعودة الى فرنسا الطريق الاقصر والاقل اجهاداً .

فانضممنا الى قافلة كانت ترحل الى كرمنشاه . وتركنا اصفهان في١٧ تشرين الثاني ١٧٩٦ للذهاب والمبيت في خان يقع على بعد اربعة او خمسة اميال .

كانت القافلة مؤلفة من حوالي مائة من الجياد ، تحمل الموصلين والاقمشة الهندية ، وشالات كشمير وكرمان وسجاداً ، وأقمشة مختلفة مصنوعة في يزد واصفهان ، كما كانت تضم بعض اكياس تبغ ، وبعض اكياس فوّة الصباغين ، وقليلاً من الافيون ، والمصطكي ، والعنبر والعقاقير المختلفة من وسط فارس ومن النواحي الشرقية . كل ذلك لكرمنشاه وهمذان وبغـداد .

(يواصل اوليفييه حديثه عن مدن ومناطق ايرانية حتى يبلغ به الحديث ما ننقله أدناه) .

العودة الى بغداد :

وصلنا في سبع ساعات الى شهربان ، في ١٣ (كانون الاول) ، ثم الى بعقوبة في ١٤ منه ، وذلك خلال عشر ساعات . كان الناس يزرعون الحنطة في كل مكان بواسطة محراث شبيه بالمحراث المستعمل في بروفنس(٣) ، وكان مجهزاً بثورين .

وفي ١٥ منه رحلنا مع بزوغ الشمس ، وكان الضباب كثيفاً ورطباً جـداً ، مالبث ان تبـدد بارتفاع الشمس . عبرنا ديالى بواسطة قارب ، واسترحنا بعد ست ساعات في خان يسمى اورطه (٤) . وغادرناه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، ودخلنا بغداد حوالي الساعة السابعة صباحاً .

لم يكن في نيتنا ان نقيم طويلاً في هذه المدينة . فقد كان شوقنا الى وطننا كبيراً ، وكان ذوونا واصدقاؤنا يطلبوننا . كما كانت مصلحتنا تقتضي

---

(٣) Provence مقاطعة فرنسية سابقة في منطقة جبال الالب السفلى .

(٤) وردت بالاصل الفرنسي : Orta - Kan

بأن نعود الى فرنسا بالسرعة الممكنـــة فالواجب يدعونا الى باريس ، فكيف الصمود في وجه هذه الدوافع الشديدة ؟

انطباعات عن البلاد :

لقد رأينا ، لفائدتنا ، العديد من المناطق غير الجميلة ، ماخلا ماضيها ، وهي لاتبشر بأمل كبير في المستقبل ، بينما تمثل في الحاضر جنسنا البشري في واقعه الأشد تعاسة .

قضينا وقتاً طويلاً تحت انظار الاتراك والعرب والفرس وشعوب مظلومة تعيش في صفوفهم بذل . ولاحظنا جيداً كم ان الانسان غير المثقف ، وغير المعتاد على التفكير ، يفرط في استعمال كل شيء حين تصبح السلطة بالولادة أو لجســـارة ما ، بين يديه . وكان علينا ان نبتعد اخيراً عن بلد العواصف والعذابات ، والتمتع براحة باتت ضرورية جداً لواحد منا (٥) .

ان الآلام التي يتحسسها الانسان المرهف الحس في كل خطوة وهو يجتاز مناطق يفسد فيها الاستبداد كل ما حواليه ، وحيث التعصب يحد اسنانه ، ولا تسبب القوة سوى الدمار ، والخوف سوى الهرب او الاهمال ، ان الشرور — أقــول — لايشخصها من لم يرَ اوربا ، او لم يســـافر في اجواء تتنازل فيها القوة للعقل .

وهذه الشرور التي تتحسسها النفس ، يشاركها فيها الجسد ايضاً . اذ كيف لاتتألم وأنت تسافر في بلد لامأوى لك فيه سوى خيمة او غرفة بدون مدخنة ودون أي شيء يذكر من الاثاث ، وليس من سرير سوى سجادة او فراش رقيق موضوع على الارض ، ولا من طعام سوى فواكه او لحوم خشنة معدة بشكل رديء . انه بلد لاتجد فيه غالباً ماتأكله ، او انت مكره بعد سعي طويل ان تهيىء طعامك بنفسك ، ولا خدم لك سوى الذين تأخذهم معك .

---

(٥) المقصود برو كيير .

وكذا القول عن ما يدرأ عنك الخطر او المرض ، عـــدا ماتحمله او تتوقع ان تلقاه لدى صديق يشاطرك الأخطار عينهـــا .

لم تكن لتنقصنا الوسائل (المادية) لمتابعة طريقنا . وكان بوسعنا ان نعود كما جئنا ، عبر كركوك والموصل ، ونصيبين ، وحلب ، او ان نمضي الى القسطنطينية مباشرة عبر الموصل ، والجزيرة ، ودياربكر . كما كنانستطيع ان نلتحق بقافلة عرب فنقطع بمعيتهم القسم الشمالي من الجزيرةالعربية .

القوافل :

تغادر بغداد سنوياً قافلة تتوجه نحو حلب ، وأخرى الى دمشق . وقد تغادر أحياناً قافلتان الى حلب . اما موعد ذلك فالشتاء او مطلع الربيع .

وتنطلق سنوياً كذلك قافلة من البصرة مكونة من عرب قبيلة نجدية (٦) تضم ثلاثة الآف الى خمسة الآف من الإبل ، تحمل الف اوالف وخمسمائة منها البضائع من البصرة الى بغداد . يسير هولاء العرب بامتداد ساحل الفرات الأيمن صعداً حتى الحلة ، حيث يرسلون بعدها في طلب تجهيزهم ببضائع ، ثم ينطلقون من الحلةالى حلب عبر صحراء العرب الصغرى ويبيعون جمالهم في مدينة حلب ، ولا يحتفظون الا بما هو ضروري للعودة ، وإذا لم يوفقوا في بيعها كلها ، فانهم يحملونها البضـائع ، مشكلين بذلك قافلة صغيرة تتجـّه نحو البصرة او بغداد .

وما عدا هذه القوافل الكبيرة ، وكلها قوافل جمال ذات سنام واحد ، تؤلف مرتين او ثلاثاً في الشهر قوافل صغيرة تتجه الى الموصل ، مكونة من ثلاثين او اربعين حماراً لحمل البضائع التي تنتشر هناك في اعالي كردستان وارمينيا وآسيا الصغرى برمتها .

وتنطلق كل سنة كذلك قافلتان مكونتان من مائة وخمسين او مائتين من

---

(٦) يكتبها رحالتنا هكذا : Neldj

البغال تقصد القسطنطينية ، وتقطع طريقها في أكثر من اربعة اشهر .

وماعدا وسائل النقل هذه ، فان الاقمشة الهندية الاكثر اتقاناً ، والموصلين الفاخر ، وشالات كشمير واللآلىء ، والاحجار الكريمة ، ترسل عادة الى القسطنطينية بواسطة سعاة (تتر) ، علماً بأن تكاليف النقل أكثر من خمسة او ستة قروش للاوقية الواحدة .

لاترسل سنوياً أقل من خمس او ست (سفرات تترية) ، الا ان سفراتهم عادة أكثر من ذلك . اما المسافرون المتمتعون بحماية خاصة فيحصلون من الباشا بكل سهولة على امر يقتضي بموجبه ان يعطوا حصاناً أو عدة جياد لقطع الطريق . . ويكون سفرهم حينذاك مجاناً ، ليس بالنسبة للطعام وحسب ، بقدر ما للعطاءات التي يلزم تقديمها اثناء الطريق من قبل المسافرين .

لم ننتظر طويلاً ، اذ سرعان ما تشكلت قافلة وجهتها دمشق في اواسط كانون الثاني (٧) ، وحالما علمنا بالأمر ، بدأنا التعامل باهتمام مع احد زعمائها لكي يجهزنا بالجمال التي كنا بحاجة اليها . لقد ألزمناه على المرور بتدمر والبقاء فيها ، لكي تتاح لنا مدة كافية للاطلاع على أطلال هذه المدينة . وأصبح كل شيء منتظما وجاهزاً في الايام الاولى من شباط بحيث اننا لم ننتظر سوى ساعة الرحيل .

تأخر السفر :

لكننا مع الاسف الشديد كنا قد كلفنا بالعناية بأغا الينجرية (٨) الذي كان يشكو من مرض معوي منذ أكثر من عشرين سنة ، ولم ينجح فيه علاج عدد كبير من الاطباء العرب والفرس ، وكان التماثل الى الشفاء قد قطع مرحلة كبيرة حين أزفت ساعة رحيلنا فكان علينا ان نعهد به الى طبيب فرنسي مقيم

---

(٧) من السنة ١٧٩٧ .

(٨) أو رئيس الينجرية او الينكجرية وقد كتبها الرحالة هكذا Janissaire - aga

في بغداد لمواصلة العلاج له . ولم نكن لنشك بأن مرضه ، رغم كونه مزمناً ، سوف يتلاشى بفضل العلاج الذي وصفناه له ، وأنه لابدّ أن يستمر عليه فترة كافيــة تلي مغادرتنــا البلـــد . لكن المريض لــم يحكم على القضية مثلنا ، فلأنه فشل عدة مرات ، خشي ان يصيبه الامر السابق عينه فيما لو فقدنا . وقد دعاه هذا التخوف على ان يقول لمن حوالينا بأن القافلة مازالت على وشك التوجه نحو الشام ، هذا حتى عندما اصبحت القافلة في وسط الصحراء ! ولم ندر نحن بهذه الخدعة الا بعد شفاء الاغا بشكل تام .

مخاتل ينتحل صفة أخي ملك فارس :

اثناء معالجتنا له (٩) ، اخبرونا بوصول مرتضى قولي خان قريباً ، وقد قلنا بأنه كان قد لجأ الى روسيا لكي لايقع بين يدي أخيه محمد . وقد كتب من كركوك الى باشا بغداد راجياً إياه ان يمنحه الحماية بانتظار عقد السلام مع أخيه واسترجاع حقوقه . وكتب في رسالته بأنه كان يفضل التعرض لالف خطر مجتازاً الصحارى وبلاد اللاز وارمينيا على البقاء طويلاً فيما بين أناس من غير المؤمنين .

لقد كان مجرداً من كل شيء ، وليس معه سوى خادمين ، وادعى بأن الاكراد قد سلبوه ، وقتلوا رجاله وشتتوهم جميعاً . ولحسن حظه التقى بأحد خدام ابيه القدامى الذي حصل منه على شيء من الثياب وثلاثة جياد وخادمين ، كما جهزه بامكانات أتاحت له الوصول حتى حدود تركيا (الدولة العثمانية) .

اعطى الباشا الايعازات بأن يقابل هذا الغريب بكل الاحترام وان تقدم له المساعدات التي يحتاجها لكي يصل بغداد . لكنه لم يخف بأن تفاهمه الجيد مع ملك فارس لن يمنعه من تسليم أخيه اليه اذا ماطلبه منه ، لذلك اسرع فأرسل ساعياً (تترياً) الى فارس لاخبار محمد بما يجري .

---

(٩) المقصود هنا اغا الينجرية المار ذكره في الهامش السابق .

وقّع مرتضى على الشروط التي شاء الباشا رسمها لـكي يستقبـله . ووصل بغداد كما ينبغي ، وذلك في ٤ آذار ١٧٩٧ .

استقبله الباشا بالاحترام اللائق بأخ عاهل ، وأهداه جملة جياد نفيسة ، والبسه رداء جميلاً ، كما ارسل اليه ثياباً فاخرة ، وكمية معتبرة من المال ، وأسكنه لدى مصرف أفندي (١٠) أحد موظفيه الكبار ، وقبله في ديوانه بكل مراسيم الاكرام المتبعة في تلك الربوع .

انصرمت عدة ايام دون أن يشك أحد بشيء ، ودون أن يلحق أي ضرر بالغريب . غير أن الناس كانوا متذمرين من إعطاء أهميـة كبيرة واحترام بالغ لايليق بشخص كهذا الا انه ابن محافظ منطقـة وأخ تعس لمغتصب عرش بلاده ، وهو على كل حال شخص يعيش على نفقة الباشا ، مع الافتراض الضمني بأنه قد يعزل محمداً ويحتل مكانه . لكن هذا التصرف الملوم وسببه ما احتله مرتضى الباشا من موقع ، جعلـه يحاول اكتساب ثقـة الاسياد الموجودين في بغداد ، وهو ما سوف يعمل على تبديد تلك الظنون . فكما ان الباشا لم يكن يحتمل ان يخونه احد ، هكذا كان على هذا الغريب ان يقوم بدوره حتى عودة الساعي الذي ارسل الى فارس . هذا لو لم يحدث مايعجل الامور بشكل غريب .

فان علي اغا صهر سليمان وربيبه (١١) ، شعر بجرح شعوره لان مرتضى حظي بنفس الانفة والاعتبار اللذين له ، لذا امتنع رسمياً عن القيام له بأية زيارة ، محتجاً بأن شخصاً من درجته ليس مديناً لغير الباشا بما له . وعلي اغا الذي اعتقد بأنه لا قيمة لسيد من سادة الفرس ، هارب ومتوسل ، شرع في وضع خطة لحرمانه من نعم الباشا ، زارعا بعض الشكوك حول اصله ، فقال

---

(١٠) اصطلاح تركي بمعنى مدير المال ، وقد وردت في الفرنسية :
Masraf - effendi

(١١) سليمان باشا والي بغداد ، والكهية الجديد صهره علي اغا الذي اتخذه بعد مقتل احمد اغا ، كما جاء سابقا .

بكل جسارة ، ودون ان تكون له أية أدلة ، بأن الغريب ليس سوى مغامر يجب ارساله الى فارس وسط حماية قوية لكي ينال عقاب محمد .

ولتعاسة حظ الفارسي فان التحريات التي جرت أثبتت ماقيل سابقاً دونما قناعة أو دليل ، وقادت الى الاكتشاف بأن المدعو مرتضى قولي خان لم يكن سوى اسكافي من همدان ، قد غاب عن المدينة خمس او ست سنوات . فلم يبق صعباً على الكهية استحصال امر يلزم كل الفرس المقيمين في بغداد بالمضي ليتحققوا فيما اذا كان هذا الغريب حقاً ما قال عن نفسه ، او انه احد المغامرين الشاردين .

فمضى الى مرتضى كل الذين كانوا قدعرفوه شخصياً دون ان يعرفه احد انه هو عينه (مرتضى) ، بل على العكس ، فان العديد من الفرس المولودين في همذان أكدوا بأنهم قد رأوه يعمل فيها كاسكافي .

فأوثقه الباشا بالسلاسل في ١٣ من الشهر عينه ، وقاده الى اغا الينجرية ، وارسل في الوقت بريداً آخر الى محمد .

لقد رأينا هذا الرجل نحن أيضاً . جميل الرأس ، مهيب الطلعة ، وفي نظراته تعبير قوي ، كما ان ملامحه كلها معبرة . وعمره نحو خمس واربعين سنة ،ويبدو انه قد تلقى ثقافة جيدة ، كما كان يتمتع بروح ومعرفة ليس بوسع حالته الاولى ان تتيحها له . ورغم السلاسل التي في يديه ، وتأكد الجميع من خداعه ، كان يؤكد ماسبق ان قاله وذلك بكل ثبات ، ويتصرف بكل اعتداد ، ويتحدث بأنفة ، بحيث انه لايترك المرء يستسلم لفكرة كونه ليس سوى اسكافي مرذول .

في زيارة لنا الى اغا الينجرية ، ظن هذا انه سيوجه الى سجينه ضربة قاضية ، فأمر ان يؤتى به . ولما اصبح مرتضى امامنا ، قال له اغا الينجرية بالتركية ، وهي لغة كان الفارسي يتقنها : « بما انك قد قضيت عدة

سنوات لدى الروس فلا شك انك قد تعلمت الكلام مثلهم . وهو ذا طبيب من ذلك البلد ، فحدثه كيف انك غادرت استراكان ووصلت الى بغداد » .

بقي الفارسي ملازماً الصمت . فوجهنـــا نحن الحديث اليـــه بالفرنسية . فتطلع الينا بنظرة احتقار ، واتجه حالاً نحو اغا الينجرية قائلاً : « أتظنُ انه بوسع مسلم ان يتعلم لغة غير المؤمنين ؟ لقد بقيت لاشك وقتاً طويلاً معهم لكي يسلم رأسي من ضربة حديد عدو ، بيد ان قلبي كان في فارس ، ونفسي بمعية علي (رض) ومحمد (ص) . قلْ لهولاء غير المؤمنين انني حتى لو تعلمت لغتهم ، لن أتوجه بالكلام اليهم ، ولن اتنازل فأجيب على اسئلتهم . يكفيني انني تنازلت فكلمتّك أنت ! » (١٢) .

وكان ان أُرسِل مرتضى المزعوم الى سجنه ولم يخرج منه حتى عودة السعاة المرسلين الى محمد . ولم يشأ سليمان ان يعاقب شخصاً كان قد عامله ردحاً من الزمن باحترام ، لذا اكتفى بأمره ان يغادر حالاً ، ويتوجه في طريق فارس .

لقد شاعت مغامرات من هذا النوع كثيراً منذ ان فقدت فارس ملوكها الشرعيين ، وآلت من وقت لآخر الى الفوضى ، وبالتالي الى اضطرابات عديدة ناجمة عن ذلك .

---

(١٢) ما أشبه الحاضر بالامس لدى هؤلاء المتغطرسين من الفرس) تعصب وعنجهية ، والاسباب عينها : جهل وخداع . لذا كان التاريخ خير مدرسة لمن يحب أن يتعلم .

الفصـل الحـادي عشر (١)

السفر من بغداد عبر بلاد مابين النهرين والساحل الايسر للفرات ــ الاقامة قرب بئر ــ حشرات مزعجة ــ عرب مخيمون ــ وصف هيت ــ حور من نوعية خاصة ــ عبور النهر اسفل عانة ــ وصف هذه المدينة ــ طريقة سفر الاعراب في هذه الربوع ــ سلحفاة الفرات .

مغادرة بغـداد :

لم تكن القافلة المخصصة للتوجه نحو دمشق قد غادرت بعد ، إذ شرعوا يفكرون بتشكيل قافلة ثانية أكبر منها تتوجه نحو حلب . وحالما أخبرونا بذلك ، بدأنا التعامل خطياً مع احد زعمائها لكي يجهز لنا خمسة عشر جملاً كنا بحاجة اليها . فنحن ستة أنفار .

لقد كان بروكيير هزيلاً لايقوى عـلى امتطاء الخيول . لذا فضـل ان يقفل عليه في هودج ، او ضرب من قفص يوضع من طرفي ظهر الجمل او البغل ، لكنه غيرمريح ، لانه على الشخص الراكب ان يظل مقوسا فيه . وركب في الطرف الآخر راهب من نابولي (٢) كان عليه ان يقوم لنا بدور الترجمان . بينما امتطى حصان بروكيير خادم ارمني أخذناه من بغداد ، وأحياناً طباخ بندقي (٣) كان قافلاً الى وطنه ، وشاب فرنسي مولود في بغداد كلفنا بايصاله الى باريس لكي يتابع دروسه في الطب والجراحة ، امتطى هو ايضاً

---

(١) انه الفصل الثاني والعشرون من المجلد الثالث من الرحلة .
(٢) تقع مدينة نابولي في الجنوب الشرقي من ايطاليا .
(٣) مدينة البندقية أو فينيتزيا (Venezia) في الشمال الشرقي من ايطاليا .

الحصان مثلي . اما الابل الاخرى ، عدا جمل بروكيير ، فكان عليها ان تحمل صناديقنا ، وامتعتنا وخيمتنا ، وذخيرة الطعام ، وظروفنا الجلدية وعلف جيادنا ، وأحد خدامنا .

سير القافلة :

قافلة كقافلتنا ، مكونة من ألفي جمل ، ومائة وخمسين عربياً ، وخمسين بندقية ، ونحو عشرين تاجراً او مسافراً ، لا تتشكل الا ببطء ، ولا تتحرك الا بتثاقل .

كان يجب ان تتهيأ في اواخر آذار ، لكنها لم تتمكن من الشروع بالتحرك الا في مطلع أيار .

غادرنا أخيراً (بغداد) في الثاني من الشهر المذكور (٤) ، وخيمنا في حياض ضاحية قرب باب (الشيخ معروف) (٥) . ولم نتوقف ابعد لكي تتاح الفرصة للمتوانين فينهوا انشغالاتهم ويقوموا بالتوديعات . لذا قضينا هناك اليوم الثالث كله ، وتحركنا صباح الرابع في ربوع مابين النهرين .

الكاظمية :

عبرنا بالقرب من جامع الامام موسى الواقع على بعد فرسخ من بغداد . انه جامع جميل ، ومن الجوامع الأكثر اتساعاً في المنطقة .

تلاحظ فيه قبتان كبيرتان مكسوتان بقطع نحاسية مذهبة . وله منارة مرتفعة جداً مغطاة بطابوق مطلي ذي الوان متعددة . وثمة منارتان أخريان تبدوان من الخارج (٦) .

---

(٤) اي في أيار من سنة ١٧٩٧ .

(٥) من أبواب بغداد القديمة ، وردت بالفرنسية هكذا : Scheik - Marouf

(٦) بشأن جامع الامام موسى الكاظم راجع الفصل الرابع .

في الطريق الى هيت :

بعد ثلاث ساعات ونصف من السير خيمنا في ارض مزروعة مغطاة بالحسك ، والنجيليات والحضض ، والسنط .

كانت الريح يومها من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، والحرارة مرتفعة جداً ، وفي الجو ضباب ضئيل ، كما هو الامر عادة في هذا الفصل من السنة ، ورياح تهب من الجنوب . وكان محرار ريامور الذي لم يبلغ في الايام السابقة ٢٤ درجة ، قد صعد حتى الثلاثين (٦ أ) .

وفي الخامس منه سرنا خمس ساعات باتجاه المدينة السابق ، أي الى الشمال الغربي . كان الصباح رطباً وهادئاً . لكن الرياح هبت نحو الساعة التاسعة من الجنوب الغربي ، فرأينا ونحن نسير اكوام حجارة وانقاضاً بدت لنا وكأنها انقاض مدينة صغيرة وقد حكمنا انها على بعد عشرة او أحد عشر ميلاً الى الشمال الغربي من بغداد .

تجدر الملاحظة الى ان مسيرتنا ، التي تقدر بفرسخ او ٢٥٠٠ (تواز) (٧) في الساعة حينما نكون ضمن قافلة تتكون من الخيول ، لا يمكنها ان تكون من بغداد الى حلب سوى ميلين في الساعة ، لان سير الجمل ضمن القافلة بطيء .

بعد ساعتين من السير تركنا في السادس منه اراضي الرسوب ، فارتفعت الارض فجأة ببضعة امتار (٨) واصبحنا في ارض رمال وحصى .

لقد أخذنا نباتات كثيرة هي : لبلاب شوكي ذو ازهار صغيرة بيضاء

(٦ أ) درجة الحرارة هنا وفيما سيلي من الرحلة هي بمقياس ريامور ، واعلى درجة فيه ٨٠ .

(٧) ورد هذا المقياس في الرحلة سابقا . وانظر الملحق الثاني .

(٨) هنا أيضا يستعمل اوليفييه مقياس (التواز) ، واستعضنا عنه بامتار . وهو بالفرنسية : toise

وأوراق وبرية ، وقصب (٩) يختلف عما في مصر ، وربد (عين الثور) جميل رسمناه (١٠) ، وقد وصفه السيد فنتانه ورسمه في الكتاب الذي ذكرناه عدة مرات (١١).

الاقامة على مقربة من بئر :

قطعنا اثني عشر الف (تواز) أخرى ونحن متوجهين الى الغرب بقدر أكبر من السابق ، حتى خيمنا على مقربةٍ من بئر ماؤها أجاج وغير مستحب شربه . أمضينا هناك ثمانية أيام في انتظار خمسمائة او ستمائة جمل كان عليها ان تأتي لكي تنضم الينا .

لقد تألمنا كثيراً طيلة المدة التي خيمنا فيها قرب هذه البئر . إذ كان الماء يلين البطن ويسهلها باستمرار فيضعفنا ، وكان يؤثر حتى في الاعراب بشدة كفعله فينا .اما الريح فقد ثبتت حتى الثالث عشر منه باتجاه الجنوب الغربي وغدت الحرارة لاتطاق .

وصعد المحرار تحت الخيمة يومي ١٢ و ١٣ الى درجة ٣٣ ، واستمرت على تلك الحال مدة طويلة من النهار .

حشرات مزعجة : الجنادب والخدران :

وأخذت بعض الجنادب الصغيرة التي لاحظناها لدى وصولنا تكثر في الايام الأخيرة ، بحيث يستطاع القول انها غطت الارض . وكانت تأتي الى خيامنا ، وتقفز علينا ألوفاً ، وتلسعنا احياناً حين نهم بابعادها ، كما كانت تنهال على اطعمتنا او تغرق في شرابنا .

---

(٩) استعمل اوليفييه كلمة غريبة لم نجدها في المعجمات والموسوعات المتوفرة بين أيدينا ، وقد اعتبرناها أقرب شيء الى (قصب) ، وهي بالفرنسية : pallasie

(١٠) في اللوحة ٢٥ في الاصل . والاسم العلمي Buphtalmum flosculosum

(١١) M. Ventcnat, op. cit., Description du jardin de cels, pag. 25. tab. 25.

كنا ننظر اليها وكأنها حصيلة موجة تلك الحشرات التي شاهدناها تجتاح بغداد في الايام الاولى من نيسان والتي انهال معظمها على المدينة ، وانتشر في الحقول المجاورة .لقد ذكرنا عنها شيئاً في الفصل الرابع عشر من المجلد الثاني (١٢) .

ومساء كان يحل محل هذه الجنادب حشرات أخرى ليست أقل ازعاجاً ، بل وأشد كراهية في منظرها . انها ترجع الى النوع الذي اثبته (بالا) في (الموسوعة المنهجية) تحت اسم « خدرنق » (١٣) .

ينظر اليها العرب على انها سامة جداً . فكانوا يمنعون في البداية حتى من لمسها ، لكننا حين اتخذنا الاحتياطات لئلا تلسعنا ، اكتفوا برواية قصص لاتنتهي هي بأسرها مخيفة . فان الموضع الملسوع ، حسبهم ، ينتفخ بشكل متضخم ، ثم يسودّ بسرعة ، حتى يعقبه تسمم وموت .

ان هذا الرأي راسخ ايضاً في مصر ووسط فارس .

ويورد السيد بالا (١٤) عدة احداث يقول انه كان شاهد عيان فيها تثبت كلها بأن سم الحشرة مميت اذا لم يتدارك علاجه في حينه . وينظر الى الزيت والى سائر المواد الدهنية كأفضل مايناسب ذلك .

لكننا نقول رغم تأكيدات العرب والمصريين وكل السكان الذين توجد لديهم الخدران ، ورغم تصريح السيد بالا عينه ، بأننا نشك بأن هذه الحشرات هي سامة بالشكل الذي يقولون . ألم ينسبوا للعقرب ايضاً في بلاد فارس مثل هذا الاعتقاد ؟ وفي ايطاليا بالنسبة للرتيلاء ؟ وفي جميع بلاد الشرق تقريباً كما في وسط اوربا لانواع من ابي بريص ممّا تعيش في البيوت او في الخربات القديمة ؟ او لاينظرون في مصر وكريت الى السقنقور ايضاً كحيوان سامّ ؟ .

---

(١٢) في الفصل السادس من هذا الكتاب (المنطقة الرابعة) ، ويقصد الجراد .

(١٣) M. Pallas, Encyclopédie Méthodique : Galeode

(١٤) M. Pallas, Spicilegia Zoologica, Fasc. 9, pag. 37, tab. 3, fig. 7,8 et 9.

لقد وجدنا الخدران منتشرة جداً في فارس ، وفي جزيرة مابين النهرين ، كما في جزيرة العرب . كانت تتراكض فوقنا كل مساء ، وعلى امتعتنا ، ومائدتنا ، وأسرّتنا بسرعة شديدة ، دون توقف البتة . لكنها لم تلسع احداً ، ولم نتمكن من تسجيل حادث واحد موثوق يؤكد بأن هذه الحشرة هي بالخطورة التي يحكى عنها .

لسنا نشك في ان لسعة الخدرنق يجب ان تكون مؤلمة جداً ، هذا اذا ما حكمنا عليها من خلال الملقطين القويين المتسلح بهما الفم . ولكن ، هل من الثابت بأن يصاحب لسعتها تلك افراز سمّ كما في الافاعي ؟ يبدوبأن فحص فم الحيوان لايقدم الدليل على ذلك .

تخفي هذه الحشرة ذاتها عادة ابان النهار ولا تخرج اطلاقاً الا في الليل . ويبدو أن ضوء شمعة او شعلة يجتذبها ، لان الخدران كانت تأتي عادة الى خيمتنا ، وقد كانت هي الوحيدة المضاءة . ولم نرَ الا القليل منها فيما بعد ، حين لم يبق لنا من حاجة الى النور .

ان النوع الذي كان جريانه بسرعة أكبر ، ويبدو انه الأشد انتشاراً (الشكل ٤٢ ، الرقم ٣) (١٥) ، شبيه بالذي شاهده بالا في شمال بحر الخـــزر ، ووصفه تحت اسم: phalangium araneoides في كتابه المذكور آنفا (١٦) . الاقدام صغيرة جداً ، والجسم مكسو بالفرو بأجمعه ، واللون رمادي يميل قليلاً الى الحمرة . اما الأيدي فمكسوة بأهداب بشكل كامل ، ومسلحة بأسنان حادة (١٧) .

لقد حصلنا على نوع ثانٍ (الشكل ٤٢ ، الرقم ٤) (١٨) نادرة الرؤية

(١٥) انظر الشكل .
(١٦) كما في الهامش ١٤ .
(١٧) Galeodes araneoides, chelis dentatis, villosis, simplicibus ; corpore villoso, cinereo. Encyclop. méthod. Insectes, tom. IV, pag. 580, n. 1 .
(١٨) انظر الشكل .

اعتيادياً ، تجري بسرعة أقل من الاخرى.أرجلها أقصر من الاولى مرة أو مرتين . والجسم مكسو بالفرو من اللون عينه الذي لسابقتها . الا ان اليدين حمراوان بلون الحديد (المحمى) ، والاسنان أخف . ويلاحظ في الطرف الداخلي من الجزء الاعلى دبوس مقوس ، معوج ، ومتحرك ، ينقص في النوع السابق (١٩) .

رأينا ايضاً في اطراف خيمتنا خدرنقين ليس بينهما سوى فرق طفيف وبوسعهما ان لا يكونا نوعين مختلفين ، كالسابقين ، بل جنس نوع واحد . فان للأول (الشكل ٤٢ الرقم ٥) جسماً شديد السواد ، وقـــدمين قصيرتين مكسوتين بالفرو ، ودبوساً مقوساً ، معوجاً ، ومتحركاً في الطرف الداخلي من اليدين (٢٠) . اما الثاني (الشكل ٤٢ ، الرقم ٦) فهو لاريب أنثى . لها قدمان قصيرتان جداً مكسوتان بالفرو ، وجسم أسود ، ويداها مسننتان ، وبدون دبوس جانبي (٢١) .

مواصلة الطريق الى هيت :

هبت الريح في ١٤ منه باتجاه الغرب ، واستمر هبوبها طيلة النهار بقوة شديدة بحيث اننا لم نتمكن من ترك الخيمة وطهو الطعام . لم تكن الحرارة شديدة كما في الايام السابقة ، ومع ذلك كان المحرار يؤشر درجة ٣٠ .

واصلنا طريقنا في ١٥ منه ، وسرنا ساعتين ونصفاً في طريق غير مستوية ،

---

(١٩) Galeodes phalangium, chelis unidentatis, mandibulis dente laterali arcuato, erecto, mobili ; corpore cinereo,rufescente. Pl. 42, fig. 4.

(٢٠) Galeodes melanus, chelis unidentais, mandibulis dente laterali arcuato, corpore atro. Pl. 42, fig. 5.

(٢١) Galeodes arabs, chelis dentatis, villosis ; pedibus brevioribus, corpore atro. Pl. 42, fig. 6.

متكونة برمتها من حصى . وخيمنا على مقربة من بئر ماؤها برداءة الماء السابق تقريباً .

واتجهنا في ١٦ منه نحو الغرب ، كما في اليوم السابق . وبعد ان قطعنا حوالي ستة اميال ، لمحنا الفرات من بعيد ، وخيمنا على مسافة غير بعيدة من ترعة قديمة . وقد بدت الارض عبر النهر محروثة ، وأشد ارتفاعاً من التي كنا فوقها . وقد قدرناها ببعد سبعة او ثمانية اميال .

اتانا أعراب مخيمون في الاطراف ، وقدموا للقافلة حليباً وزبدا (لبناً) وجبناً .

أمضينا يومين في هذا الموضع في انتظار بعض حمولات بضائع كانت قد تركت في بغداد ولم يتمكنوا من حملها وقتها بسبب قلة الجمال . وصلت مساء ١٨ منه ، فواصلنا طريقنا في ١٩ منه ، وقطعنا حوالي تسعة أميال .

في العشرين منه قطعنا ثمانية أميال ، وخيمنا على بعد نصف فرسخ من ترعة قديمة . حيث تنتهي اراضي الرسوب ، يبدأ هذا القسم من بلاد مابين النهرين الذي قلنا إنه يشكّل المنطقة الثالثة (٢٢) .

ينساب الفرات في واد يبدو وكأنه محفور لكي يتخذ النهر مجراه فيه . وهذا الوادي عريض في بدايته ، لكنه يضيق كلما صعدنا عبر النهر ، ويكاد يبلغ اربعة او خمسة اميال عرضاً لدى دنونا من هيت .

تغطي هذا الوادي في كل مكان أرض دسمة وخصبة جداً ، ناجمة عن الترسبات التي حملها النهر اليها . اما الاراضي التي تلي ذلك ، فكما قلنا سابقاً عقيمة ، أي غير صالحة للزراعة . انها غير كثيفة ، وقليلة العمق ، ومشوبة بالبياض ، ومحملة بملوحة زائدة ، وتقع في كل مكان تقريباً فوق طبقة كلسية. الارض مستوية عادة ، فلا يشاهد فيها جبال او تلول الاحينما

(٢٢) الفصل السادس من هذا الكتاب .

يكون المرء في حوض النهر ، اذ يشعر المرء عندئذ وكأنه بين ساحلين او تلين متوازيين . اما فيما تبقى ، فليست هذه الصحارى بالعقم الذي لاينبت فيهـــا العديد من النبـــاتات . نعتقد ان فيهـــا من النجيليـــات ، والحسك ، ولا سيما بعض النباتات الدسمة كالحرض (الشوك الاحمر) ، والاشنان .

سرنا في الحادي والعشرين منه خمس ساعات في تخوم الجزيرة ، ونزلنا مخيمين على مسافة نصف فرسخ من الفرات قرب غابة تمر هند ، كالتي شاهدناها في مصر بالضبط . فان تمر الهند يرتفع هنا كشجرة ، لكننا لم نلق في الموضع نباتات عديدة تفيدنا . لقد كانت الصحراء بالنسبة لنا أغنى بكثير من هذا الحقل المكتظ بالورود .

في ضيافة العرب :

أقمنا في هذا المكان يومي ٢٢ ، و ٢٣ منه ، لان شيخ القافلة تغيب عنا منذ يوم ٢١ ، إذ مضى لشراء بعض الجمال التي كنا بحاجة اليها لنقل الماء . فاستفدنا من هذه الفرصة للذهاب الى قبيلة عربية خاضعة لباشا بغداد والاطلاع على احوالها ، وقد كانت مخيمة في تلك الاطراف .

لم تكن القبيلة أبعـــد من نصف فرسخ ، ولدى اقترابنا منهـــا ميزنا خيمة الشيخ بسبب ضخامتها ، فتوجهنا نحوها . استقبلنا بعض الخدم في المدخل ، وأخذوا جيادنا للاهتمام بها .

كانت الخيمة واسعة جداً . مصنوعة من نسيج صوفي اسود ، ومفتوحة باتجاه الشمال ، ومرتفعة ثلاثة او اربعة اقدام من طرفي الشرق والغرب . والنساء في الجانب الاوسط ، يفصلهن عن بقية الخيمة حاجز . وكان الشيخ جالساً على سجادة قرب عمود يسند الخيمة ، وبالقرب منه ، بغلته ، قريبة جداً من الحاجز ، ورمحه وعدة النزال .

حييناه ، لدى دخولنا ، فرد التحية بدون تكلف ، ودعانا للجلوس على سجادة فرشوها لنا عند مدخل الخيمة . وبعد جلوسنا حييناه مرة ثانية . وبعد

لحظة صمت ، أعلن عربي كان يرافقنا عمن نكون فحيانا الشيخ واهتم باستقبالنا بالحفاوة التي اعتقد انها واجبة لنا .

وإثر ايصال الاوامر الى الحريم ، تحركت جميع النساء ، وارسلن قبل كل شيء صحن حليب (لبن) غنم معدّ من قبلهن ، ثم الغليون بعد قليل . واشعلن النار لتحميص القهوة ، وعمل الخبز ، ونحرن خروفا صغيراً وقطعنه لكي يعددن لنا العشاء .

لم ننتظر القهوة طويلاً ، اما العشاء فلم يكن بالامكان ان يحضر بسرعة .

وأثناء هذا الاعداد ، كان شيوخ القبيلة يتوافدون على الخيمة ، بحيث انهم اجتمعوا خلال ربع ساعة . كانوا بحدود ثمانية عشر او عشرين . لهم لحى طويلة ، وشالات (غتر) من قماش قطني حول الرأس ، وثوب (٢٣) مسترسل ينزل حتى الركب ، وفوقه عباءة . حفاة الارجل ، واليدان عاريتان . وبوسع الأيدي ان تغطى باكمام الثوب الطويلة جداً ، لكنها كانت مطوية الى الخلف لكي تترك الأيدي طليقة . ونعتقد بأنهم قد هيأوا انفسهم بهذا الشكل للمناسبة . وقد كانت الخناجر في أحزمتهم .

كانوا يحيون لدى دخولهم ، ويجلسون في الطرفين المرتفعين من الخيمة ، كما ذكرنا . ثم يحيون من جديد عنـــدما يجلسون (٢٤) ، متوجهين الى الشيخ اولاً ، ثم الينا . وكانوا قليلي الكلام ، يمتدحون الباشا من حين لآخر ، وبكلمات قليلة ، ويشكرون الله ومحمدا (ص) الف مرة بأنه استعاد صحته تماماً ، وكانوا يسألون مرات عديدة فيما اذا كنا بصحة جيدة ، وفيما

---

(٢٣) استخدم اوليفييه لفظة لم نلق لها معنى هي anteri ويفهم من سياق المعنى ان المقصود بها الثوب أو القميص الذي يرتديه سكان هذه المناطق ، ونظنه ما يسمى لدى تلك القبائل بـ (العنتري) فأثبته رحالتنا بلفظ فرنسي كما هي عادتـــه .

(٢٤) المعتاد هو ان يحيي الداخل ، فيردون عليه السلام ، وبعد أن يجلس يحييه الجالسون أولا بعبارة (الله بالخير) فيرد التحية عليهم بالكلام والحركة .

اذا كنا سنبقى في حلب طويلاً ، واذا ماكنا سنلقى بسهولة الادوية التي يحتاجها الباشا .

لقد وجهوا الينا هذه الاسئلة لان الذين في القافلة كانوا ينظرون الينا كحكيم باشي (٢٥) او رئيس أطباء سليمان باشا . وكانوا يظنون بأننا لا نقصد حلب الا لجلب بعض العقاقير والادوية التي كان الباشا بحاجة اليها لسلامة صحته .

بعد قضاء زهاء ساعتين معهم ، قدموا لنا عشاء مكونا من صحن مليء بالرز واللحم ، وضرب من المشوي من لحم خروف مقطع قطعاً ومطهواً بشكل جيد ، وصحن تمور من النوع الممتاز ، وخبز حار معد على الرماد ، وقدح ماء ، وبعض الملاعق الخشبية. كل ذلك فوق إناء نحاس مدور (٢٦) قطره قدم ونصف وضعوه فوق احدى السجادات .

لم يدم الأكل طويلاً ، فقد أكلنا قليلاً ، ولم نتحدث البتة . تناولنا الطعام باليد لكي نتكيف تماماً وفق عادات البلد ، وبعد ان أنهينا الطعام ، قدموا لنا ماء ومنشفة لغسل وتنشيف أيدينا وفمنا ثم قدموا لنا القهوة والغليون . وانسحبنا بعد ذلك بقليل .

أرسلنا مساء الى الشيخ بضع ليبرات قهوة وسكر يبدو انها أعجبته كثيراً .

لم تكن هذه القبيلة كبيرة العدد ، ولا غنية . لقد أحصينا حوالي ثلاثين خيمة ، ولم نشاهد حيوانات أخرى عدا الاغنام . بوسعها ان تجهز زهاء خمسين رجلاً يمكنهم استخدام الرماح ، من بينهم خمسة عشر او عشرون خيالة . وهي ترجع الى قبيلة بني لام (٢٧) التي تشغل مساحة كبيرة في القسم الصحراوي من بلاد مابين النهرين ، وتمتد حتى شمال دجلة .

(٢٥) وقد كتب اوليفيه ذلك بالفرنسية وشرح معناه كما أوردناه ، فقال : Hakims - baschis

(٢٦) يقصد (الصينية) .

(٢٧) كتبها رحالتنا هكذا : Beni - Lam

تكملة الطريق الى هيت :

سرنا في الرابع والعشرين منه ثلاث ساعات ، وفي ٢٥ منه ثلاث ساعات ونصفاً .

كنا على بعد قليل من السهل الممتد من الصحراء الى النهر بحيث كانت الطريق أقل او أكثر من فرسخ بعدا عن النهر . شاهدنا بقايا ترعة قديمة وعريضة جداً ، نظن انها عينها التي شاهدناها في الايام السابقة ، وبما اننا كنا قد فقدنا رؤيتها ولم نعد نراها في الايام الماضية ، علمنا بأنها لاتمتد حتى هيت .

اما النهر الذي كنا نميزه بوضوح في ارض مرتفعة قليلاً كنا نسير عليها ، فانه ينقسم هنا ، ويشكل جزيرة واسعة جداً .

حين صار الحديث عن حط الرحال ، نزلنا السهل عبر موقع كان قد استخدم سابقاً لاستخراج نوع جيد من الجبس . وتوقفنا على بعد ربع فرسخ من الفرات ، وفرسخ ونصف من هيت .

لقد كانت لنا مناسبات عدة لكي نلاحظ بأن حجر الجبس (الرخام) موجود في كل مكان تقريباً ، وانه على عمق قليل في معظم الاجزاء غير المزروعة من بلاد مابين النهرين . وقد وصفناه لدى كلامنا عن المنطقة الثالثة (٢٨) . كما انه موجود في كل الجزء الذي قطعناه من اراض غربي الفرات . وهذا مايفسر لماذا آبار الجزيرة مالحة واجاجة .

وصف هيت :

هيت (٢٩) ، حيث ذهبنا اليها مساء مع بعض تجار القافلة ، ليست ذات شأن كما يبدو انها كانت عليه في السابق . تقع على مرتفع بشكل قبعة ،

---

(٢٨) في الفصل السادس من هذا الكتاب . وهو نوع من الرخام يسمى اطراف الموصل بـ (الفرش) .

(٢٩) يكتب رحالتنا هيت هكذا : Hit

وذلك على الضفة الغربية من النهر . ويلاحظ انها كانت تمتد بشكل كبير حول هذا المرتفع . ويعتقد بأنها غدت على ماهي عليه اليوم بسبب حروب قام بها الأهالي فيها بينهم ، بحيث ان معظم مدن هذه النواحي اختفت او تضررت جداً .

لاتعدّ اليوم أكثر من الف ساكن ، جميعهم من العرب المستقرين والمزارعين . منازلها وضيعة وذات مظهر زري . ليس فيها سوى طابق ارضي ، وهي مشيدة بالصوان مثبتة أجزاؤه بالتراب .

رأينا قليلاً من النخيل في أراضي هذه المدينة . الا ان فيها حقولاً كثيرة على ضفتي النهر ، وهي مخصصة للنباتات الزراعية وبعض البقول . كان الشعير قد حصد منذ حوالي عشرة أيام ، بينما الحنطة قد نضجت ، وكان الرجال والنساء منهمكين في قطعها ودرسها مع التبن .

تسقى الاراضي بواسطة دولاب كبير يحركه ماء النهر (٣٠) ، وتشاهد نواعير بين مسافة واخرى تستقي الماء وتسكبه في القسم العلوي في مجرى مياه يحمله الى الحقول .

يقوم على النهر طوف (٣١) مخصص لعبور السكان من ضفة الى أخرى .

تستقي نساء هيت المـــاء من الفرات بسلال من قصب او بجرة مطلية بالقار ، وليس لهن غير ذلك للماء بين أدوات المنزل . تدوم هذه السلال والجرار مدة طويلة ، وتحفظ بشكل جيد السوائل التي توضع فيها .

تتكون ثياب جميع النساء اللواتي صادفناهن في المدينة كما في الارياف . من قميص ازرق (ازار) ينزل حتى أسفل الركبتين ، وعصابة بيضاء تغطي الرأس والحنك والفم ، وتترك القسم الباقي من الوجه مكشوفاً ، وتمتد حول الرقبة

---

(٣٠) الناعور الكبير ، وللرحى والدولاب أشكال خاصة في هذه المناطق .
(٣١) أو الدوبـــة .

وتثبت الى الخلف بواسطة كلاب وتنحدر الى وسط الجسم .

وثياب الرجال الاعتيادية بسيطة هي ايضاً كثياب النساء . فهي صيفاً قميص أبيض (٣٢) من قماش قطني ينزل حتى الرجلين ، وشال (غترة) حول الرأس . ويرتدون شتاءً ثوباً آخر فوقه ينزل حتى الفخذين او أكثر من ذلك بقليل (٣٣) . ويرتدون للزينة العباءة فوق الثياب كلها .

في الطريق الى عانة :

واصلنا في ٢٦ منه طريقنا فشاهدنا على بعد فرسخ من هيت وربع فرسخ من النهر ، ارضا يستخرج منها القار بكثرة ، لاسيما في أطراف المدينة المذكورة . ودخلنا بعد ذلك في الصحراء .

خيمنا على بُعد مائتي خطوة من النهر بعد ان قطعنا زهاء اثني عشر ميلاً .

سرنا في ٢٧ منه ثلاث ساعات ونصفاً ، وخيمنا قرب منحدر كلسي . وقد أخذت اراضي الصحراء تصبح شيئاً فشيئاً أشد اختلافاً ، ووادي الفرات أكثر ضيقاً وعمقاً .

وفي ٢٨ منه سرنا ساعتين في الوادي ، وتوقفنا أسفل منحدر كلسي يجعل الفرات ضيقاً جداً في هذا الموضع . وقد رأينا في هذا اليوم ، لاول مرة ، حورا جميلاً جداً غير معروف لدى النباتيين ، فرسمناه ، كما في الشكلين ٤٥ و ٤٦ (٣٤) . انه يشكل في بعض الانحاء عليقاً شديد التشابك ، قد يظن انه حسك إذ لم نلاحظ خلاله اشجاراً ترتفع بقدر الحور الاوربي عندنا ، وتتخذ لدى امتدادها اوراقاً لاتشبه الاوراق الاولى . فالأوراق الاولى (الشكل ٤٥ ، رقم ١) كاملة ، مستطيلة ، وضيقة مسننة قليلاً في نهايتيها ، وذات ذيل دقيق جداً . وبقدر ما ترتفع الشجرة تغدو الاوراق

(٣٢) وتعرف بالدشداشة .
(٣٣) نظنها الصايه .
(٣٤) انظر الشكل المرفق .

(الشكل ٤٥ ، رقم ٢) عريضة فأكثر ، ويمتد ذيلها ، وتكون حافتها ملتوية تقريباً ومسننة . واوراق هذه الشجرة بشكل الدلتا اليونانية (أي المثلث) ، ذات حافة مسننة في قسم منها ، ملتوية في قسم آخر ، وكاملة في عـدد قليل منها .

الثمرة حق ذو اصداف ثلاث ، يبدو وكأن ليس لها بوابات او حواجز داخلية . الحبوب دقيقة جداً ، بيضوية ، ومسطحة قليلاً ومحاطة في قاعدتها بزغب قطني يتسع فيملأ الحق كله . وقد كانت ناضجة في أواخر أيار (٣٥) .

تكملة الطريق الى عانة :

في ٢٩ منه سرنا تسع ساعات فوق ارض غير مستوية . وقد شاهدنا في كل مكان رخاماً (جبساً) جميلاً ، شبيهاً بالذي يستخرج ويستفاد منه في أطراف الموصل . كما صادفنا العديد من نباتات نادرة ، كالكبر ذي الاوراق القطنية ، وضرب من الوسمة ، والشيح او الابسنت المعطر الصحراوي ، وكان هذا الأخير موجوداً في كل مكان .

وقد تغير في الثلاثين منه المرمر المذكور الى صخر جبسي ورخو . واقتربنا بعد اربع ساعات من المسير من النهر ، فخيمنا على بُعد مائة خطوة منه .

وفي ٣١ منه سرنا خمس ساعات الا ربعاً في منحدرات جبسية كانت تمتد حتى حافة المياه . وبعد ان اجتزناها ونزلنا سهلا كبير الاتساع ، غير مزروع ، خيمنا على بعد ثلاثمائة خطوة من النهر .

وقطعنا في الاول من حزيران منحدراً آخر شبيهاً بمنحدر اليوم السابق ، وخيمنا بعـد اربع ساعات من المسير على مسافة ربع فرسخ من النهر . وقد شاهدنا بعض المزروعات على تلك الضفاف . لم تكن الحنطة قد نضجت كما

(٣٥) ويصفها اوليفييه باللاتينية هكذا :
Populus euphratica, foliis deltoidibus, sinuatis aut dentatis, utrinque glaucis. Pl. 45 et 46.

في هيت ، إلا انهم قد بدأوا بحصدها .

ولم نقطع في الثاني منه سوى خمسة أميال . خيمنا على ضفة الفرات كذلك . وكان النهر في هذه المنطقة عريضاً ، وعميقاً ، وهادئاً . أتونا بقاربين من عانة ، ولم نكن نبعد عنها سوى فرسخين ، وبدأت القافلة في ٣ منه بعبور النهر ، وقد استغرقنا عشرة أيام لانجاز هذه العملية .

وصف عانة :

في الثامن منه ذهبنا فأمضينا النهار كله في عانة (٣٦) .

ان هذه المدينة مشيدة في سهل ، على الضفة اليمنى او الغربية من النهر . لايشاهد فيها الا طريق واحد طوله خمسة او ستة أميال . والبيوت قائمة من الجهتين ، منعزلة ، ومتباعدة الواحد عن الآخر ، ولجميعها في القسم الخلفي منها حقل للزراعة ، سواء كانت في الطرف الشرقي ام الغربي من البيت . وليس ثمة أكثر من خمسين (تواز) للبيوت على النهر في بلاد مابين النهرين بينما في اطراف جزيرة العرب تبلغ المسافة ثلاثمائة او اربعمائة بين البيوت والصخرة الكلسية التي ينتهي السهل عندها فتبدأ الصحراء (٣٧) .

ان عانة مبنية بنوع افضل من هيت . فالبيوت مشيدة وفق أسس بناء ، ولجميعها تقريباً طابق او طابقان . لم نتمكن من التعرف على عدد السكان الذين مايزالون في هذه المدينة ، الا اننا نقدرهم بأكثر من ثلاثة آلاف . لكنها تتناقص حسبما قيل لنا ، كل يوم ، وذلك لانها غير محمية ، ولا تقوى وحدها على الصمود اليوم في وجه أعراب الجزيرة الذين يهاجمونها . ولا اسوار لها ولاتحصينات . وهي خاضعة لامير (٣٨) عربي يراجع باشا بغداد ، وليس له أكثر من خمسة وعشرين شخصاً في خدمته .

---

(٣٦) يكتب رحالتنا عانـه هكذا : Anah

(٣٧) انظر مقدار مقياس التواز في الملحق الثاني .

(٣٨) وقد كتبها اوليفييه بلفظها العربي : émir

تشاهد في الثلثين من عانة جزيرة واسعة وسط النهر ، فيها أطلال قلعة كان اليونانيون قد شيدوها ، وخربها جوليان (٣٩) ، ثم جدد العرب بناءها ، ولكنها تهدمت مرة أخرى . لقد كانت في الطرف الشمالي من الجزيرة ، وعلى مسافة أبعد منها صخور او جزر صغيرة ترتفع بضعة امتار فوق الماء (٤٠) .

يضيق النهر جداً وتشتد سرعته امام هذه المدينة ، وتمتد الصخور الكلسية من جهة بلاد مابين النهرين وحتى حافة النهر . ويشاهد تل آخر كلسي باتجاه جزيرة العرب ، يوازي الاول ويشبهه . اما في الجهة الامامية فيلاحظ شريط أرضي او سهل صغير تقع المدينة عليه ، حيث البساتين والحقول المزروعة والتي قلنا انهـا محاذية للبيوت . ان هذا الشريط اعلى بكثير من النهر ، وليس من خطر فيضان عليه حتى في أقصى الحدود .

ان حقول عانة وبساتينها مخصصة للنباتات الزراعية والبقول . كانوا يحصدون الحنطة لدى مرورنا بها. وهم يزرعون ايضاً النخيل ، والتين ، والمشمش ، والرمان ، وقليلاً من الكمثرى ، وقليلاً جداً من البرتقال . يحصلون على الماء ، كما في هيت ، بواسطة دواليب كبيرة ذات ر.. موضوعة على حافة النهر .

ترتدي نساء عانة قميصاً واسعاً ابيض او ازرق ، وثوباً طويلا ذا أكمام فوقية (٤١) . ولهن نوع من عصابة بيضاء قطنية تنزل من الرأس قليلاً لكي تغطي الفم والحنك وجزءاً من الخدين ، ثم تستدير حول العنق وتنحدر خلف الكتفين . ولجميعهن تقريباً حلقة ذهبية كبيرة بين المنخرين ، ونقط

---

(٣٩) انه الامبراطور يوليانوس الملقب بالجاحد ، حفيد قسطنطين ، وقد حكم من سنة ٣٦١ م الى سنة ٣٦٣ .

(٤٠) ورد القياس هنا أيضا بالتواز . انظر الملحق الثاني .

(٤١) انه الازار أو الثوب المردن . والعصابة المذكورة هي النقاب .

زرقاء في الوجه (الوشم) . اما فيما تبقى فهن على أحسن حال . محياهن أسمر غامق ، لكن ملامحهن قياسية .

العمل والتنقل :

طيلةالوقت الذي كنا مخيمين فيه على ضفاف الفرات ، كنا نشاهد عائلات عربية تمخر النهر وتمضي للقيام بالحصاد . الزوج ، والزوجة ، والاولاد يستندون الى قرب منفوخة ، تاركين التيار يجرفهم ، يجذفون بأرجلهم وباحدى اليدين حين يريدون تعجيل سيرهم أو تغيير الاتجاه الى اليمين او الى الشمال . والاطفال يرضعون من الاثداء . اما الذين ليست لهم بعد قوة على التحرك وحدهم فهم مشدودون الى كتفي المرأة او كتفي الرجل . لقد شاهـدنا حتى سبعة اولاد يتبعون أهلهم بهذه الطريقة . وكانت مؤن السفر محفوظة داخل القرب ، بينما الثياب معقودة على الرأس .

كانوا يجلبون لنا كل يوم احتياجاتنا من المدينة . وبما اننا كنا على بعد فرسخين ، وكان السير على الاقدام امراً متعباً ، كان الرجال يملأون احدى القرب حتى نصفها من مشمش او زبد او جبن ، بل وحتى الخبز ، وينفخونها جيداً . ويركبون فوق واحدة منها ، ويسحبون الجميع في الماء حتى يبلغوا الينا . ولم يكونوا يستغرقون ساعة لقطع هذين الفرسخين . وبعد ان يبيعوا تلك المأكولات ، يعودون سيراً على الاقدام ومعهم قربهم الفارغة .

ولا يعرف العرب القاطنون في هذه المناطق وسيلة اخرى للسفر حين يهمون بالسفر الى هيت، او الى الحلة ، او الى بغـداد . وحين يصلـون المدينة الأخيرة ، بالتقرب اليها عبر الفرات بأكبر مقدار يسـتطيعون ، ثم يواصلون الطريق بعد ذلك سيراً على الاقدام ، ويبيعون قربهم بربح يبلغ خمسين بالمائة او ستين ، يتيح لهم ان يعتاشوا حتى يجدوا لهم عملاً .

ولا تتم هذه الاسفار الا في الفصل الجميل اذ تكون المياه منخفضة ، فلا يوجد آنذاك أي خطر ، لان ذلك يجعلهم يتجنبون الصخور وجـذوع

الاشجار وكل مابوسعه ان يمزق القرب او يلحق بها أذى . ومعلوم انه لايوجد في هذا النهر أي تمساح او أية سمكة خطرة . ومع ذلك فان مياه الفرات هي صيفاً أقل خطورة من مياه دجلة .

سلحفاة دجلة والفرات (الرفش) :

لقد لاحظنا منذ مدة طويلة ، سواء في نهر دجلة كما في الفرات ، سلحفاة كبيرة لم نتمكن أبداً من الحصول على واحدة منها ، لانها قلما تأتي الى سطح الماء ، ولم تكن تبدي عادة الا طرف رأسها ، وغالباً ماكانت تتوجه الى بعد كبير عن الساحل ، حتى اني اضطررت الى الولوج في النهر عميقاً لكي أصيبها باطلاقة بندقية . وقد رسمتها في الشكل (١، رقم ١، ٢) (٤٢) .

يسميها العرب (رفشا) (٤٣) ، ويظنون بأن لحمها غير صالح للأكل ، بينما شحمها نافع للشفاء من الحزاز والبثور الجلدية الاخرى .

يبلغ طول هذا الحيوان (الرفش) ثلاثة اقدام . ويبلغ ظهر السلحفاة او القسم العلوي من الصدفة قدماً وسبع بوصات وعشرة خطوط طولاً ، وقدماً وبوصتين عرضاً . وهي ملساء ، محدبة قليلاً ، بيضوية ، عريضة في المؤخرة أكثر مما في المقدمة ، ولونها أخضر عميق غامق . الوسط منفوخ ، ومتين ذو حافتين جانبيتين ، والقسم الخلفي رخو وجلدي .

لايبلغ البطن او القسم السفلي من الصدفة سوى عشر بوصات وستة خطوط طـولا . انه منفوخ ، متين ، وله امتداد غضروفي في الاطراف يمضي فيتصل بالقسم العلوي من الصدفة .

بوسع الرأس ان يدخل في الصدفة بأكمله ، او ان يمتد نحو قدم تقريباً ، وينتهي بما يشبه الخرطوم . ويبتعد الفك العلوي عن السفلي قليلاً ، وبوسع

---

(٤٢) انظر الشكل .

(٤٣) كتبها اوليفييه الفرنسية هكذا : Rafcht

الفك السفلي ان ينطبق بدقة أكبر . ليس للفكين شفاه ، لكنهما مسلحتان بعرف عظمي صلب جداً ومقوس كحدوة الحصان .

العينان بارزتان قليلا في القسم العلوي ، وتبعدان عن بعضهما زهاء بوصة ، اما فتحتهما فتبلغ خمسة خطوط .

يتشنج العنق حين يشد ، وهو أضيق من الرأس حين يكون بروزه تاماً .

تدخل الارجل داخل الصدفة بصعوبة . ويبلغ طول القدمين الاماميتين سبع بوصات ونصفاً طولا ، وذلك من حافة الصدفة حتى منبت الاظفار ، ويشاهد فوقها خطان او ثلاثة عريضة متعارضة وقشرية ، بينما على الطرف الخارجي امتداد لغشاء الاصابع يمضي حتى ينتهي ثلاثة ارباع طولها . اما الاصابع ، وعددها خمسة ، فيحتويها غشاء صلب ، وللثلاثة الامامية منها فقط أظفار ، بينما لا شكل واضح للاخريين .

الارجل الخلفية أقصر من الامامية ، وليس لها أخاديد قشرية ولها كالامامية خمسة اصابع يحتويها غشاء صلب ، وليس الا للثلاثة الاولى اظفار .

جميع الاظفار بيضاء ، قوية ، محدبة في الاعلى ومسطحة في الاسفل ، وبارزة خارجاً عن الغشاء ببوصة تقريباً .

يبلغ الذنب سبع بوصات من اتصاله بالصدفة وحتى نهايته . انه كبير جداً بالنسبة لحجم الحيوان . وينتهي بمخروط ، يحمل في اسفله أي في مؤخرته فتحة طويلة ، انها فوهة العانة واعضاء الولادة (٤٤) .

---

(٤٤) ويصف اوليفييه هذه السلحفاة باللاتينية هكذا :

Testudo rafcht ; lorica dorsali viridi, obscura, coriacea, loevi ; sterno minori, albo. Pl. 41, fig. 1 et 2.

ويضيف أن (دودان) في كتابه تاريخ الزواحف ، المجلد ٢ ، ص ٣٠٥ يذكر هذه السلحفاة بفضل المعلومات التي أدلى له بها اوليفييه نفسه . والاشارة بالفرنسية هي :

Daudin, Histoire des reptiles, tome II, page 305.

الفصل الثاني عشر (١)

سير القافلة ونظامها ــ تصرفات زعمائها ــ عرب الجزيرة ــ مغادرة عانة ــ طريق عبر الساحل الايمن للفرات حتى الرحبة ــ وصف الطيّبةِ ــ الوصول الى اللاذقية ــ الاضرار التي سببها الزلزال في هــذه المدينــة .

سير القافلة ونظامها :

ان قافلة مهمتها اجتياز الجزيرة العربية (٢) تتكون من عدد من الشيوخ او من اصــحاب الابل ، يجتمعون فيهتمون بالامر ، ويتفقون على سعر نقل البضائع التي تعهد اليهم على مسؤوليتهم بين مدينة وأخرى .

وحين يتم تشكيل القافلة ، يجتمع الشيوخ فيختارون شيخاً من بينهم ، كنوع من قائد حملة عسكرية ، لكي يقود السير ، ويأمر بالاستراحة ، ويحافظ على النظام العــام ، ويحرص على سلامة الجميع ، فيأمر كسيد ، ويسير هو الاول اذا مااقتضى الامر ، ضد العدو .

ويختلف السعر الذي يدفعه المسافرون او البضائع عن كل جمل تبعــاً للمواسم ، وهو يتلاءم ومقدار الاكراميات التي يرونها ضرورية ان تمنح للعرب في الطريق ، ووفقاً لعدد البنادق التي يضطرون الى حملها لغرض السيطرة .

يمتطي الزعماء (٣) الجياد ، ويسيرون في مقدمة القافلة ، بل يسبقونها احياناً بميلين او ثلاثة ، ويجدون ، فيصعدون الاكمات لكي يروا فيما اذا

(١) انه الفصل الثالث والعشرون من المجلد الثالث .

(٢) أو الجزيرة الصغيرة ، بادية الشام .

(٣) أي رؤساء القافلة وشيوخها .

كان في الاطراف اعراب ، وإذ يلحظونهم يمضون اليهم ان كانوا قليلي العدد ، وإلا فينضمّون الى القافلة في حالة وجود أي خطر .

اما اصحاب البنادق فيسيرون راجلين ، ولا يبتعدون عن القافلة قط متى كانت في حالة سير .

وحين يريدون ان يخيموا ، يغـرز الشيخ علما في الارض ، فيستعد كل واحد الى النزول ونصب خيمته ، محاولا ان يكون موقعه دائرياً حول العلم ووفق نظام موحّد . اما أكياس البضائع ، ويزن كل منها ثلاثمائة ليبرة او أكثر ، فتوضع الواحد فوق الآخر ، وترتب بحيث تشكل سوراً علوه اربعة او خمسة اقدام . وتنصب الخيم الى الداخل على مقربة من الاكياس . ويرسلون الجمال الى المراعي بعد نصب الخيم ، يرافقها عدد من السواس (٤) وبعض اصحاب البنادق . لكنهم يدخلونها الى داخل المخيم ليلاً .

تضرب الخيام عند مغيب الشمس ، وليس لاحد ضياء ليلاً .

ينهض الشيوخ صباحاً ، فيعنى السواس بالجمال وأمر تحميلها . وبعد طلوع الشمس يصدر الامر بالرحيل ، فيتحرك الجميع دونما اسراع ولا تمهل كبير . بوسع الخيالة وحدهم ان يسيروا في المقدمة كما يشاؤون. والمعتاد انهم يسيرون سويّة ، وبعد ان يقطعوا فرسخين او ثلاثـة ينزلون ارضـا في انتظار القافـلة فيأكلون ، او يتنعمون بكل بسـاطة بتدخين الغليون ، واحتساء القهوة التي يعدّونها في المكان عينه بواسطة بعض اغصان نباتات او شجيرات يجمعونها في الموضع ويوقدونها .

اعداد الخبز والقهوة :

وحين تصبح القافلة على بعد خطوات قليلة منهم ، يمتطي الخيالة جيادهم

---

(٤) انهم السواس والجمالون .

ويسيرون حتى الموضع الذي سيخيمون فيه . يختارون لذلك ، قدر المستطاع ، مكاناً قد حطت فيه قوافل اخرى سابقاً . وقد كانت هذه الاحتياطات ضرورية في السابق ، لانهم يجدون هناك بعر الجمال الذي يحتاجونه لاشعال النار واعداد الطعام ، ولا سيما لتهيئة الخبز ، إذ انهم يستخدمون لذلك بعر الجمال ، فيصنعون منها قوالب ويشعلون فيهاالنار ، واثناء اشتعالها وتحولها الى رماد ، يعجنون العجين على الارض ، ويغطونه جيداً ، فيخبز دون ان يحترق . والخبز الناتج عن ذلك رديء ، لكن الاعراب يكتفون به . اما المسافرون فيحملون عادة بسكويتاً معهم (٥) .

وثمة طريقة اخرى في الصحراء لصنع الخبز ، وهي في تسخين صفيحة نحاسية بمقدار كبير ، ووضع العجين فوقها ، بينما توضع الصفيحة فوق الرماد الحار لكي تحتفظ بحرارتها مدة من الزمن ، وتعطى وقتاً كافياً للعجين لكي يخبز (٦) .

لايشعل الاعرب النار الا للشوي وصنع القهوة وتهيئة الخبز . وتتكرر العمليتان الأخيرتان كل يوم ، لان خبز الامس أردأ من الخبز الطازج ، والقهوة المقشرة والمحمصة حالا ذات نكهة اطيب من المحمصة المحفوظة . فهم لايقشرون قهوتهم الا عندما يريدون اعدادها ، لان تقشيرها وطحنها يفقدانها الكثير من النكهة . وهم يفضلون سحق القهوة المقشرة والمطحونة سحقاً كالتراب على قهوة مطحونة فقط .

اما بالنسبة للمأكولات الاخرى ، فاننا لم نشاهدهم يأكلون ماعدا التمر ونوعاً رديئاً من الجبن المحفوظ في ظروف مصنوعة من جلود الضان .

---

(٥) يبالغ اوليفييه في وصف اعداد الخبز بهذه الطريقة البدائية .

(٦) تعرف هذه الصفيحة النحاسية بـ (الصاج) ، وما تزال طريقة الخبز بالصاج متبعة في الاوساط الشعبية .

التفاوض مع القبائل والاكراميات :

بينما كانت القافلة منشغلة بتحميل الجمال والبضائع من ضفة النهر الى الضفةالاخرى ،كان الزعماء ، وهم على اهتمام كبير بما يجري حولهم ، قد أرسلوا اثنين منهم الى قبيلة غفيرة العدد قائمة غربي عانة للتفاوض معها ، والطلب اليها بالسماح لنا لكي نجتاز ارا ضيها بهدوء وتجهيزنا اذا ماظنوا ذلك ضرورياً بحماية تحرسنا حتى حدود القبيلة المجاورة .

ان احتياطاً كهذا هو عديم الفائدة شتاءً ، لان القبائل الغفيرة العدد تدخل الصحراء في اواخر الصيف ، وتدنو من المناطق القليلة الحرارة نوعاً ما والمرتفعة قليلا حيث تقوم بعض المزروعات وتوجد مراعٍ أكثر خصوبة . علينا ان نستثني القبائل التي على ضفاف شط العرب والفرات جنوبي الحلة ، إذ ان لهم مزروعات على ضفاف الانهر ، فلا يرسلون في عمق الاراضي الا القليل من قطعانهم (٧) .

ولا تعود هذه القبائل الى ضفاف الفرات الا مع عودة الفصل الجميل ، إذ تكون كل الاعشاب قد نفدت في المناطق الشمالية . لذلك ، فلا خوف شتاء في ضفاف الانهر من القبائل غير الغفيرة ، التي ليس لها ارض خاصة بها ، ولا مسكن محدد لها . فانها مرغمة ، لكي تعيش ، على ان ترعى مواشيها في اراضي الغير ، الامر الذي يجعلها تسلك مسافات طويلة . وهي عادة فقيرة جـــداً ، لذا تسعى الى السلب والنهب . ولا خيم لها ولا امتعة او علف او اي شيء يثقل عليها التحرك او يؤخر فرارها ، ماعدا بضعة بغال ، وبضع نوق وبضعة حمير . هذه هي كل ثروتهم عادة . وبما انه ليس لهذه القبائل أكثر من ثلاثين او اربعين محارباً ، فليس للقافلة ان تخشى منها بأساً اذا ماسارت بانتظام واتخذت الاحتياطات اللازمة لأمنها .

---

(٧) أورد رحالتنا هذا المقطع الاخير في هامش ، ففضلنا ادراجه في المتن .

اما بالنسبة للقبائل الغفيرة العدد التي تمتلك الاراضي ، فمن الثابت الأكيد ان المرور فيها لايدعو الى الخوف اطلاقاً ، شرط ان تخضع لعادة تقديم اكرامية ما ، دفع مبلغ يتناسب وأهمية القافلة عينها

منذ ان رأت القبيلة التي كانت نازلة على بُعد يوم من عانة زعيمينا مقبلين ، اهتمت بارسال شخصين معتبرين للتباحث في شأن المبلغ الذي يجب دفعه لها . لقد رأيناهما يصلان راكبين هجينا في ١٢ حزيران حوالي الساعة العاشرة صباحاً . كانا اخوين من أقارب الشيخ المقربين . كان محياهما جيداً ، وفي ميعة الشباب . ويبدو على الاصغر انه قد قام بحروب كثيرة ، إذ لم يكن يستنشق سوى انفاس قتال ،ولا يتحدث إلاّ عن المعارك . في وجهه آثار خنجر واصابة رمح ، لكنه كان مرحاً ، وصادقاً ، وشديد اللطف ، ولا شك شجاعاً كجميع الذين في تلك الارجاء .

احتفي بمقدم هذين العربيين باحتفال كبير حضره كل زعماء القافلة . ونحروا بالمناسبة جملا سميناً وصغيراً ، خصصوا قسمه الاكبر لهم ، ووزعوا الباقي مجاناً على التجار والمسافرين .

وقد أصابنا منه حوالي اثنتي عشرة او خمس عشرة ليبرة،أمرنا ان تطبخ لنا عدة اشكال . وقد وجدنا هــذا اللحم جيداً ، كأفخر لحم بقر سويسري او نورمندي (٨) .

قبل الجلوس الى المائدة وتناول الطعام وتقاسم الخبز والملح (٩) ، اتفقوا على ان تقدم القافلة اكرامية الى شيخ القبيلة هي عبارة عن اربعمائة قرش وبعض المأكولات وثياباً كاملة ، وعلى العربيين ان يسهرا على أمن القافلة ويرافقاها

---

(٨) يعترف اوليفييه بجودة لحم البعير ، ومعلوم بأن لحم البقر السويسري من الانواع الفاخرة ، وكذلك النورمندي ، ونورماندي مقاطعة فرنسية قديمة مركزها مدينة روان .

(٩) يسجل اوليفييه عادة العرب ، تقاسم الخبز والملح كعلامة للمحبة والاخوة .

حتى حدود القبيلة المجاورة التي تبعد ثمانين ميلا عن عانة .

استعدت القافلة بأسرها للرحيـــل في الغداة ، وفي ١ منه سارت مع بزوغ الشمس متجهة نحو الغرب والشمال الغربي . لم تكن الارض مستوية ، بل جميلة قليلاً ، وكلسية ، غير صالحة للزراعة ، وليست اراضي منطقة مابين النهرين مثلها .

بعد ان قطعنا حوالي ثمانية أميال ، عبرنا ساقية قد جفت ،لكنهم أكدوا لنا ان الماء موجود فيها شتاء . وخيمنا بعد ذلك بقليل . كان النهر على بعد ميلين منا ، وكانوا قد حملوا الماء للقافلة بأسرها ، لانهم يشكون في وجوده في الساقية المذكورة .

وقد لاحظ رجالنا السواس بعد الظهر خمسة عشر فارساً من الاعراب . فامتطى جميع الزعماء جيادهم ، وتقدموا بانتظام والرماح بأيديهم . كان عددهم واحداً وعشرين ، من ضمنهم الاثنان اللذان يرافقاننا (من القبيلة التي في المنطقة) . جهزت البنادق ايضاً ، وتقدم حاملوها الواحد بعد الآخر . ومع ذلك فان الاعراب الذين شوهدوا لم يهربوا ، بل انتظروا الزعماء وقالوا بأنهم اصدقاء . كانوا من قبيلة تسكن منطقة مابين النهرين ، معادين للقبيلة النازلة في الاطراف . وقد عبروا النهر سباحة ، ماسكين بأيديهم أعنة جيادهم ، وحاملين فوق رؤوسهم ثيابهم و شيئاً من ذخيرةالاكل . وكانت نيتهم ، على مايظن ، خطف بعض الحيوانات من الاعداء ، وعبور النهر مع غنائمهم .

بعد ربع ساعة من التباحث والحصول على الوعود بأنهم لن يقوموا بما يسيء ، بل سيعودون الى منطقة مابين النهرين ، انفصلوا عن بعضهم دون ان يحصل أي أذىً .

في وادي الفرات :

في ١٥ منه ، وبعد سبع ساعات من المسير في اراض جبسية مرتفعة ،

انحدرنا في وادي الفرات عبر طريق متآكل بسبب المياه . اجتزنا ساقية كانت مياهها قد جفت ، وخيمنا على بُعد خطوات من النهر . كانت الضفاف مغطاة بأشجار حور جميلة ، تحدثنا عنها في الفصل السابق . وينمو الاسبانخ في هذه الاماكن دون ان يزرع . أخذنا منه حبوباً نمت في باريس .

قطعنا في ١٦ منه اثني عشر ميلاً دون ان نبتعد عن النهر كثيراً . وكانت الارض رديئة وغير صالحة للزراعة كالتي رأيناها في الايام السابقة . تركنا الى شمالنا تلاً جبسياً مرتفعاً ، وقد لاحظنا تلاً آخر في منطقة مابين النهرين ، خلناه من النوعية المذكورة عينها .

لقينا أنفسنا قرب المخيم في حقل على شكل خور فيه حنطة وشعير وخندروس (حنطة رومية) كالذي شاهدناه في منطقة مابين النهرين . ورأينا ايضاً نوعاً من أشجار اللوز قمنا برسمها في الشكل ٤٧ (١٠) .

لاترتفع (شجرة اللوز) أكثر من قدمين او ثلاث . أغصانها خضراء ومقرنة ، والاوراق مخططة ومستطيلة وضيقة قليلاً في القسم السفلي ، وتكاد تكون بدون قمع ، مسننة في الاطراف ، مستديرة ، ومقورة في القمة احياناً . آحادية الثمرة ذات ريش ، مستديرة ، ومحدبة في القمة ، تقوم على محمل طوله خط واحد . تشبه نواته ، من حيث الشكل والضخامة ، نواة الكرز ، وهي رخوة ، وتحتوي على لوزة قليلة المرارة . لقد كانت ناضجة حين قطعناها . وللقشرة طعم خفيف ، لايمص . ولم نر زهرها (١١) .

سرنا في ١٧ منه ست ساعات وربعاً فوق ارض غير مستوية . فشاهدنا أكمة على بُعد نصف فرسخ من النهر . انه مرصد للمراقبة . لم يبد لنا انه قديم . حوله قبور تخص المسلمين .

---

(١٠) انظر الشكل المرفق .

(١١) يصفها اوليفييه باللاتينية هكذا :

Amygdalus arabica, foliis serratis, oblongis, infra attenuatis; fructu globoso, villoso, acuminato. Tab. 47.

وسرنا في ١٨ منه خمسة عشر ميلاً . اجتزنا بعد نصف ساعة من انطلاقنا بالقرب من اطلال مدينة قديمة لم يكن من السهل علينا ان نعرف اسمها . كانت ماتزال ثمه بقية من الاسوار المبنية بلبن ضخم الحجم مشوي في الشمس. ومايزال الخندق (الحفرة) الذي حفر حواليها قائماً بوضوح . و نطاق هذه الاسوار مربع ، ومساحته كبيرة . وقد لاحظنا حول هذه الاطلال آثار حيطان ضخمة مشيدة بالطابوق المشوي ، ومفصولة عن بعضها بطبقة ملاط سمكها بوصة واحدة . وكان يمر سابقاً فرع نهر او ترعة عند أقدام السور من الجهة الشمالية الشرقية ، اي من طرف بلاد مابين النهرين . لكنه مردوم اليوم ولا يحتوي الا على مياه آسنة ، تقوم على ضفافه كومة تراب اعتبرناها أنقاض قلعة كانت تحمي المدينة من هذه الجهة ، فيها حالياً قبور اسلامية .

وكلما تقدمنا كنا نلاحظ وادي الفرات يتسع ، وتغدو الارض خصبة والبلاد جميلة ، وقد شاهدنا في منطقة مابين النهرين تلاً أتلفت المياه شيئاً من قاعدته . اجتزناه بعد مسيرة اربع ساعات ، فغدا السهل فسيحاً جداً ، سواء في منطقة مابين النهرين ، كما في منطقة جزيرة العرب . كما أصبح النهر عريضاً ، وبدا لنا مجراه بطيئاً جداً . وقد شاهدنا عدة جزر مكسوة بالخضار ، كنا نشاهد ترعاً عديدة محفورة سابقاً لتسهيل السقي .

خيمنا على مسافة فرسخ من النهر . والناس هنا يستقون الماء الذي يحتاجونه بواسطة ترعة تكثر فيها السواقي .

التعرض للقافلة :

بينما كانت القافلة تنصب خيامها ، لمح أحد الشيوخ الذين كانوا يحموننا بعض الاعراب من بعيد ، فمضى اليهم ، وتبعه العديد من زعمائنا . لكننا رأيناهم عائدين بعد زهاء ساعتين مع فارس وشخصين راجلين بعد ان اطمأنوا اليهم . كانوا من قبيلة تائهة مخيمة على بُعد ميلين او ثلاثة منا . لم

يلحقوا بهم أي ضرر ، لكنهم لم يشاؤوا ان يتركوهم الا بعد ان نكون قد قطعنا في الغداة مسافة بعيدة عن قبيلتهم .

سرنا في ١٩ منه تسع ساعات ، في السهل على الدوام ، وعلى بُعد فرسخ تقريباً من النهر . وحين هممنا بالدنو من المكان الذي كان ترعى فيه جيادنا ، لحنا فجأة ظهور اربعة عشر شخصاً ، خمسة منهم يمتطون الهجن ، والرماح سلاحهم ، بينما الآخرون راجلون وبدون سلاح . وكنا نحن خمسة عشر فارساً ، معظمنا من التجار والمسافرين ، وكلنا مسلحون جيداً وفي حال الدفاع عن النفس . وكانت القافلة وراءنا بمسافة فرسخ .

كانت المقابلة باردة وصامتة ، ومع ذلك تبودلت التحية بين الطرفين مع البقاء عن بُعد ، ثم بدا السؤال بكثير من التحفظ والاحتراز . فعلمنا انه يوجد على بُعد قليل منا قبيلة صديقة للتي كانت تحامينا ، الامر الذي جعلنا نأمن بأننا سنتخلص منهم لقاء اكرامية يسيرة . وبالفعل ، فانه لدى وصول القافلة ، وتقديم هولاء الذين أحاطوا بنا انفسهم ، بدا على الزعماء والتجار كل الاطمئنان .

لقد اقتادنا هؤلاء الاعراب الى موضع يبعد فرسخين ونيفاً عن النهر ، فوق مرتفع بسيط . ولم تكن قبيلتهم على بعد أكثر من ثلاثمائة خطوة ، وكان لهم أكثر من مائة خيمة ، واقل ما فيهم مائتا رجل مستعدون للنزال .

رغم انه لم يكن ثمة مايقلق ، فان المخيم انتظم أكثر من المعتاد ، إذ ضاق أكثر ، بحيثشكلت الاكياس سوراً دائرياً يصعب على الجياد والهجن اختراقه . وجعلت البنادق الموضوعة في المقدمة في حالة استعمال لدى اول ايعاز . ولم ترسل الجمال الى المراعي حالاً ، انما أناخوها في الداخل ، وكان كل واحد ينصب خيمته او يضع الاكياس بينها . لقد أمست هذه الاحتياطات ضرورية ، وكان علينا ان نظهر بمظهر جيد ونبين انفسنا وكأننا في حالة صمود لكي نخفف من قوة ادعاءات الاعراب على الاراضي التي كنا فيها .

وكان زعماؤنا يتفاوضون معهم ، ولم يتأخروا عن المجيء والاعلان بأن الامر قد سوّي ، وأننا قد تخلصنا منهم مقابل شيء من المال وبعض الذخيرة الغذائية .

وبعد مدة وجيزة لاحظنا مجيء أكثر من خمسين أعرابياً راجلين وبدون سلاح ، وكان الشيخ معهم. كانوا يحملون حليباً وزبداً وجبناً ، باعوه بسعر زهيد . وقد اشترينا خروفين لم يطلبوا ثمنها سوى اربعة قروش ، أي حوالي ٨ فرنكات . نحرنا واحداً في الحقل ، بينما تبع الآخر القافلة مدة يومين .

بدت لنا الارض التي كنا عليها مرتفعة وبعيدة عن النهر ، وصالحة للزراعة . كان العشب في كل مكان عالياً وكثيفاً . ورأينا الكثير من شعن الكعوب ، وهو نبات نعرفه من وصف تورنفور (١٢) قال لنا أحد الاعراب بأن جذوره طيبة المأكل ، ويلزمنا ذلك اقتطاع ماليس فيه زهر بعـد ، وطبخه ، وقد وجدناه لذيذاً فعلاً ،وأقل فجّاً من جذور السلسفيل الاسود (الدبح الزراعي) . لست أشك بأن هذه النبتة لاتنمو جيداً في فرنسا الجنوبية كلها ، وإلا لكان بوسعها ان تغدو من أجود انواع بقولنا .

ودّعنا العربيان اللذان رافقونا من عانة ، واستعضنا عنهما بفارسين أرسلهما الينا الشيخ الذي خيمت القافلة بالأمس على مقربة من قبيلته ، وأوعز اليهما ان يرافقونا حتى الطيبة (١٣) لان هذه المسافة بأسرها تشغلها قبائل متعددة جميعها من فخذ واحد .

بعد ان قطعنا حوالي احدعشر ميلاً بلغنا حفريات واسعة وعميقة فنزلنا اليها. لم تكن القاع جيدة ، وكان الرخام (الجبس) بادياً في العديد من الاماكن .

---

(١٢) J. Tournefort نباتي فرنسي ورحالة (١٦٥٦ ـ ١٧٠٨) مهد الطريق للعالم النباتي الشهير ليني .

(١٣) الطيبة اسم عدة قرى : حماة وحمص ودرعا والسويداء ووادي العجم ، ولعل المقصودة هنا هي الاخيرة . ويكتبها اوليفييه هكذا : Taib

كان مظهره جميلاً ، صلباً ، وقابلاً للتنظيف ، كالذي يستخرج في اطـراف الموصل (١٤) .

اجتزنا عينا غزيرة الماء ، وهو أجاج ، لايستطيع أحد شربه . وتقع على بُعد مسافة قريبة من العين ، وفوق ارض جبسية ، قرية تسمى (مشهد) (١٥) ، لم نلقِ فيها بيتاً واحداً غير متضرر ، حتى انهم قد اقتلعوا الابواب والشبابيك . اما الجامع فكان مايزال في حال جيدة ، لكنه كالبيوت بدون أبواب وشبابيك ، ولا شيء فيه ماخلا الحيطان والسقف . ماتزال المنارة قائمة ، ويبدو انها قد اصلحت منذ سنوات .

كانت الارض كالسابق عبر خور ، فهي مستوية وخصبة جداً ، والعشب رغم يبوسته عال وكثيف . ولم يكن في الأفق بعد جبال او ثلوج .

خيمنا على بُعد مائتي او ثلاثمائة خطوة من خور آخر ، وعلى بُعد ميلين من اهوار سببتها مياه الفرات .

الرحبة :

الرحبة (١٦) مدينة متوسطة الحجم في السابق . انها الان على بعد ثلاثة أميال الى الشمال الغربي ، سوف نقصدها مساء . وليس فيها الان سوى أطلال غير مشخصة ، وآثار قلعة يبدو انها كانت مهمة جدا . النهر على بعد ميل ، وقرقيسية (١٧) حسبما قال أدلاؤنا ، على بعد ثلاثة أميال الى الشمال من مخيمنا .

منذ عانة سرنا دوما في الاتجاه الشمالي الغربي دون ان نبتعد عن النهر

---

(١٤) هو المعروف بـ (الفرش) كما جاء سابقا .

(١٥) المشهد قريتان : المعرة و ارم . ويكتبها اوليفيه هكذا : Mesched

(١٦) الرحبة مدينة على الفرات الاوسط ، أسسها ملك التغالبي في خلافة المأمون . وقد كتبها رحالتنا هكذا : Rahabeh, Rahabed

(١٧) قرقيسية مدينة في الجزيرة عند ملتقى الخابور بالفرات . يكتبها اوليفييه هكذا : Kerkisieh

كثيرا ، وكان توجهنا في الايام الثلاثة الاخيرة فقط نحو الشمال باستقامة . وبان لنا ان الفرات لا ينحرف بالقدر الذي نراه على خارطة دانفيل (١٨) ، انما بالشكل الذي نشرناه نحن ، لانه لو وجد ذلك الانحراف الكبير غربي عانة ، لكنا اضطررنا الى السير اياما في الاتجاه الغربي والجنوبي الغربي . كذلك فان تعرّج النهر في هيت ليس اكبر مما في الشكل الذي نلقاه مرسوما به على خارطتنا . لذا ينبغي رفع هذه المدينة ووضعها على درجة ٣٣ و ٢٥ دقيقة طولا ، و ٤٠ درجة و ١٢ دقيقة عرضا .

تركنا النهر في ٢١ منــه ، واتجهنا نحــو الغــرب . فسرنا ثماني ساعات على ارض مستوية ، صالحة للزراعة جداً . وخيمنا قرب بئر ماؤها أجاج حتى ان العرب انفسهم لم يريدوا ان يشربوا منه ، لكنهم سقوا الجمال والجياد ، بينما وزعوا على جميع افراد القافلة من ماء الفرات الذي حملوه في قرب ، واخذوا منه مؤونة كبيرة لاننا لن نلقى ماء صالحا حتى الطيبة .

وقد ظهر في هذا اليوم باعداد كبيرة تفوق المعتاد اليرابيع ، والارانب والغزلان ، والنعام ، والقطا (١٩) . وكانت الاولى منها تدخل في جحورها حالما تشتد الحرارة ، اما الارانب فكانت تتراكض بين اقدامنا على الدوام . لقد قتلنا العديد منها ضربا بالعصى . وكانت الغزلان على شكل مجاميع مؤلفة من خمسة عشر او عشرين او ثلاثين ، كانت تدنو حتى حمل الاكياس . اما النعام فكانت تبقى على مسافات بعيدة بحيث كنا نكاد نميزها من بعيد . ولن نتحدث عن القطا فقد رأينا منه الوفا .

كنا محاطين حول هذه البئر باعراب رعاة من القبيلة السابقة عينها ، ويقوم امامنا ، باتجاه الغرب جبل كنا نميزه بصعوبة .

كان يوم ٢٢ منه يوم استراحــة ، وسرنا في ٢٣ منــه ست ساعات

---

(١٨) جغرافي فرنسي ورحالة ، واسمه بالفرنسية : Danville

(١٩) يكتب اوليفييه القطا بلفظها العربي هكذا : Kata

ونصفا . كانت الارض هي هي كما في الامس ، مكتظة كذلك بالحيوانات لكننا لاحظناها اقل جودة ، لاسيما في المواضع حيث كان يبدو الرخام(الجبس) عند سطحها . خيمنا قرب بئر ماؤها اكثر اجاجا من بئر يوم ٢١ .

وكان يوم ٢٤ يوم استراحة ، بينما سرنا في ٢٥ منه تسع ساعات وربعا في ارض شبيهة بارض الايام السابقة ، لكنها كانت تغدو اقل استواء بقدر تقدمنا فيها ، وكان الافق محددا بتلول صغيرة . تركنا على بعد فرسخين او ثلاثة الى اليمين الجبل الذي كنا قد شاهدناه لدى وصولنا البئر الاولى .

مناخ هذه المنطقة :

رغم اننا كنا نرتفع يوما بعد يوم ، ونتقدم الى الشمال بدرجة ، فان الحرارة كانت تشتد كل يوم ، حتى بدت لنا مفرطة في هذا اليوم ، بحيث اننا بتنا ولا نكاد نستطيع لمس الفراش الذي تحت الخيم ، لانه كان يلتهب. وكانت الريح التي تهب كالمعتاد من الشمال الغربي او من البحر الابيض المتوسط حارة جدا منذ الساعة العاشرة او الحادية عشرة صباحا وحتى المساء ، وكأنها صادرة عن فرن محرق .

لقد انكسر محرارنا الاخير اثناء اقامتنا لدى اول بئر في بلاد ما بين النهرين ، اننا لم نتمكن بعد ذلك من التعرف على درجة الحرارة بدقة كما فعلنا في سياق الرحلة كلها . لكننا لا نقدرها باقل من ٣٠ درجة لدى البئر الاولى في عانة ، و ٣٢ بل ٣٣ من عانة الى مشهد ، و ٣٤ بل ٣٥ من مشهد الى حلب ، و ٣٤ ، ٣٢ ، ٣٠ ، و ٢٨ من الطيبة الى حلب (٢٠) .

بدت لنا الليالي شديدة البرودة ، اذ كانت الريح تهدأ منذ مغيب الشمس ، فيبرد الهواء رويدا رويدا حتى اصبحنا مضطرين الى تغطية انفسنا جيدا مع دنو الصباح . لكننا رغم هذه البرودة لم نشاهد الندى اطلاقا ، ولم نشعر باية

---

(٢٠) كان الرحالة يستعمل محرار ريامور، واعلى درجة فيه ٨٠ كما ذكرنا آنفاً.

رطوبة . وبدت ثيابنا وأسرّتنا يابسة جدا ليلا ونهارا، ما عدا الايام التي خيمنا فيها على مقربة من عانة ، على حافة النهر، ولكن الرطوبة تلك ايضا كانت خفيفة الاحساس ، ولم تكن شديدة بحيث تتحول الى ندى .

(ثم يكمل اوليفييه رحلته وهو في طريقه الى حلب واللاذقية كما يمكننا التعرف عليها من محتويات الرحلة) .

★

ملحق أول

بلاد ما بين النهرين وبابل (من مقدمة الرحالة) (١)

ان كان القسم الاعلى من بلاد مابين النهرين خصباً ومعتدلاً ، فان الآخر أجرد ومحرق . وضفاف الفرات ودجلة ، التي كانت بالأمس مكتظة بالسكان ، هي اليوم أشبه بصحراء ، لايقصدها سوى قبائل عربية من رعاة تفيدنا تصرفاتهم ، بل تستهوي العادات والشرائع الابوية التي لهم جلّ اهتمام الفيلسوف ، ولو لهنيهات . لا نخلطنّ بينهم وبين تلك العشائر المتشردة القليلة العدد التي هي في حالة حرب دائمة ، والمستعدة أبداً لسرقة القطعان وسلب المسافرين .

لقد كان بوسع بابل (العراق) ذات القاع المستوي والاراضي العميقة ان تغدو مستودعاً خصباً ، يسكنها شعب متمدن ، تجاري وزراعي . ولا غرابة في ان يولد التنجيم حيث وضوح السماء الابدي خالص يدعو الانسان الى تأمل الكواكب وتتبع حركاتها . اما اليوم فان حرارة الشمس المفرطة ، وقد تضاعفت بسبب اهمال معظم الاراضي وعريها ، تلزم المرء على قضاء النهار صيفاً في سراديب ، اما الليل ففي الحقول او على سطوح البيوت . وثمة ريح خانقة احياناً ، تختلف عن رياح افريقيا اللاهبة ، وتظهر في هذه الارجاء احياناً موجات جراد تلتهم المحاصيل برمتها دون ان يقوم المؤمن المستسلم بأقل جهد لضمان محصوله .

انتابتني الفرحة لدى اجتيازي الجبـــال التي يشغلها الاكراد لتعرّفي على

---

(١) وردت هذه النبذة في مقدمة اوليفييه ، المجلد الاول ، ص ٨ ــ ٩ .

هذا الشعب المحارب،الراعي والمزارع ،الشبيه جداً باجداده ،المديين (٢).
لقد بدا لي و كأنه هو عينه ، سواء لدى مشاهدتي اياه في تلك الارجاء خاضعاً بشكل شكلي للسيطـــرة العثمانيـــة ، أو رؤيتي ايـــاه مستسلماً للاضطرابات والقلاقل التي تزعج جيرانه .

★ ★ ★

(٢) لا يقر كثير من المؤرخين رحالتنا بأن أصل الاكراد من المديين ، ومعـلوم ان معظم الرحالة وقعوا في أخطاء كثيرة بشأن أصل الاقوام التي سكنت بلادنـا .

ملحق ثـــان

النقود والاوزان والمكاييل الوارد ذكرها في الكتاب

اورد اوليفييهتعريفاً ببعض هذه العملات والاوزان والمكاييل ، وأكملنا الباقي .

١– البورصة التركية bourse وقيمتها ٥٠٠ قرش ، أي حوالي الف فرنك (فرنسي) .

٢– القرش piastre ويقسم الى ٤٠ بارة ، وهو حوالي الفرنكين .

٣– البارة para وتقسم الى ٣ اسبرات ، وقيمتها ٥ سنتيمات .

٤– القرش التركي : لقد كان سابقاً بقيمة ٣ ليرات ، لكنه منذ التحول الحاصل على العملة في عهد السلاطين المتأخرين (القرن الثامن عشر) لم يعد يسوى أكثر من فرنك واحد و ٥٠ سنتيماً ، لكن اوليفييه حسبه فرنكين كما كان يفعل التجار الفرنسيون في زمانه .

٥– الكيلو quilot مقياس يستعمل للحبوب وحدها . ويساوي اربعة كيلوات ونصفاً (حمل) مرسيليا . ويزن كيلو الحنطة من ١٨ الى ٢٢ اوقية وفقاً لنوعية الحنطة .

٦– الاوقية ocque تزن اكثر من ثلاث ليبرات واونسين (مثقالين) بحسب وزن مرسيليا ، وأقل من اربعين مثقالاً ونصف بحسب وزن باريس ، او ١٢٣٩ غراماً .

٧– القنطار cantaar وهو ٤٤ اوقية .

٨– بيك(الذراع) pic مقياس طول ،ومنه اربعةمقاييس في القسطنطينية : الاصغر ، يستعمل للاقمشة الحريرية ، ولا يتجاوز القدمين (٦٥ سم) ومقياس الاقمشة القطنية والصوفية ، لايزيد على قدمين وبوصة (٦٨ سم) .

ومقياس ورشات العتاد ومخازنها ، ويبلغ زهاء ٢٦ بوصة (٧٠ سنتميترا ونصفاً) .

٩– ذراع البناء ، وهو الكبير ، ويبلغ قدمين واربع بوصات وثلاثة خطوط (٧٦ سنتميترا ونصفاً) .

١٠– الفرسخ lieue مقياس مسافات اختلف وفقاً للعصور ، ويبلغ من ٤ كيلومترات ونصف الى خمس كيلومترات ونصف تقريباً .

١١– الميل mille مقياس كان الف خطوة لدى الرومان ، وهو لدى الانكليز ١٦٠٩ م .

١٢– الخط ligne ويساوي ١–١٢ من البوصة .

١٣– البوصة pouce او الاصبع الابهام ، ويساوي ١–١٢ من القدم .

١٤– القدم pied بقدر قدم الانسان ، وكذلك الخطوة ؟

١٥– lire تأتي بمعنيين : الليرة ، وهي عملة نقدية تغيرت قيمتها عبر التاريخ . والليبرة ، مقياس وزن اختلف عبر العصور ، وقد يساوي نصف كغم .

١٦– العملة النقدية الفرنسية : الفرنك franc والفلس sous والسنتيم centime .

ملحق ثالث
شرح اللوحات
رسوم الاصدار (المجلد) الاول : رحلة الى الامبراطورية العثمانية

١- (اللوحة الاولى) : خارطة عامة للقسم الغربي من آسيا الصغرى او الاناضول ، والبروينتيد او بحر مرمرة ، والارخبيل كله ، وجزيرة كريت ، وموريتوس) (بيلوبونيس) ، واليونان ، وايبريا (اليونان القديمة) ، وقسم من البانيا ومقدونية .

٢- بوسفور تراقية او قناة البحر الاسود ، مع الاشارة الى طبيعة الارض القائمة على الضفاف .

٣- خارطة غور خليج موندانيا .

٤- هيلسبونت ، او قناة الدردنيل .

٥- خارطة طروادة ، وكل مجرى سيمويس من منبعه في جبل كوتيلوس وحتى مصبه على بعد نصف فرسخ من رأس سيجيا .

٦- خارطة جزر ميلو ، والارجنتيير ، وبولينو .

٧- خارطة جزيرة تيرا او سنتوران .

٨- خليج جنوب كاندي .

٩- مقبرة تركية .

١٠- نساء سيو .

١١- نساء الارجنتيير .

١٢- غصن سنديان ذي قديح كثيف الشعر مع جوزتين (عفصتين) . خشب مستخدم في الشرق بأسره لصنع السفن ، وكذلك لاخشاب المنزل .

١٣- غصن سنديان رومي (فيلاني) مع قديح كبير وجوزته . وهذا القديح معروف في عالم التجارة باسم الرومي ، ويستعمل في الصباغة والدباغة .

١٤– غصن سنديان ينتج العفص التجاري ، مع جوزتي عفص . مقتطع من ساق قوي .

١٥– غصن السنديان المذكور مع ثمره ، ويشاهد فيه ثلاث عفصات ، واحدة بالحجم الطبيعي ، والاخرى أكبر ، بينما الثالثة اسفنجية محمرة .

١٦– زواحف من الارخبيل .

١٧– أصداف ارضية (من اليونان ، وكريت ، وسيو) .

رسوم الاصدار الثاني : رحلة الى مصر وسوريا :

١٨– خارطة مصر السفلى من البحر حتى الفيوم .

١٩– خارطة الساحل المصري من مارابو الى خور أبي قير .

٢٠– خارطة ميناء ليرو ، جزيرة بحر ايجة مع المدينة والقصر .

٢١– خارطة ميناء بارثيني في الشمال من جزيرة ليرو وجزء من اركانج .

٢٢– خارطة سوريا وبلاد مابين النهرين وجزء من فارس (بموجب ملاحظات نشرها نيبور وبوشامب)

٢٣– خارطة سيدي ، صيدون القديمة (صيدا)

٢٤– خارطة صور ، تير قديماً .

٢٥– رقص مصري على الضفة الغربية للنيل .

٢٦– امراة من القاهرة ، وامرأة من حلب .

٢٧– نساء من بغداد . الاولى عادية ، والثانية بأبهة كبيرة .

٢٨– يربوع مصري بالحجم الطبيعي ، ويسمى جربيل (Gerboise)

٢٩– العظايا (١) من مصر Scincus vittatus .

(٢) من اطراف بغداد Agama agilis

(٣) من اطراف بغداد ، من بلاد مابين النهرين

وشمال الجزيرة والعجم Agama ruderata

٣٠– (١) خمخم (سرطان) العجم ، من مصر وسوريا cancer hippeus
(٢) سرطان نهري ، من انهر وجداول الارخبيل وسوريا ومابين النهرين وفارس cancer potamios

٣١– (١) اصداف بيضوية من بحيرة ماريوتيس (٢) من مصر .
(٣) من نهر العاصي (اورونتي Oronte) (٤) من اطراف بيروت (Barut) (٥) من اطراف الاسكندرية (٦) من قناة الاسكندرية (٧) من قناة الاسكندرية (٨) من اطراف اورفه (٩) من قناة الاسكندرية (١٠) من اطراف بيروت

٣٢– سنديان لبنان (الارز) من جبل الشام Quercus Libani

٣٣– (١) عظام زبابة وجدت في مومياءات ايبيس .
(٢) عظم فار (٣) نوع لفراشة augusta (٤) فراشة من نوع آخر fausta ، وقد وجدتا (٣و٤) في الساحل السوري .
(٥) رقيم رصاص بكتابة يونانية عثر عليه في بيروت .
(٦) تعويذة اسطوانية مشتراة في اورفا (٧) كذلك

رسوم الاصدار الثالث : رحلة الى الشرق :

٣٤– كردي مع ترسه وهراوته – فارسي بثياب صيفية .
٣٥– رجل بثياب غنية (بورجوازية) – امرأة مرتدية ثياب الرقص
٣٦– نادر شاه المشهور في اوربا باسم طهماس قوئي خان .
٣٧– كريم خان .
٣٨– محمد خان .
٣٩– نصب كرمنشاه المعروف باسم طاق بستان .
٤٠– آثار قائمة في اسفل جبال بيسيتون (بهستون)
٤١– سلحفاة الفرات ودجلة : (١) القسم العلوي (٢) القسم السفلي :

٤٢– (١)عظاية عثر عليها قرب اصفهان (٢) عقرب كاشان.
(٣) خدرنق Galéode aranéoide (٤) خدرنق سلامي
G. phalangiste
(٥) خدرنق اسود G. mélanie (٦) خدرنق عربي G. arabe
٤٣– شجرة ورد ذات أوراق بسيطة .
٤٤– عنزروت ينتج الصمغ بوفرة في بلاد العجم ، وارمينيا ، وآسيا الصغرى (Astragle)
٤٥– و ٤٦ حور ينمو على ضفاف الفرات واوراقه مختلفة عن الحور العادي (Peuplier) .
٤٧– شجرة اللوز العربية (Amandier) .
٤٨– خارطة آسيا الصغرى (وفي هامش طويل يقدم تحليلاً لها مع ذكر خطوط الطول والعرض ، وهي صنع دزوش A. G. Dezauche الابن ، المهندس البحارة) .
٤٩– خارطة آثينا .
٥٠– خارطة بوترينتو واطرافها (Butrinto) .



غصن سنديان ذي قديح كثيف الشعر مع جوزتين (عفصتين) ، خشب مستخدم في الشرق باسره لصنع السفن ، وكذلك لاخشاب المنزل .



غصن سنديان رومي (فيلاني) مع قديح كبير وجوزته ، وهذا القديح معروف في عالم التجارة باسم الرومي ، ويستعمل في الصباغة والدباغة .

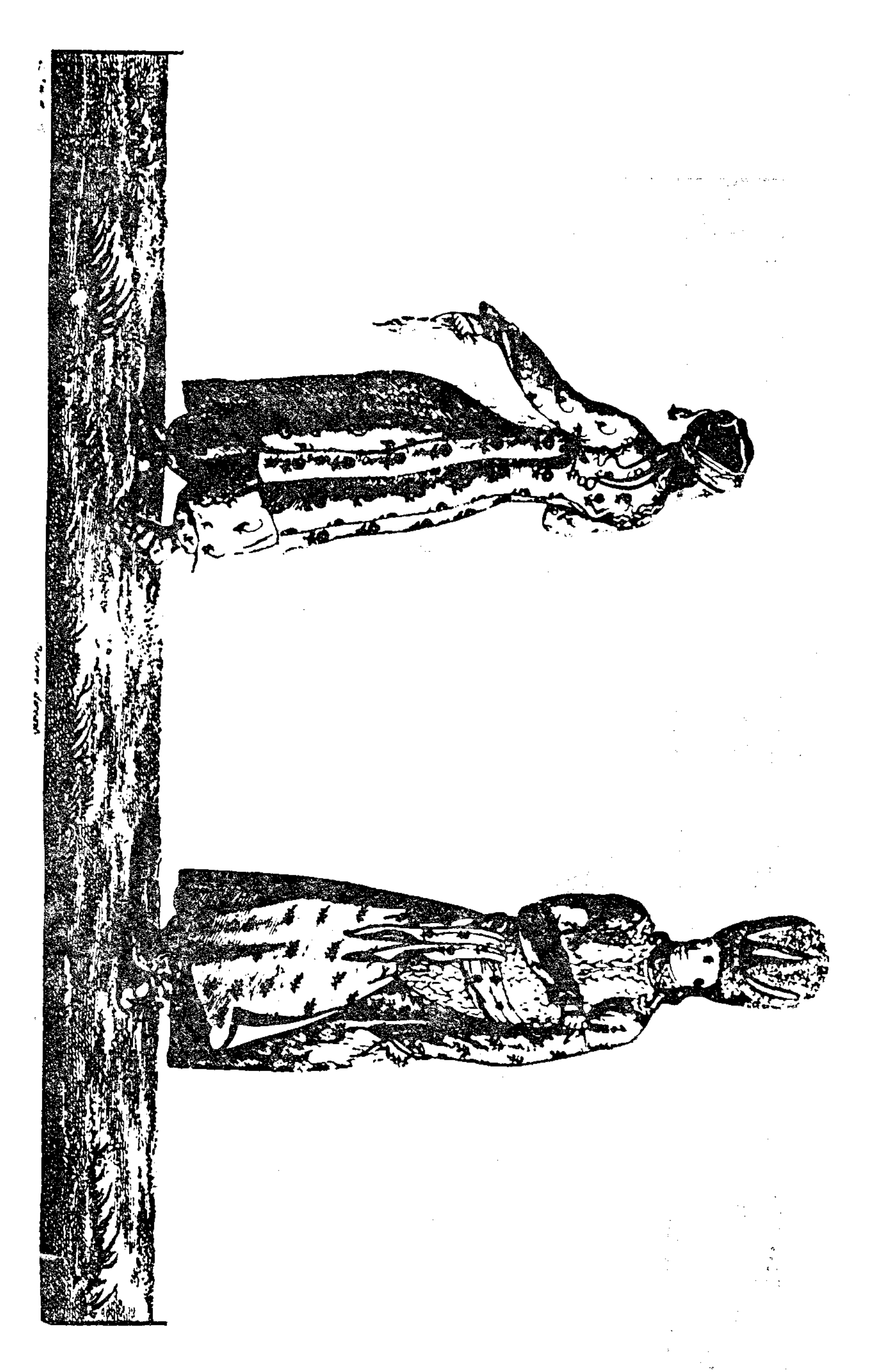


غصن السنديان مع ثمره ، ويشاهد فيه ثلاث عفصات ، واحدة بالحجم الطبيعي ، والاخرى اكبر ، بينما الثالثة اسفنجية محمرة .



امرأة من حلب

امرأة من القاهرة

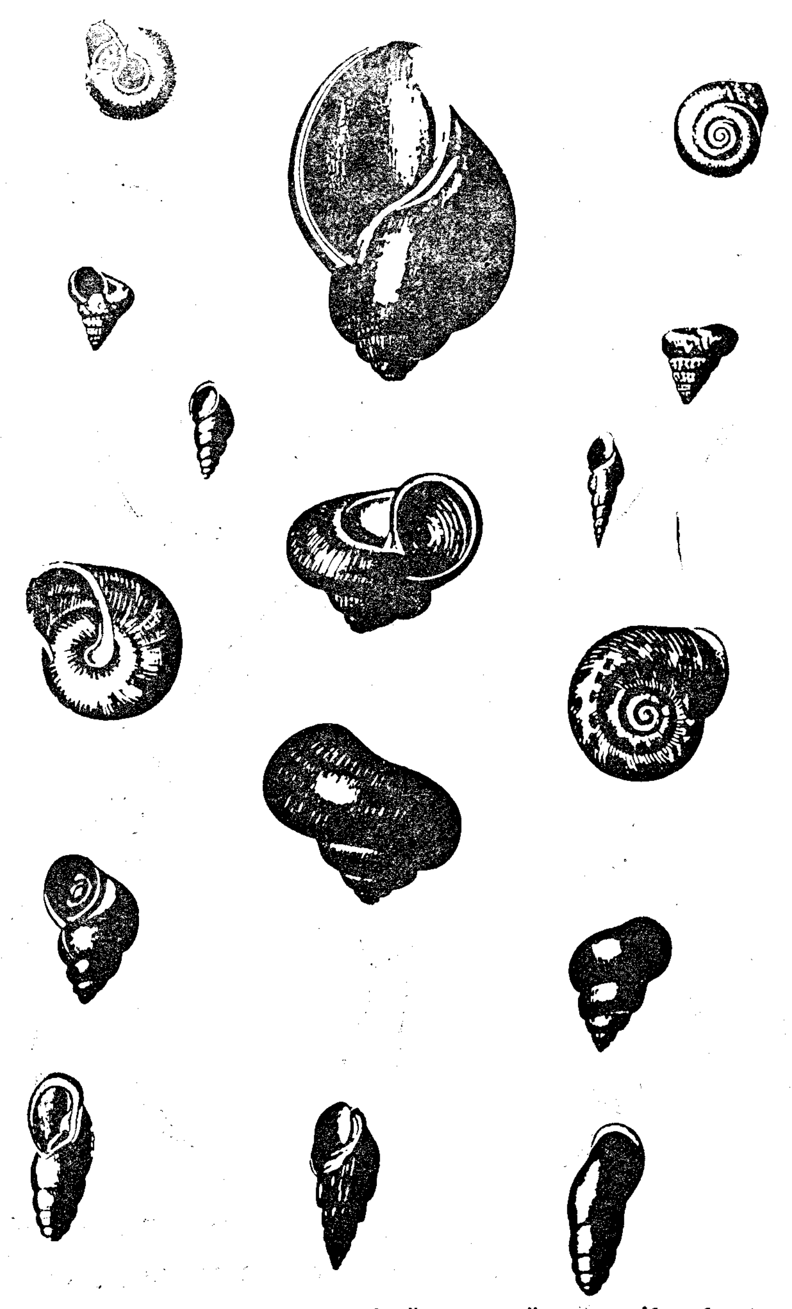


نســاء من بغــداد ـ واحدة عادية والاخرى بابهة كبيرة

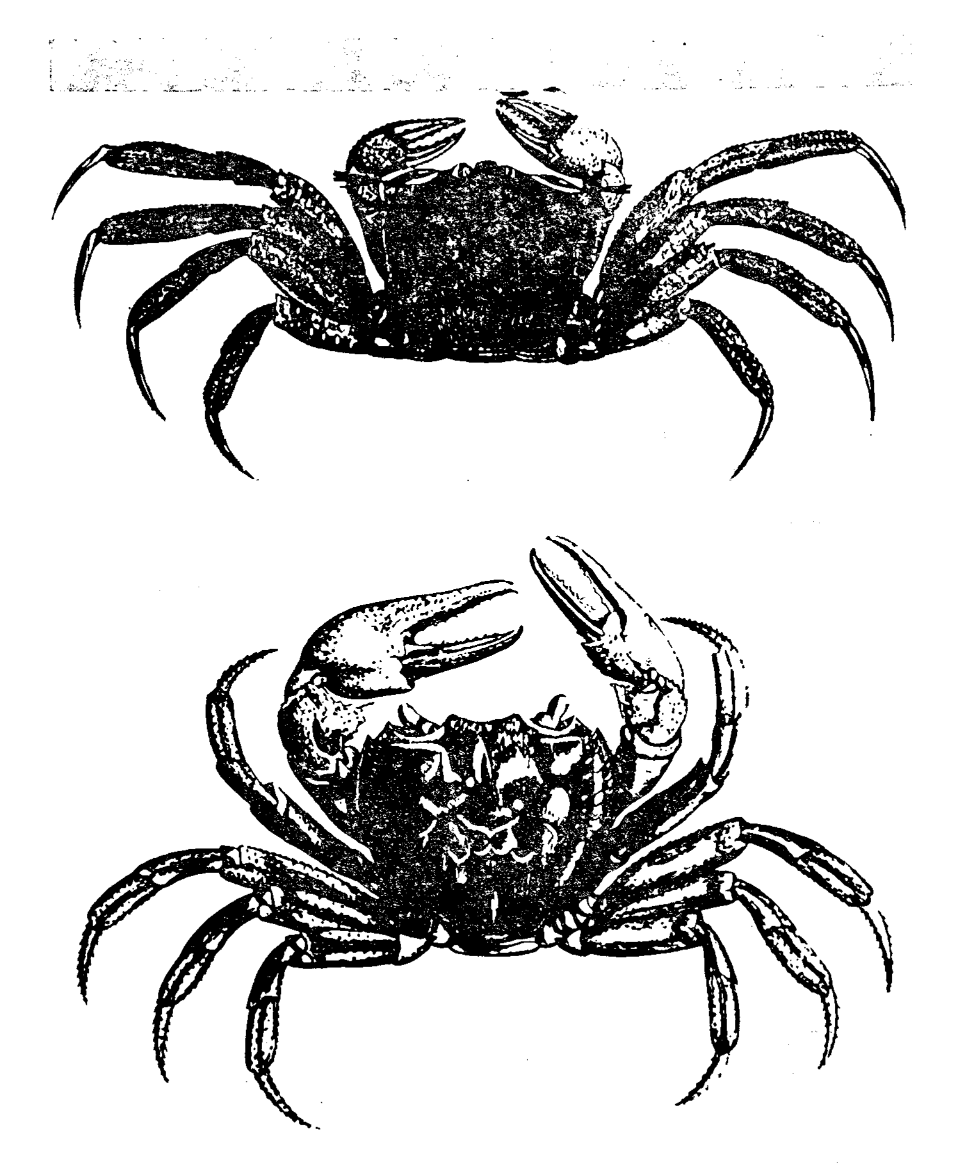


جبلي مع ترســه وهراوته

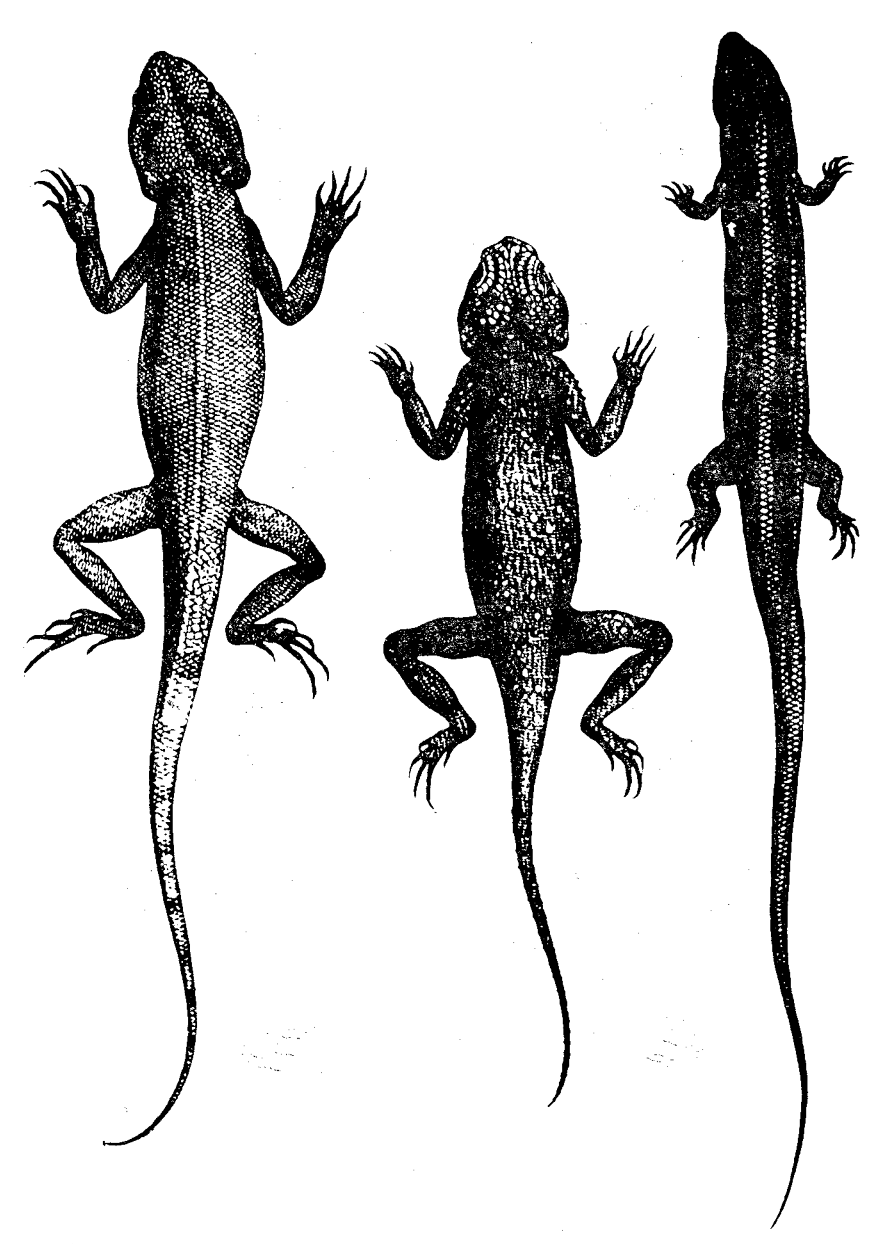
رجل بثياب صيفية



(١) اصداف بيضوية من بحيرة ماريوتيس (٢) من مصـــر (٣) من نهر العاصي (اورونتي) . (٤) من اطراف بيروت . (٥) من اطراف الاسكندرية . (٧) من قناة الاسكندرية . (٨) من اطراف اورفا . (٩) من قناة الاسكندرية . (١٠) من اطراف بيروت .



خمخم (سرطان) فارس ، من مصر وسوريا (٢) سرطان نهري من انهر وجداول الارخبيل وسوريا وما بين النهرين وفارس .

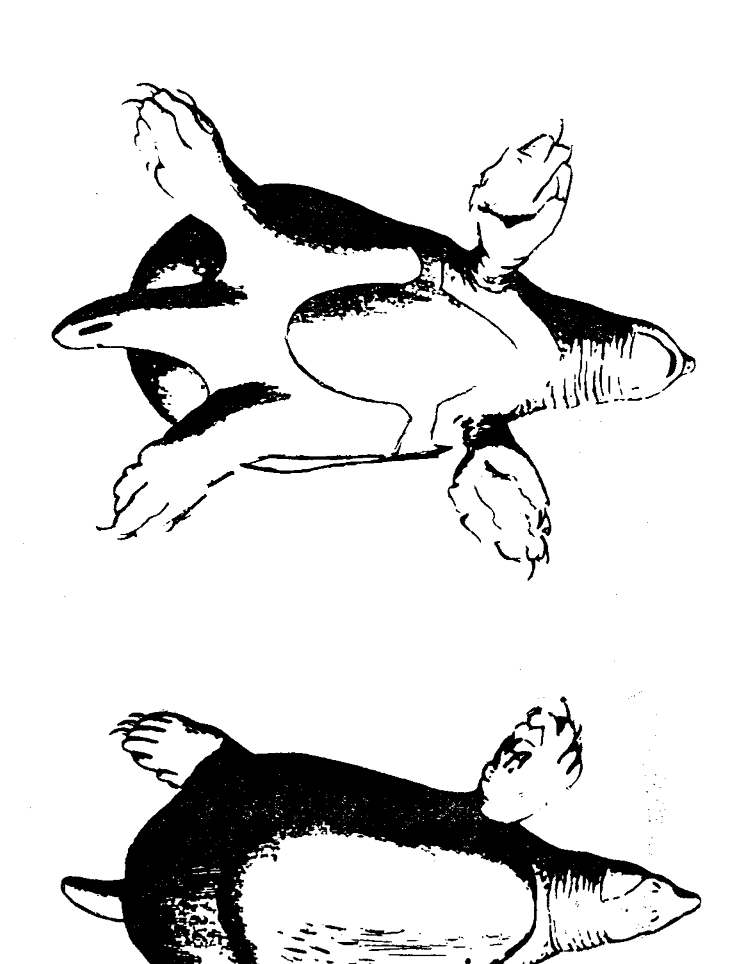


العظايا :

١ ـ من مصــــــر

٢ ـ من بغــداد

٣ ـ من أطراف بغــداد ، من بلاد ما بين النهرين وشمال الجزيرة .



سلحفاة الفرات ودجلة (١) القسم العاوي (٢) القسم السفلي .



حور ينمو على ضفاف الفرات واوراقه مختلفة عن الحور العادي .



حور ينمو على ضفاف الفرات واوراقه مختلفة عن الحور العادي . شكل ثان

فهرس الاعلام والاماكن

ب

ت

ج

ح

خ

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ل

م

١٤٣ ، ١٥٦ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ١٧٧ ،

ن

هـ

فهرس النباتات والحيوانات

ز

س

ش

ص

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ق

فهرس الكتاب

ص

الملاحق

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد ٧٥٨ لسنة ١٩٨٨

كمية الطبع ١٠٠٠٠ نسخة

تاريخ انتهاء الطبع ١٠/٧/١٩٨٨